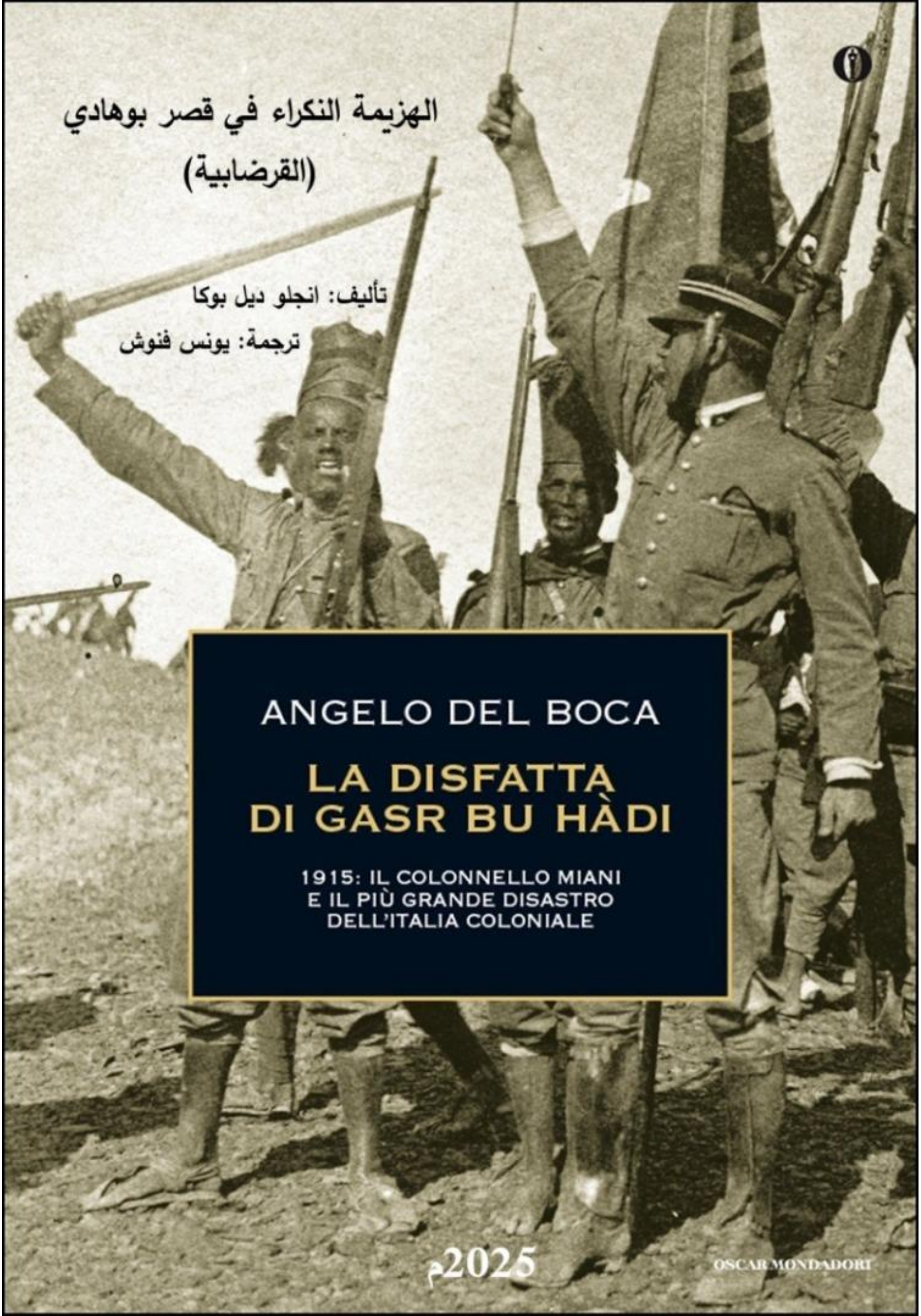

الهزيمة النكراء في قصر بوهادي
(القرضابية)

تأليف: انجلو ديل بوكا

ترجمة: يونس فنوش

ANGELO DEL BOCA

LA DISFATTA DI GASR BU HÀDI

1915: IL COLONNELLO MIANI
E IL PIÙ GRANDE DISASTRO
DELL'ITALIA COLONIALE

2025م

OSCAR MONDADORI

الهزيمة النكراء في قصر بوهادي (القرضابية):

مذنب وحيد

قائد الحملة العقيد أنتونيو مياني

تأليف: انجلو ديل بوكا

ترجمة: يونس فنوش

2025م

عنوان الكتاب: الهزيمة النكراء في قصر بوهادي (القرضابية):
مذنب وحيد
قائد الحملة العقيد أنتونيو مياني
معركة القرضابية – 1915م

تأليف: انجلو ديل بوكا
ترجمة: يونس عمر فنوش

الطبعة الأولى: 2025م
رقم الإيداع: 913 / 2024
الترقيم الدولي ISBN: 978-9959-1-3564-3
دار الكتب الوطنية - بنغازي، ليبيا
هاتف: 9097074-9096379-9090509
بريد مصور: 9097073
Email: nat_lib_libya@hotmail.com

جميع حقوق الطبع والاقتباس والترجمة من هذه الطبعة العربية محفوظة للمترجم.

2025م

الفهرس

الفصل الأول: 1

الهزيمة النكراء في قصر بوهادي: مذنب وحيد

بقاء المستعمرة في المحك.

في مصيدة وادي تلال.

انتقام ومحاكمات صورية.

مياني مثل باراتييري

مطرودين مرة أخرى إلى البحر.

الفصل الثاني: 16

أفريقيا الهواية

عائلة من الإنشائيين

إحدى عشرة سنة في إريتريا

الميدالية الفضية الأخيرة

الفصل الثالث: 29

احتلال فزان

مغامرة غير محسوبة

المغامرة الكبرى تبدأ

نحو سبها ومرزق

الفصل الرابع: 51

الثورة العربية الكبرى

وكر للثعابين

البوادر الأولى للثورة

شكوك وخصومات

الفصل الخامس: 63
الانسحاب من فزان
أوائل الانكسارات
مجزرتا سبها وأوباري
مسيرة العودة المخزية

الفصل السادس: 73
يرفضون السماح له بالدفاع عن الوطن
في البحث عن الماضي
في الجبهة، ولكن لبضعة أيام
السنوات الأكثر سوءاً

الفصل السابع: 81
كادورنا يفجر القضية
ترقية متأخرة
على بعد خطوة من الحقيقة
المعركة الأخيرة (معركة الرسائل)

الفصل الثامن: 98
امرأة في مواجهة كادورنا:
خيبة الأمل الأخيرة.
الأشخاص ذوو المراتب العليا لا يمسون
مسؤولية الطبقة السياسة
مؤامرة من الماسونية.

الفصل الأول

الهزيمة النكراء في قصر بوهادي: مذنب وحيد

بقاء المستعمرة في المحك:

في بداية ظهيرة 28 أبريل من سنة 1915 خرجت من معسكر سرت المحاط بسور من الخنادق، قافلة كبرى لم تشهد طرابلس مثيلاً لها من قبل. في مقدمة القافلة سرية فرسان الاستطلاع، مكونة من الخيالة وراكبي المهاري، والفرسان المساعدين، تتبعهم الفرق الأربع من المجندين غير النظاميين، من زليطن ومصراتة وترهونة ومسلاتة. بعد ذلك، وعلى مسافة 500 متر، تتقدم القوات النظامية، المكونة من كتيبة من فيلق القناصة الثاني، سريتين من فرقة المدفعية 57، والكتيبة الثالثة عشرة من الليبيين، والخامسة عشرة من الإريتريين، والثالثة من الليبيين، وقسم من المدفعية المحمولة على الجمال، وسرية من المتطوعين الإيطاليين. وتتبع بعد ذلك قافلة مكونة من ألفي جمل، وعدد من البغال والعربات. وفي نهاية الحملة الكتيبة الليبية الرابعة.

وفي المجمل كان جسم العمليات يتكون من 84 ضابطاً، و900 جندي نظامي إيطالي، و2175 من الجنود النظاميين المحليين، و3000 متعاونين ليبيين، و12 مدفعاً جبلياً، ومجموعتين من البنادق الرشاشة. وحالما أصبحت القافلة خارج محيط معسكر سرت المحصن، اتخذت وضعية التشكيل المربع الكلاسيكية، التي تتيح المتابعة المباشرة لكل الجبهات، وأفضل دفاع عن الحملة، والقدرة على الانتقال السريع إلى وضعية القتال.[1] كان يتولى قيادة الحملة العقيد أنتونيو مياني، وهو من قدامى العسكريين في حروب إيطاليا الاستعمارية. فله يرجع الفضل في احتلال فزان، الذي تم بين سنتي 1913 و1914، على رأس حملة لا تكاد تزيد على ألف رجل، أي خمس القوة التي هي الآن تحت تصرفه. ولكن في شتاء عام 1914م كان على مياني أن يتخلى على نحو مفاجئ عن فزان، على أثر ثورة عربية، لم يكن أحد، لا في طرابلس ولا في روما، يتوقع حدوثها ولا مدى اتساعها.

والآن كان على مياني أن يصل إلى قرية قصر بوهادي التي تقع على بعد عشرين كيلومتراً جنوب سرت، حيث احتشدت القوات العربية بقيادة أحمد التواتي، وربما أيضاً الزعيم السنوسي صفي الدين. لقد كان الموقع الذي تدور حوله العملية ذا أهمية حيوية. فلو تمكن مياني، الذي كان

---

[1] جويدو فورناري، الإيطاليون في الجنوب الليبي: قافلة مياني (1913–1915م)، منشورات مكتب الدراسات بوزارة أفريقيا الإيطالية، أيرولدي، فيربانيا، 1941م، ص 295.

تاريخه العسكري يسجل له تحقيق ثلاثة انتصارات على المجاهدين، في مناطق الشب وأشكدة ومحروقة، أثناء حملته لاحتلال فزان، من هزيمة العرب، الذين كان يحسب أنهم لا يزيدون على ألف وخمسمائة رجل، فسوف يكون قد ألحق بالثورة ضربة حاسمة، وربما قاضية. أما لو تعرض مياني في قصر بوهادي للهزيمة، فإن من شأن ذلك أن يهدد بقاء المستعمرة كلها. ولذا فقد كانت المواجهة تنذر بأنها ستكون مسألة حياة أو موت، لا سيما أن مدة لا تكاد تبلغ شهراً من الزمن كانت قد بقيت على دخول إيطاليا الحرب ضد الإمبراطوريات الوسطى، ما كان يمكن أن يعني دعماً مؤكداً من قبل تركيا وألمانيا للثورة العربية.

لقد كان مياني يدرك تماماً حجم المسؤوليات التي تحملها، ولو على مضض، تجاه وزير المستعمرات فيرديناندو مارتيني، الذي يعهد إليه الآن بمهمة بالغة الصعوبة، نتائجها غير مضمونة، في حين كان عليه أن يعزله من القيادة بسبب انسحابه المتعجل من فزان. لقد كان مارتيني يثق في ابن لمبارديا مياني ثقة مطلقة. كتب في مذكراته "لولا أن رتبته لا تسمح بذلك، فقد كنت أعينه حاكماً للمستعمرة. إنه رجل من الطراز الأول".[2] مياني كان إذن يدرك تماماً أن مصير طرابلس كلها رهين بما يحدث في قصر بوهادي، ناهيك عن مصيره هو نفسه، ومصير حياته العملية؛ فمارتيني لم يكن ليهبّ لنجدته مرة أخرى، لو فشل في أداء مهمته.

وبينما كانت القافلة تتقدم على طول ساحل المتوسط، مجتازة سلسلة من الكثبان، ومحاذية لسواني وآبار أم الجوابي، لابد أن مياني كان يفكر في خطة الهجوم، وفي كيفية العمل وهو يجد نفسه وكأنه يخوض معركة "حياة أو موت".[3] في محروقة، على الرغم من تفوق العدو، تم كل شيء وفق الخطط المرسومة، وانتهى محمد بن عبد الله (البوسيفي) قتيلاً على الأرض هو ومائتان وخمسون من رجاله. وقد كان يمكن أن يتحقق أمر كهذا حتى في قصر بوهادي، فبكل تأكيد لم يكن أحمد التواتي أكثر مهارة من محمد بن عبد الله. ولقد كان مياني، على كل حال، واثقاً من أمره، من مهارته ومن قدراته على المناورة.

ولكنه كان يجهل عدداً من الحقائق، لم تكن بكل تأكيد قليلة الأهمية، وكان من شأنها، لو أنه علمها، أن تطامن من تفاؤله. بادئ ذي بدء العرب الذين كانوا يحتشدون في قصر بوهادي لم يكونوا ألفاً وخمسمائة رجل فقط، كما كان المخبرون قد أفادوا، بل كانوا ستة آلاف، وربما أكثر من ذلك. وإلى جانب ذلك مسألة عدم الثقة التامة في المجندين الليبيين، الذين تم تجنيدهم بالقوة في أماكن سكناهم، بين طرابلس ومصراته. لقد كان كثيرون من بين هؤلاء يشعرون بالتعب من السير

---

[2] فيرديناندو مارتيني، مذكرات، 1914–1918م، منشورات مونتادوري، ميلانو، 1966م، ص320.

[3] مشار إليه في: ماسيمو أدولفو فيتالي، إيطاليا في أفريقيا: أعمال الجيش، مج III، معهد الطباعة الحكومي، روما، 1964م، ص66.

خلفه، بل إن من بينهم من كانوا على علاقة مع المجاهدين. وقد حدث في 26 أبريل أن تظاهر مائتان منهم احتجاجاً على إجبارهم على أخذهم للحرب في مناطق بعيدة، بخلاف العهود التي قدمت لهم. وقد كانت إجابة مياني فورية. بدأ أولاً بإعادة تشكيلهم، ثم انتهى بالتهديد بإبادتهم تماما، لكن هذه الحوادث المثيرة لبعض الشك، كما كتب مياني في مرافعته الدفاعية "لم تبلغ الحد الذي قد يدفع إلى التردد أو التوقف عن العمليات التي كانت قد بدأت بالفعل. ولذا فقد اكتفيت، في تقرير موسع عن اجتماع لقيادات الفرق، عقد في سرت يوم 27، بالحديث عن إمكانية ألا نجد من جماعات المجندين تعاونا، وربما فراراً من بعضهم، أثناء المعارك، ودعوت إلى بذل المزيد من الحيطة والحذر، حتى نخفف، لو حدث مثل هذا، من آثاره ونتائجه".[4]

من هنا فإن مياني لم يغب عنه مطلقاً حالة التذمر التي كانت تسود في أوساط ثلاثة الآلاف مجند ليبي، ولكنه كان يظن أن أقصى ما يمكن أن يحدث فرار بعضهم، ولم يضع في حسبانه مطلقاً أنهم يمكن أن يتمردوا، بل أن ينضموا إلى المجاهدين. لقد كان هذا الاحتمال بعيداً جداً عن حسابه، حتى أنه وضع فرق المجندين في مقدمة الحملة. فقد كان لا يزال يثق ثقة كبيرة في قادتهم وزعمائهم، مثل رمضان اشتيوي السويحلي والساعدي بن سلطان وأبوبكر النعاس، وعبد النبي بلخير،[5] ومحمد فوزي بي، على الرغم من أن أولهم (السويحلي)، مثلا، كان معروفا، لدى حكومة طرابلس، بارتكابه عدة عمليات قتل، وأنه حاول أو قام بعدة خيانات.

ولقد كان ثمة شيء آخر لا يسير في صالح مياني. كان يجر وراءه قافلة غير متوازنة من المؤن، كانت تقيد كل حركة من حركات الفرق، وكان من الممكن، في الوقت نفسه، أن تثير شهية فرق المجندين غير النظاميين. ولننظر فقط إلى القيمة الهائلة لما يقرب من ألفي جمل، وخمسة آلاف بندقية، وملايين من قطع الذخيرة، وما لا يحصى من المؤن الغذائية. لقد كان بوسع مياني أن يترك جزءاً من هذه المؤن في سرت، كي يكسب مزيداً من المرونة والسرعة في الحركة، ولكنه، لسبب غير معروف، لم يفعل ذلك.

وطوال ظهيرة يوم 28 أبريل كانت القافلة تتقدم على مسافة قريبة من البحر، جاعلة أول هدف لها الوصول إلى آبار بوشناف. وكانت خلال هذه المسيرة تتعرض لبعض المناوشات من جهة اليمين من قبل فرسان السنوسية، تدعمها بعض قطع المدفعية. وهي هجمات كان من السهل على الخيالة وفرسان الجيش أن تصدها. عند هذه النقطة، كان على مياني؛ إذ لم يكن معقولاً ألا يتوقع

---

[4] أ.ت.و.أ.إ ، ليبيا، (posizione): 9/122، ملف 81، التقرير العام حول الوقائع في سنوات 1914–1915م، ص72.

[5] عبد النبي بلخير: شيخ ورفلة. كان أكثر من ينصت إليه مياني من مستشاريه خلال الحملة لاحتلال فزان. وقد عهد إليه العقيد في 19 أبريل 1915م مهمة القيام هو وأنصاره بتهدئة الأوضاع في مناطق ورفلة. لكن بلخير انتهز تكليفه بهذه المهمة كي ينسق الهجوم الشامل ضد الإيطاليين.

حدوث هجمات أشد قوة، أن يتبين مدى الخطأ الذي ارتكب. وكما ورد في تقرير الجنرال ديل ماسترو، الذي كلف بالتحقيق في وقائع قصر بوهادي، "لم يكن أمام العقيد مياني إلا إعادة القسم الأعظم من القافلة إلى سرت، ثم حل كتلة القيود التي تمثلها تشكيلة الجحافل، ثم تفكيكها وإعادة تنظيمها في العمق، ثم إعداد قواته للقيام بعمل متناسق خلال اليوم التالي، وفق أوامر قتالية واضحة ومحددة ومتكاملة. لم يحدث شيء من هذا، ولم يتضمن أمر العمليات ليوم 29 سوى ما يتصل بالتشكيل المتعلق بالحركة".[6]

وقد كان مما أضر بحملة مياني الانتقامية عدم وجود غطاء جوي، الذي كان ذا أهمية بالغة خلال الصراع الإيطالي التركي سنتي 12–1911م؛ إذ تم للمرة الأولى في التاريخ، تجربة مختلف أشكال استخدام الطائرة.[7] ولعل مما يثير الاستغراب، إضافة إلى ما سبق، أن آخر سرب من طائرات فارمان (farman)، الذي كان يمكن أن يكون مفيداً جداً لمعرفة حقيقة وحجم الفرق العربية التي كانت محتشدة في قصر بوهادي، والقيام بتشتيتها بقصفها بالقنابل والرشاشات، قد ابتدئ في سحبه من طرابلس، وتمركزه في فيرونا. لولا ذلك، لعل المواجهة كانت ستأخذ منحى مختلفا.[8]

في مصيدة وادي تلال:

بعد قضاء ليلة هادئة في آبار بوشناف، استأنفت قوات مياني زحفها في السابعة من يوم 29 أبريل، منحرفة نحو الداخل، في اتجاه الجنوب والجنوب الغربي، بحيث تبلغ شرق قصر بوهادي، ومن ثم تغلق على العدو طريق الانسحاب نحو الشرق. في التاسعة والنصف أبلغت فرق المجندين غير النظاميين من مصراته وترهونة عن وجود قوات كبيرة للعدو. وهنا اتخذ الطابور، وهو لا يزال في هيئة كراديس، مواقعه، محتلاً قمة كثيب، كانت تُرَى من ورائه قرية قصر بوهادي. وبينما كان العقيد يأمر بتنفيذ هذه المناورة، انطلقت من معسكر العدو الإطلاقات الأولى، فردت عليها بقصف مكثف قطع المدفعية الإيطالية الاثنتا عشرة. كانت الساعة عندئذ العاشرة والنصف.

---

[6] أ.ت.و.أ.إ ، ليبيا، (posizione): 6/122، ملف 52، تحقيق الجنرال ديل ماسترو وتقرير الحاكم تاسوني حول معركة قصر بوهادي, ر. 2893 وبتاريخ 27 أغسطس 1915م، ص 11.

[7] فينشينسو ليوي، إيطاليا في أفريقيا، أعمال الطيران، مج: ا، إريتريا–ليبيا (1888–1932)، مكتب الطباعة الحكومي، روما، 1964، ص ص1–34.

[8] بقيت ليبيا لمدة 15 شهراً بدون أي وسيلة طيران. ولم تستأنف رحلات الاستطلاع والقصف إلا في أكتوبر 1915م، لكن ذلك كان متأخراً جدا؛ فقد كانت الثورة العربية قد نجحت في طرد الإيطاليين من الدواخل الليبية، وحصرتهم في منطقة الساحل.

في هذه اللحظة فقط تبين مياني أن القوة التي كان يملكها الخصم تفوق ما كان يتوقعه بأربعة أضعاف على الأقل. وهنا أصدر لقادة الفرق النظامية أمر الحرب التالي: "إن العدو يركز قواته في المنحدر الأسود للوادي أسفل قصر بوهادي، الذي تحده الكتلة الحمراء لضفته الغربية. وبما أن طريق الانسحاب المتاحة للعدو تنفتح عن يسارنا، فإني أنوي مهاجمته في المواجهة بجناحي الأيمن، ثم ألتف بجناحي الأيسر على جناحه الأيمن، لمنعه من الفرار. وسوف تتمركز قوة الفرسان، كما في الأمر السابق، عن يسارنا، على استعداد للتحرك حسب الخطة المشار إليها".[9]

لقد كان هذا الأمر متأخراً جداً، إضافة إلى أن بعض قادة الفرق أساؤوا تفسيره. يضاف إلى ذلك أن مجموعة مصراتة توقفت عن الحركة، واتخذت موقفاً مشتبها، في حين رفضت جماعات ترهونة ومسلاتة رفضاً صريحاً المشاركة في القتال. وبينما كان مياني يقف عاجزاً إزاء انشقاق فرق غير النظاميين، وجد أن الفرق المكونة من ليبيين وأريتريين تتخذ مواقع مخالفة تماماً للأوامر التي أصدرها. عند هذه النقطة، وبينما كانت القوات الإيطالية كلها تتجه للتفكك والانهيار، تحول انشقاق الجنود غير النظاميين إلى خيانة حقيقية. وباستثناء مجموعة زليطن، التي كان يمسك بزمامها جزئياً القائمقام القوي محمد فوزي بي، فإن بقية المجموعات، بدلاً من الرد على نيران المجاهدين، اندفعت إلى الوراء بسرعة نحو قافلة الإمدادات. وكما ورد في تقرير لجويدو فورناري "في لحظات قليلة تمت مهاجمة القافلة المربعة في مقدمتها وجناحها الأيسر، وطوردت الجمال وبُرِّكت، وقُتِل مرافقو الدواب الأخرى، وفي خضم اختلاط واضطراب مريع، بين صرخات وهتافات متوحشة، ودمار للحمولات، وفرار للجمال، وجدت القافلة نفسها تنجر بعيداً نحو الشمال الغربي. وضاعت كل التجهيزات، من ذخيرة وتموين ومياه".[10]

بعد وقوع الخيانة من جانب فرق الليبيين، أصدر مياني أمراً جديداً، تبين على الفور أنه غير قابل للتنفيذ، وذلك لأن كل الفرق كانت في ذلك الوقت منهمكة في القتال، وكانت كل فرقة تتصرف بمفردها. فقد اندفعت الفرقة الليبية الثالثة بعيداً إلى الأمام حتى انتهت إلى وادي تلال، حيث قابلتها على الفور قوات من العدو أكثر منها عدداً. أما الفرقة الإريترية الخامسة عشرة فقد تنحت يساراً، إلى مسافة كيلومتر ونصف، فاقدة كل اتصال مع القيادة. والمجموعة الليبية الرابعة، التي كانت مهمتها مرافقة وحراسة قافلة الإمدادات، تخلت عن القافلة بدون أي سبب معقول. ولم يبق في مركز القيادة سوى مجموعات الوطنيين وعاملي المدفعية، الذين ظلوا صامدين بقوة على خط القتال، ولكنهم تعرضوا للإبادة من قوة نيران العرب الهائلة، وأخذت ذخائرهم تنفد.

---

[9] مشار إليه في ج. فورناري، سبق ذكره، ص ص299–300.

[10] المرجع السابق، ص303.

وفيما كانوا يُحاصَرون من كل جانب، كانت قوات الجند والمدفعية والفرسان يقاتلون قتالاً يائسا؛ وسقط على رأس قواتهم المقدم بيرتسيو بيرولي والرائد موسييه. وسقط فوق أسلحتهم الملازمون ديللا بونا وديناردو والرائد فونتيبوني. واخترقت رصاصة عربية كتف مياني نفسه. كان الوضع كارثيا. وبصعوبة بالغة تمكن مياني، عند منتصف النهار، من الرجوع بقواته خطوة إلى الوراء، حتى يكون بوسعه بعد ذلك الانسحاب في شيء من النظام. وكما تحدث حاكم طرابلس الجنرال تاسوني، لم يحسن العقيد "اختيار اللحظة المناسبة للأمر بالانسحاب، الذي كان يمكن في مثل هذه الحالة أن يتم بشكل منضبط، دون إتاحة أي فرصة لأن تهبط معنويات الجنود إلى الحد الذي تضطر فيه كل فرقة لاختيار اللحظة النفسية الحرجة كي تتخذ بنفسها قرار الانسحاب، فيتحول الانسحاب إلى فرار".[11]

لن نعرف أبداً السبب الحقيقي لهذا التأخير القاتل. لقد بحثنا عنه دون جدوى بين أوراقه. ربما كان مياني يظن أنه لم يلعب بعد كل أوراقه. ولعله كان يسترجع ذكريات المعارك التي خاضها في الماضي، وحقق فيها انتصارات باهرة. كما حدث في أقوردت ضد الدراويش، وفي دبرا هيلا ضد راس منقشا، وفي محروقة ضد محمد بن عبد الله. ومع أن تلك المواجهات لم تخل من لحظات سادت فيها الفوضى، إلا أن كل شيء تم فيها على ما يرام. على كل حال، كان الوضع في قصر بوهادي قد تدهور إلى الحد الذي لم يعد يجدي فيه أي علاج. لقد تأكد أن الحظ قد خذل العقيد خذلاناً حاسما.

في الساعة 13.30، وكانت أوامر القتال كلها قد اختُرقت، ونفدت الذخيرة تقريباً، اندفع الإيطاليون وحلفاؤهم في انسحاب غير منضبط، على الرغم من الجهود التي بذلها مياني (وكان في هذه الأثناء قد تعرض لإصابة أخرى) والمقدم شيزاري بيليا لإيقاف اندفاع الفارين. ومرة أخرى كانت كتائب الفرقة 57 هي الوحيدة التي صمدت أكثر من غيرها في مواجهة هجمات فرسان العرب. وفي أثناء الانسحاب تخلى المنسحبون عن كل المدافع، عدا واحدا، وعن كل البنادق الرشاشة والسيارات. ولم يتوقف الفارون إلا عند تلال السواني، على بعد أربعة كيلومترات من سرت. أُرسِلت من القلعة بضع سيارات محملة بالذخيرة، ولكن المجاهدين كانوا في هذه اللحظة قد توقفوا عن ملاحقة الهاربين. ولم يصدقوا ما رأوه بأم أعينهم.

في الساعة 18.30 كان كل الباقين من معركة قصر بوهادي في منجى داخل المعسكر المحصن في سرت. لقد تكبد الإيطاليون، خلال القتال وخلال الانسحاب، خسائر فادحة، كما لم يحدث في أي معركة أخرى في ليبيا، منذ 1911. من بين 84 ضابطاً قتل 19، وجرح 23. ومن

---

[11] أ.ت.و.أ.إ ، ليبيا، (posizione): 6/122، ملف 22، تحقيق الجنرال ديل ماسترو، مرجع سابق، ص 13.

بين 900 جندي وطني، سقط 237، وجرح 127. ومن بين 2175 مجند إريتري وليبي، قتل 242، وجرح 290. وكما يذكر شاسكا فإلى جانب الألف رجل الذين باتوا عاجزين عن القتال، يجب أن يضاف ترك "كل الاحتياطي الذي كان يتكون من 5 آلاف بندقية، وبضعة ملايين من قطع الذخيرة، وبنادق رشاشة، والتموين الذي كانت تسير به الحملة، ناهيك عن الخزينة العسكرية"،[12] كانت تلك ترسانة هائلة، تكفي لبناء أدوار جديدة، وجعل الثورة العربية أشد هجومية واتساعا.

انتقام ومحاكمات صورية:

لقد كان لتلك الهزيمة الساحقة في قصر بوهادي عواقب، أقل ما يقال فيها إنها مخجلة. في ظهيرة يوم 29 أبريل ومساءه كان حوالي ألف من المجندين غير النظاميين قد وصلوا إلى سرت. لم يكن واضحاً الدافع وراء تلك العودة، بعد تلك الخيانة المعلنة. من بين الضباط كان ثمة من فكر في أن ذلك كان جزءاً من تكتيك مبيت للسيطرة على القلعة من الداخل، بينما كان آخرون يرون أن أولئك العائدين لم يكونوا سوى أفراد مشتتين، يرغبون فقط في الاستسلام، كي يتمكنوا من العودة إلى بيوتهم البعيدة. وكإجراء احتياطي، تم تجريد هؤلاء من أسلحتهم، وتجميعهم في المساحة الفاصلة بين الأسوار الخارجية، ودفاعات القلعة.

في الليل، فتحت مجموعات من الفرقة الإريترية الخامسة عشرة، التي كانت قد تكبدت في قصر بوهادي الخسائر الأكبر في الأرواح، النار فجأة على الليبيين غير النظاميين. جاء في تقرير جويدو فورناري "لقد حال تدخل الضباط الفوري دون ارتكاب مذبحة. وتم بعد ذلك إنقاذ أكثر من خمسمائة من هؤلاء الأسرى وترحيلهم على ظهر سفينة إلى طرابلس، حيث عاد كل منهم إلى محل سكناه"؛[13] لكن فورناري لم يكن صادقاً. ففي محاولته المتعاطفة مع مياني (وكان يأتمر بأوامره) وميله إلى تبرير كل تصرفات العقيد أو التخفيف من مسؤوليته عنها، يغفل الإشارة إلى أن المذبحة قد ارتكبت بالفعل. فحسب بعض المصادر، كان القتلى حوالي مائة، في حين تذهب مصادر أخرى إلى الحديث عن مئات.

ومع ذلك فلم ينته الانتقام عند ذلك الحد. ففي الثاني من مايو كان مياني يخبر حكومة طرابلس بأنه قد استدعى المحكمة العسكرية الاستثنائية، التي حكمت بالإعدام على ثلاثة عشر شيخاً ورجلاً من الجماعات الليبية، أدينوا بالخيانة. ومن بين أولئك الذين أعدموا بالرصاص كان ثمة عدد من الشيوخ المعروفين، مثل أبوبكر النعاس، وأحد إخوة الساعدي بن سلطان، ومحمد القاضي، شقيق

---

[12] رافاييلي شاسكا، تاريخ إيطاليا المعاصرة الاستعماري، هيوبلي، ميلانو، 1940م، ص 436.

[13] ج. فورناري، مرجع سابق، ح 310.

قائمقام القصبات. ونقرأ في تقرير للحاكم تاسوني بتاريخ 1 يوليو "إن المذابح التي ارتكبت في 29 أبريل في سرت، ولم يقم أحد بتوقّيها، بل لعل هناك من غض الطرف عنها وسمح بوقوعها، ظل مرتكبوها، على كل حال، دون عقاب. وقد أدت الأحكام والإعدامات التي نفذت في الثاني من مايو، ومشكوك في صحتها ومشروعيتها القانونية، إلى تصاعد موجة من الكراهية والرغبة في الانتقام، أدت بدورها إلى إثارة المشاعر والذكريات الأليمة، وأفقدتنا من الليبيين أولئك الذين كانوا ميالين إلى التعاون معنا، فالتحقوا بصف المترددين والمتمردين، وانفجروا في ثورة عارمة، انطلقت منها كل الكوارث التي تعرضت لها المستعمرة ابتداء من 29 أبريل. فما حدث في مصراتة وزليطن وساحل الخمس والجفارة ومسلاتة وترهونة وبني وليد كان نتيجة فورية ومباشرة لما وقع في قصر بوهادي، وللعمليتين المتهورتين العمياوين اللتين ارتُكِبَتا بعد ذلك في سرت".[14]

لم تكن المحاكمات الصورية التي عقدت في سرت في 2 مايو 1915م تمثل حدثاً استثنائياً في ليبيا، بل كانت هي القاعدة، وهو ما لم يكن ممكناً أن يغيب عن الحاكم تاسوني، الذي أصبح يكرس جهده لتحميل مياني المسؤولية عن الكارثة التي وقعت في قصر بوهادي. وقد استنكر فيليبو توراتي هذه البشائع المشينة في جلسة البرلمان يوم 18 ديسمبر 1913م، وكان من بين ما قاله: "لقد سمعت جلالة الملك يقول منذ بضعة أيام إن احتلال ليبيا يتيح لإيطاليا إنجاز مهمة حضارية، وأن علينا أن ندرك أن مهمتنا الأولى ستكون اكتساب أولئك السكان إلى صف أصدقائنا، من خلال احترام عقائدهم الدينية، وأملاكهم وعائلاتهم، ومن خلال جعلهم يدركون ما تعود عليهم به الحضارة من فوائد، ولكني أرى في كل مكان ظلال المشانق تخيم فوق مهمتكم هذه".[15]

ولم يكن الاشتراكي توراتي هو الوحيد الذي دان الصبغة الإرهابية لعمليات الإعدام التي تتم في ليبيا. فكثيراً ما دخل وزراء المستعمرات أنفسهم، بدءاً من بيرتولوني، مروراً بمارتيني، في جدل عنيف مع حكام برقة وطرابلس، بسبب تلك التجاوزات المتكررة.[16] وفي هذا الصدد يقول لوتشانو مارتوني "لم يكن ثمة توازن بين العمليات الانتقامية التي تمارسها الدولة الإيطالية ضد السكان الوطنيين، واللجوء إلى الإعدامات كنوع من التخويف والردع. فأحكام الإعدام لم تكن مطلقاً وسيلة ناجعة في مواجهة الثورة الليبية، بل على العكس من ذلك تماماً. وذلك أن مشاعر الخوف ومظاهر الألم، التي يثيرها اللجوء إلى وسيلة الشنق، بدلاً من الإعدام بالرصاص، كما ينص على ذلك قانون العقوبات العسكري الصادر في 1869م، لم يكن متسقاً إطلاقاً مع متطلبات السيطرة المؤكدة على

---

[14] مشار إليه في م.أ. فيتالي، مرجع سابق، ص ص 112–113.

[15] مجلس النواب، أعمال البرلمان، قانون XXIV، الدورة الأولى، 18 ديسمبر 1913م، ص 555.

[16] انظر حول هذه المجادلات: أنجيلو ديل بوكا، الإيطاليون في ليبيا، طرابلس أرض الحب الجميلة، 1860–1922م، منشورات لاتيرسا، روما–باري، ص ص 238–248 (والآن في طبعة موندادوري، ميلانو، 1993م).

المستعمرة، التي تحدث عنها مراراً دون جدوى بيرتولوني ومارتيني، أولاً إلى غاريوني ومن بعد إلى أميليو".[17]

لماذا سمح مياني أولاً بتلك المذبحة ضد المجندين الليبيين غير النظاميين، ثم الحكم بإعدام الزعماء الثلاثة عشر؟ هذا السؤال أيضاً سوف يظل دون إجابة. ذلك أنه لم يكن من أسلوب الرجل اتخاذ إجراءات بمثل تلك القسوة. فلم يلجأ إلى أي عمليات انتقامية طوال السنوات الإحدى عشرة التي قضاها في إريتريا. واحتل فزان دون أن يصدر حكماً واحداً بالإعدام. فلماذا هذا التغير غير المفهوم في طبعه وفي طريقته في العمل؟ ربما يمكننا المغامرة بتقديم بعض الافتراضات. بكل تأكيد، لابد أن الرصاصتين العربيتين اللتين مزقتا لحمه قد كان لهما دور في ذلك، ولكن هناك أيضاً الشعور بالإهانة والسخط جراء الهزيمة، بعد تاريخ مزين بالانتصارات، والترقي في الرتبة تقديراً لإنجازاته في الحرب، والعديد من ميداليات ونياشين الشرف التي حصل عليها، من المؤكد أنه كان يبدو بعد الهزيمة محبطاً كئيباً ومهتزا؛ فقد نجا من المذبحة بمعجزة. وكان ذلك بفضل عدد من الجنود الإريتريين الذين أحاطوا به لحمايته، ثم حملوه على ظهر بغل حتى سرت. ولا بد أن هذه الحادثة الأخيرة قد أثرت كثيراً في مياني، الذي كان ذا سطوة وهيبة متميزة. لقد كان هروبه من قصر بوهادي يشبه كثيراً هروب أوريست باراتييري من ميدان القتال في عدوة. فلم يكن الرجلان مجرد رجلين مهزومين، بل منتهيين، بدون أي هامش للأمل.

مما يدل على ما تعرض له مياني من اضطراب ذهني، ولو بشكل عابر، مذكراته في الدفاع عن نفسه، التي يذكر أنه كتبها في 1 مايو، أي بعد بضع ساعات من الهزيمة. ولم يكن ممكنا، إلا إذا لم يكن يدرك حجم المأساة وما نجم عنها من نتائج، أن يكتب العقيد على سبيل المثال: "ولكن بالنظر إلى النتائج المادية، فباستثناء الخسائر المؤلمة التي تكبدناها في ميدان القتال، وما فقدناه من أسلحة وذخائر سقطت في أيدي العدو، فإني أزعم أن ذلك لم يؤد إلى زيادة خطورة الموقف، بقدر ما أدى إلى إيضاحه، وربما إلى تجنب مفاجآت مؤلمة في المستقبل القريب".[18] وتعليقاً على هذه العبارة كتب وزير المستعمرات مارتيني ما يلي: "إن هذه الحالة العجيبة من العجز عن رؤية حقيقة ما ترتب على حادث بهذه الخطورة، مثل هزيمة قصر بوهادي، والظروف الكارثية التي وقعت خلالها، مقارنة بحالة العمى، التي لا تقل غرابة، والتي واجه بها العقيد مياني الموقف،

---

[17] لوتشانو مارتوني، "على دقات الطبول أم على نغمات الأبواق"، نظرة على بعض أحكام محاكم الحرب الاستثنائية في ليبيا في سنوات 1914–1915م، في: دراسات بياشنتيني، 34، 2003م.

[18] أ.ت.و.أ.إ ، ليبيا، (posizione): 6/122، ملف 51، "سري للغاية"، ر.231، بتاريخ 1 أغسطس 1915م من الوزير مارتيني إلى وزير الحربية.

على الرغم من أن كل ما حدث، وكل من عايشوه معه، بينوا له ما وقع فيه من خطأ،[19] إن هذه الحالة تجعلنا بالفعل نتردد، ونحن نحاول أن نصدر حكماً على حالة الرجل العقلية".[20]

ولقد كان مارتيني محقاً عندما تحدث عن حالة من العمى "عجيبة" و"مذهلة" وهو يعلق على تقارير مياني. ولكن هل كان هو الرجل المناسب لإصدار مثل هذا الحكم؟ ألم يكن هو من ذهب لاصطياد العقيد، بعد انسحابه الإيجابي من فزان، وأحضره إلى ليبيا، وأسند له مهمة أقل ما يقال فيها إنها مستحيلة؟ وكذلك ألم يكن هو من كتب في مذكراته، أنه، لولا أن رتبته العسكرية لم تكن تسمح بذلك، لكان قد سمى مياني حاكماً لطرابلس؟ وبأي حق يكتب أيضاً في مذكراته بتاريخ 4 مايو، وهو يدون خبر إعدام الثلاثة عشر رجلاً الذي أمر به العقيد، وقرار الحاكم تاسوني بإعادة مياني على الفور إلى الوطن: "أولئك القابعون في طرابلس، لقد فقدوا صوابهم، وأخذت التصرفات الجنونية تتوالى بعضها وراء بعض. فما حدث لمياني ليس له من وصف إلا أن يسمى عملاً من أعمال الجنون المثير للغضب".[21]

في الحقيقة لقد كانت تلك بداية للعبة غير شريفة من ألعاب تبادل الاتهامات. فقد اتجه الوزير مارتيني، على نحو غير واضح، إلى القول بأنه لم يكن على علم بخطة مياني، بل بلغ حد نفي كونه هو من عين العقيد. وعلى هذا يعلق الحاكم تاسوني مؤكداً أنه طلب من مارتيني تعيين عقيدين، ولكن "هذا الوزير، بقراره رقم 880، بتاريخ 15 فبراير، رشح، بخلاف ذلك، العقيد مياني، وقد وجدت أن من غير المناسب على الإطلاق أن أبدأ ولايتي حاكماً على طرابلس بشخص منبوذ"،[22] ربما كان تاسوني على حق في اعتراضه على اختيارات الوزير، ولكنه هو أيضاً لم يكن خالياً من المسؤولية، لأنه لم يمارس كل صلاحيات الرقابة والنقد التي كانت تخوله إياها مهمته.

مياني مثل باراتييري:

وفي النهاية كان المتهم الوحيد بالمسؤولية عن كارثة قصر بوهادي هو العقيد أنتونيو مياني، كما حدث بالضبط مع سيء الحظ أوريستي باراتييري سنة 1892م. فعلى الرغم من أن المسؤول الحقيقي عن هزيمة عدوة كريسبي، تم عزله من قبل الملك، إلا أنه لم يمثل مطلقاً إلى جانب باراتييري في قاعة المحكمة. وللأسباب التي سوف نذكرها لاحقاً، لم يقدم مياني للمحاكمة، ولكن

---

[19] هنا يلمح مارتيني بكل تأكيد إلى قرار مياني إقحام جماعات الجنود غير النظاميين، الذين لم يكونوا محل ثقة، في المعارك.

[20] أ.ت.و.أ.إ ، ليبيا، (posizione): 6/122، ملف 51، "سري للغاية"، مرجع سابق.

[21] ف. مارتيني، مرجع سابق، ص404.

[22] أ.ت.و.أ.إ ، ليبيا، (posizione): 6/126، ملف 50، "عاجل وشخصي"، ر. 682 بتاريخ 14 يوليو 1915م، ص6.

التحقيقات التي أجريت بشأنه انتهت بتوجيه اتهامات خطيرة ومحددة. وقد كتب الجنرال شيزاري ديل ماسترو في خلاصاته: "يبدو أنه قد بات مؤكداً بما يكفي من الأدلة أن كارثة قصر بوهادي ترجع إلى الأسباب التالية:

1) التفاؤل المفرط للعقيد مياني فيما يتعلق بمدى ولاء مجموعات المجندين، على الرغم من الحوادث التي وقعت، وكانت كفيلة بدفعه لتغيير موقفه، وتجنب إقحامهم في القتال.

2) تقاعسه عن أداء واجباته التي كانت تلزمه بتقديم تقارير عن الحوادث الخطرة التي وقعت.[23]

3) الإخلال بواجباته من خلال سماحه، ولو بدون قصد، بالتراسل مع العدو، على نحو أدى إلى اطلاعه على أوضاع الحملة وخططها.

4) عدم تطبيق المعايير التكتيكية الصحيحة".[24]

لقد كان الجنرال ديل ماسترو بكل تأكيد قاسياً في الحكم على أداء أنتونيو مياني. ومع ذلك فإنه يعترف له بفضيلة البقاء في القيادة، على الرغم من أنه أصيب مرتين خلال المعركة، ثم البقاء في القيادة حتى بعد ذلك في سرت، من مساء 29 أبريل حتى 21 مايو. في هذه الأيام الثلاثة والعشرين، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال يتألم من جراحه، التي لم تلق العناية الطبية المناسبة في مصحة القلعة، ظل العقيد مياني يقوم بكل واجباته كقائد في الدفاع عن سرت، بتصميم ودقة مثاليتين بالفعل. ومن خلال تماديه في هذا، باذلاً أقصى ما كان بوسعه بذله من جهد، لعله كان يحاول التخفيف من أثر الجراح المادية والمعنوية التي كان يعاني منها. ولعله أيضاً لم يكن قد أدرك بعد أن حياته المهنية كانت قد انتهت فعلاً.

ومن داخل مكتبة في الطابق الأول في القلعة القديمة المبنية من أيام الأتراك سنة 1842م كان مياني في الأول من مايو يحاول إعادة تنظيم دفاعات القلعة، التي ما زالت معرضة لخطر الهجوم، وربما أيضاً خطر الحصار، بالنظر إلى كمية المدافع التي تمكن المجاهدون من

---

[23] ينتقد الجنرال ديل ماسترو مياني لعدم إبلاغه الحاكم تاسوني ببعض الملابسات الخطرة، مثل حركة الاحتجاج التي وقعت في سرت من مائتي مجند من جماعة ترهونة، واكتشاف العقيد نفسه رسائل كانت تأتي من معسكر السنوسيين وكانت موجهة إلى زعماء الجماعات غير النظامية، وكانت تتضمن دعوة واضحة للثورة.

[24] أ.ت.و.أ.إ ، ليبيا، (posizione): 6/122، ملف 52، تحقيق الجنرال ديل ماسترو، مرجع سابق، ص ص 13–14.

اغتنامها.[25] وفي اليوم نفسه، حول إلى المحكمة العسكرية اثنين من المجندين من مجموعة ترهونة، "باعتبارهما مدانين بجريمة التحريض على الخيانة".[26]

في الثاني من مايو أصدر أمراً يومياً يدعو فيه قادة الفرق "لكتابة تقارير يقدمون فيها رواياتهم للأعمال التي قاموا بها، سواء بناء على الأوامر التي صدرت إليهم أو بمبادراتهم الشخصية، كي تضمن التقرير النهائي حول المعارك في قصر بوهادي". كما دعا الضباط لتقديم إحصائيات عن الذخائر والمؤن المتوفرة لديهم.[27] يومي 4 و5 مايو انشغل مياني بتسفير 435 من الجرحى، على متن سفينة متجهة إلى سيراكوزا، و350 آخرين إلى كاتانيا. وفي هذين اليومين أيضاً حمل على سفن أخرى الجنود والمعدات الفائضة عن الحاجة، في اتجاه طرابلس.[28] وفي 7 مايو أصدر أوامر حول "خدمة المراقبة الليلية"، التي يجب أن تطبق "بالاستعانة باستطلاعات متتابعة بواسطة الكشاف المركب على الجانب الشرقي من القلعة".[29]

ولأنه قد يكون استدرك أنه كان قاسياً جداً بإصداره أحكام الإعدام الثلاثة عشر، وجه مياني في 11 مايو الأمر التالي: "حيث إنه تبين لي من خلال التفتيش الذي تم على مجموعات المجندين بعد المعركة يوم 29 أبريل، وقوع حوادث اختلاس لأموال وموجودات، فإني أسمي هذه اللجان لإجراء التحقيقات اللازمة للتأكد من مسؤولية المتهمين عن ذلك".[30] ويومي 13 و14 مايو، وقبل أن تغادر سرت، على متن عدة سفن، الفرقة 15 الإريترية، وفرقة القناصة، وبضع وحدات من المدفعية، أعاد مياني توزيع مواقع الفرق في مختلف قطاعات المعسكر المحصن.[31]

عندما وصلت السفينة رافينا يوم 16 مايو حمل فيها مياني سرية الخيالة، وكتيبة سائقي السيارات، والمؤن اللازمة، التي اختيرت منها الأكبر قيمة والأكثر قابلية للفساد".[32] في 19 مايو، أي يومين قبل مغادرته متجهاً إلى طرابلس، سلم مياني القيادة إلى الرائد بييترو بالوكو. وفي اليوم نفسه، أصدر آخر أمر يومي له، كان من بين ما جاء فيه: "نظراً لشحة مراعي الأبقار المتوفرة في

---

[25] أ.م.ل.م.، سنة 1915م، أوضاع الحامية.

[26] أ.م.ل.م.، إحالة عسكريين من جماعات المجندين بتهمة التحريض والدعوة للخيانة، محضر رقم 318.

[27] أ.م.ل.م.، محضر اجتماع قيادة الدفاع.

[28] أ.م.ل.م.، قيادة الدفاع في سرت، محضر الاجتماع، 5 مايو 1915م.

[29] أ.م.ل.م.، قيادة الدفاع في سرت، محضر الاجتماع، 7 مايو 1915م.

[30] أ.م.ل.م.، سري، قيادة الدفاع في سرت، محضر اجتماع يوم 11 مايو 1915م.

[31] أ.م.ل.م.، قيادة الدفاع في سرت، محضر اجتماع يومي 13 و14 مايو، 1915م.

[32] أ.م.ل.م.، قيادة الدفاع في سرت، محضر اجتماع يوم 16 مايو 1915م.

سرت، وصعوبة التزود بالتموين، آمر بأن تستهلك القوة السمك الطازج، كلما كان ذلك ممكنا، بدلاً من وجبة اللحم (...) وقد حدد ثمن السمك بليرة وربع الليرة للكيلوجرام".[33]

لقد توقفنا عند فحص الترتيبات التي اتخذها مياني في الأسابيع الثلاثة التي أعقبت كارثة قصر بوهادي لسببين محددين. الأول لتأكيد الجهد الهائل الذي بذله العقيد، الذي كان لا يزال يعاني من آلام جروحه، لوضع سرت في حالة تمكنها من التصدي لأي هجوم محتمل من جانب العرب، وذلك من خلال العمل في مراحل على إخلاء الحصن من الجرحى من الجنود الليبيين غير النظاميين ومن الجنود، وإنجاز كل المهام المترتبة على قيادة قلعة محصنة، بدقة بيروقراطية متميزة، بما في ذلك تحديد سعر بيع الكيلوجرام من السمك الطازج. ولعله يستنتج من هذا المجهود الهائل، أن مياني كان يستعيد قواه، إلى جانب جديته وتفاؤله الذي لا يتزحزح.

أما السبب الثاني فيتعلق بإعفاء مياني ابتداءً من 21 مايو 1915م من أي صفة قيادية. بما يعني أن الأوامر اليومية التي تحدثنا عنها كانت آخر ترتيبات ذات صبغة عسكرية يقوم بها العقيد. لم يكن حتى ذلك الحين يعلم أن حياته المهنية كرجل مكرم من قبل الملك، التي ابتدأت في 1882م، كانت قد انتهت. لقد انتهت بصورة غير قابلة لأي علاج، على الرغم من حصوله على ثلاث ميداليات فضية للشرف العسكري، وترقيته إلى الرتبة الأعلى للجدارة الحربية، ومنحه لقب فارس نظام سافويا العسكري ولقب فارس القديسين ماوريتسيو ولازارو، إضافة إلى الميداليات التي حصل عليها لأعماله في حملتي إريتريا وليبيا، وما يليق بذلك من إشادة وتمجيد.

ولكن كان عليه أن يدفع وحده الثمن، ففي نهاية مايو أعفي من مهام القيادة، واستدعي للعودة إلى الوطن. وربما يكون مياني قد تمكن من تجنب التعرض للمحاكمة لأكثر من سبب واحد. فإيطاليا كانت قد دخلت، منذ وقت قريب، الحرب ضد الإمبراطوريات الوسطى، ولم يكن تقديم ضابط من ذوي الرتب العليا للمحاكمة طريقة مثلى لرفع الحالة المعنوية لدى ملايين الإيطاليين الذين كانوا يُستدعَوْن للدفاع عن الوطن. هذا إلى جانب أن محاكمةً مثل هذه يمكن أن تكشف أيضاً عن المسؤولية التي يتحملها الحاكم تاسوني ووزير المستعمرات مارتيني، بما يعنيه ذلك من إهانة عظيمة للبلاد. وفي النهاية، لقد حدثت بعد قصر بوهادي حوادث كثيرة وخطرة، تكفي للتغطية على ذكرى ذلك اليوم المشؤوم، يوم 29 أبريل.

على كل حال، كان من بين من سعوا لتجنب المحاكمة الجنرال كادورنا، الذي كان يسعى لعدم تحميل تاسوني أي مسؤولية. إنه يقول: "لقد نجحت في تجنب ارتكاب مظلمة، عندما اقترحت أن يوسع التحقيق ليشمل، لا الحاكم فقط، بل أيضاً كل أولئك الذين أصدروا له الأوامر. وعندما تضمن

---

[33] أ.م.ل.م.، قيادة الدفاع في سرت، محضر اجتماع يوم 19 مايو 1915م.

فتح التحقيق التهديد بأن يجذب في عجلته شخصيات أخرى عالية المكانة غير الشخص الذي اقترح التحقيق بشأنه، تم السكوت عنه ولم يعد يتحدث عنه أحد".[34] لقد نجا مياني من المحاكمة، ولكنه حمل كل المسؤولية عن الهزيمة؛ ولعله كان سيحصل من خلال المحاكمة على نوع من العدالة. بعد ذلك بعدة سنوات، طلب أن يعاد فتح التحقيق فيما حدث.

مطرودين مرة أخرى إلى البحر:

بعد اختفاء العقيد مياني من المشهد الليبي، وقعت في الأشهر الثلاثة التالية في طرابلس أحداث من كل نوع. عبد النبي بلخير ينحاز علناً إلى التمرد، ويضيق الحصار على بني وليد. الأمر نفسه حدث في ترهونة، حيث قام بإغلاق دائرة الحصار الساعدي بن سلطان، الذي كان شقيقه أحد الذين أعدمهم مياني في 2 مايو في سرت. وتبين على الفور عدم جدوى المحاولات التي كانت تبذل لنجدة الإيطاليين المحاصرين، وفشل الجهود التي وجهت لإيجاد ثغرة في الحصار. في 3 يوليو طلب رئيس الوزراء سالاندرا من الوزير مارتيني أن يصوغ مقترحاً للحل: "علينا أن ندرك أننا بين كارثة مياني، وكارثة الحصار وما تعرضت له القوة التي تحاول فك الحصار عن ترهونة، وتلك التي يبدو أنه لا يمكن تجنبها، فيما يتعلق بحصار بني وليد، بتنا نواجه خسائر مادية ومعنوية تعادل ما تعرضنا له في عدوة".[35]

في الحقيقة لقد كانت الخسائر أكبر بكثير، قدرها الجنرال لاتيني بحوالي 5031 رجلا. وأكد أحد الشهود على الحوادث "أن المأساة تجسدت مادياً في 5600 قتيل، وبضعة آلاف من الجرحى، وحوالي 2000 أسير".[36] أما ميوتشو روينى، الذي سوف يصبح وزيراً للمستعمرات، فيقول: "لقد ترك الانسحاب على الصحراء المستعمرة علامات من عشرة آلاف قتيل".[37]

وكانت كميات المواد الحربية التي فقدت مأساوية أيضاً. فقد تمكن العرب في الحقيقة من الاستيلاء على 37 مدفعاً، و20 بندقية رشاشة، و9048 بندقية، و28021 من قطع الذخيرة للبنادق والرشاشات، و37 عربة، و14 محطة راديو. وإزاء انتشار الثورة العربية، التي زادت من قوتها

---

[34] لويجي كادورنا، صفحات أخرى حول الحرب العظمى، مونتادوري، ميلانو، 1926م، ص 99.

[35] ف. فورناري، مرجع سابق، ص 462.

[36] المهد الاستعماري الإيطالي، أعمال المؤتمر الوطني الاستعماري لما بعد حرب المستعمرات، مطابع اتحاد الناشرين، روما، 1920م، ص 288.

[37] موتشو روينى، الإسلام ومستعمراتنا، الناشر السوكلو، مدينة كاستيللو، 1922م، ص 77.

الأسلحة التي تم الاستيلاء عليها، أمرت الحكومة الإيطالية بالانسحاب من كل المواقع الداخلية. ولم يبق في أيدي الإيطاليين سوى طرابلس والخمس، كما كانت الحالة في 1911م عند بدء الإنزال.

وعلى الرغم من أن مياني كان قد اختفي تماماً من المشهد الأفريقي، فإن الحاكم تاسوني كانت له مصلحة كبرى، لكي يغطي على مسؤولياته فيما حدث، أن ينسب إلى العقيد المسؤولية عن كل الأخطاء، بدءاً من الانسحاب المتعجل من فزان، حتى الهزيمة في قصر بوهادي، وما لحقها من كوارث. بيد أن الوزير مارتيني لم يكن متفقاً مع هذا التوجه، وأكد في رسالة وجهها إلى سالاندرا بتاريخ 14 يوليو 1915م "مسؤولية حاكم طرابلس الجنرال تاسوني المباشرة"، وأضاف: "أذكر هنا الوقائع الأجدر بالذكر: الطريقة المؤسفة جداً التي تم بها التحضير لعملية سرت وقيادتها، ما أدى إلى وقوع التطور الحزين الذي تمثل في خيانة مجموعات الليبيين في قصر بوهادي، عدم الإسراع بنجدة المحاصرين في ترهونة، وما نتج عن ذلك من الهجوم عليهم ومقتل حوالي 2000 رجل بطريقة لا يمكن وصفها، عدم نجدة المحاصرين في بني وليد، وتلك الشروط التي وضعت لاستسلامهم وتسليم أسلحتهم، بما في ذلك أسلحة الضباط، وأسرهم وطلب الفدية لإطلاق سراحهم". ويختم بطلب "تحقيق دقيق" حول تاسوني، و"توقيع الجزاء المناسب عليه".[38] وهو التحقيق الذي تمكن كادورنا بمهارة من إفشاله. بهذه الصورة انتهت المرحلة الأولى من احتلال إيطاليا لليبيا، بين مجازر، وإذلال، وكراهية وجدال وتبادل اتهامات. ولم يبق في دائرة الاتهام إلا مياني، الذي كان الحلقة الأضعف في السلسلة.

[38] أ.م.ل.م.، ليبيا، مجموعة 6/126، ملف 53، رقم 11.

الفصل الثاني

أفريقيا الهواية

عائلة من الإنشائيين:

ولكن من هو أنتونيو مياني؟ من كان ذلك الرجل الذي انتقل، خلال أقل من عام واحد، من قمة المجد إلى حضيض العار، من رجل أهدى إيطالياً إقليماً من أفريقيا باتساع المملكة كلها، إلى رجل أدى بتسببه في الهزيمة النكراء في قصر بوهادي إلى تهديد وجود المستعمرة كلها؟ كيف أمكن أن يعفى واحد من أمهر رجال الجيش الإيطالي وأرقاهم تأهلاً من كل منصب قيادي، ويقرب لأن يطرد من صفوف القوات المسلحة؟ وهل كان حقاً المسؤول الأوحد عن الهزائم التي وقعت في ليبيا؟

سوف نحاول، بعد تسعين عاماً من وقوع الأحداث، أن نعيد تركيب الوقائع بأكبر قدر من الدقة، متحررين من الضغائن والعقد التي أحاطت بالمجادلات بين المعاصرين، التي بلغت مستويات ليس بالإمكان تخيل تكرارها. وسنحاول أيضاً تكوين صورة عن شخصية هذا الضابط، كي نفهم ماذا كان متوقعاً منه من الناحية المهنية، وبشكل خاص من جهة توجهه القوي للعمل في المستعمرات الأفريقية.

من المحتمل جداً أن يكون قد ورث ذلك العشق لأفريقيا من جده جوفاني مياني، ذلك المستكشف العظيم وسيئ الحظ لنهر النيل. ومن جوفاني لا بد أنه ورث أيضاً روح العناد والولع بتجاوز ما لا يمكن تجاوزه. ولكن ليس القسوة. فبخلاف غيره من المستكشفين الذين كانوا يحترمون "الاختلاف"، جوفاني كان يحمل في طياته احتقاراً مطلقاً لذوي البشرة السوداء. في 13 أبريل 1860م، ولأسباب في منتهى التفاهة، أمر بإبادة كاملة لسكان قرية المهدي، في السودان. ولم يبذل أي جهد عند كتابة مذكراته لإخفاء الواقعة الرهيبة أو حتى تقديم مبررات لها. يقول: "لقد أطلق الجنود الذين يحملون البنادق النار، وعلى أصوات إطلاق النار في الداخل أرسلت نصف الجنود إلى داخل القرية فقاموا بمذبحة. ثم أحكمت الحصار، ووضعت عدداً من الجنود على المخارج، وكان من يحاول الفرار يقنص على الفور. زعيم القرية قتل هو وكل أفراد عائلته، ثم قطعت يداه، كي تنتزع منهما أسورة الشرف، ثم قطعوا عضوه وحملوه مبتهجين بالنصر على رأس رمح. بعد الهجوم على القرية أمرتهم بأن يصادروا كل ما يمكنهم مصادرته مما كان فيها من الحبوب والحيوان. وقد كلف بإنجاز تلك العملية كل الجنود والمتوحشين التابعين لنا (...). في الساعة 9، لم يعد يرى

من قرية المهدية سوى الخرائب المحترقة. وبات تحت أيدينا كل ما كان فيها من حبوب وحيوانات وأسرى وأسيرات".[39]

كانت ذكريات الجد البعيد حية في عائلة مياني، ولكننا لا نظن أن أنتونيو مياني كان يتفق مع الجد في مسيرته المجنونة واليائسة نحو منابع النيل. فقد كان، قبل كل شيء، ضابطاً من ضباط الملك، تلقى تعليمه في أرقى المدارس الحربية، التي ما زالت تتنفس أجواء حركات وحروب النهضة. ولعله أخذ أيضاً من جده الذي كان وطنياً متحمساً وتعرض للعديد من أنواع الاضطهاد من قبل الحكومة النمساوية، حب الوطن وروح الولاء لآل سافويا، والنظر إلى الشرف باعتباره يقع في أعلى سلم الفضائل.

عائلة مياني كانت من أصول تنتمي إلى إقليم فينيتو. وفي البيت كانوا يذكرون باحترام كبير ابناً من أبناء العائلة عاش في القرن الثامن عشر وكان طياراً وإنشائياً بحرياً في الإقليم. ابنه بييترو، بعد أن عمل في ترسانة فينيسيا، تحول باهتمامه إلى أوائل الآلات البخارية، ووضع سنة 1837م مؤلفاً قيماً حول الأفكار الأولى للسكك الحديدية. أما ابنه الآخر جوفاني فقد تحول من النظرية إلى التطبيق، فأنشأ خط السكك الحديدية بين ميلانو ومونزا، واخترع الملاحة البخارية في بحيرة كومو، لكن أهم مبادرة قام بها كانت إنشاء الورش الميكانيكية الضخمة، التي اشتهرت فيما بعد بالاختصار (O.M.). وقد أشرف على تطوير هذه الصناعة اللبماردية ابنا جوفاني: جوزيبي وجوليليلمو، اللذان كانا كلاهما مهندسين، وقد أنشآ شبكات جديدة وضخمة في نابولي وجنوا.

ولجوزيبي وبيانكا كونسوليني وُلِد في ميلانو، في 31 يوليو 1864م، بطلنا أنتونيو جوزيبي مياني. وكان كل شيء يوحي بأن أنتونيو سوف يتابع نفس الطريق التي سار فيها أخواه الأكبران، لا سيما أنه أظهر مبكراً توجهاً نحو الدراسة العلمية. ولكن عندما بلغ السابعة عشرة، وبعد أن أبدى تفوقاً في دروسه في المعهد التقني، ترك الدراسة، والتحق في 19 ديسمبر 1881م متطوعاً في الجيش الملكي. حاولنا أن نبحث في أوراق مياني عن أي إشارة إلى هذا التحول الجذري، الذي يقطع سلسلة التقاليد العائلية، ويبتعد به عن حياة مهنية ذات مسؤوليات كبيرة، ومكاسب هائلة، ولكن دون أي جدوى. وهذا يجعلنا نميل إلى التفكير بأن ما حفزه للتخلي عن حياة مهنية مبهرة، ولكنها في الوقت نفسه مبرمجة مسبقاً، لاختيار المهنة المتواضعة لضابط إيطالي في نهاية الثمانينيات، كان عشقه للسلاح، وإمكانية ممارسة القيادة، وروح التطوع للخدمة.

على كل حال، لئن كان الشاب مياني قد هجر عائلة المبدعين، إلا أنه احتفظ منها ببعض الصفات الغريبة، مثل روح المبادرة، والقدرة الفائقة على التنظيم، والولع الزائد بدقة الإنجاز وأخيراً

---

[39] جوفاني مياني، مذكرات ومراسلات (1858–1872م)، لونجانيزي، ميلانو، 1973م، ص ص 248–250.

متعة التسلي بالأعمال الميكانيكية. فعلى سبيل المثال، عندما تعطل محرك سيارة الراديو خلال احتلال فزان، لم يضيع وقتا، وحسب رواية الدكتور جويدو ريلليني: "استبدل بمحرك سيارة الراديو محرك سيارة أخرى. وكان ذلك عملاً خارقاً من أعمال الجنرال، الذي شمر عن ساعديه، وطفق يعمل كأي ميكانيكي محترف. وبات بإمكاننا التخابر مع سوكنة".[40] وفي مناسبة أخرى وجدنا فيما بقي من أوراقه ورقة تضمنت بخط يده العديد من العمليات الحسابية، قام بها لاختبار متانة سلك حديدي.[41] وكما لاحظ بحق فورناري، الذي كان صديقاً حميماً لمياني، كان الضابط "ينجز أعمالاً ميكانيكية، يتسلى بها لشغل أوقات فراغه وراحته، تلبية لحاجة نفسية بلا حدود للعمل والإنجاز".[42]

إحدى عشرة سنة في إريتريا:

في 23 يوليو 1883م، بعد أن أنهى دراسته في أكاديمية مودينا، ودروس السلاح واستخدامه في معهد المعلمين في بارما، وكان من بين الأوائل،[43] رقي أنتونيو مياني إلى رتبة رئيس عرفاء وحدة، وضم إلى وحدة الفرسان المتمركزة في منطقة ميلانو. بعد ذلك بثلاث سنوات حصل على رتبة ملازم. وفي 16 نوفمبر 1887م ارتحل إلى إريتريا، حيث مكث، باستثناء فترات إجازة قصيرة، إحدى عشرة سنة، وحيث اتجه وجوده كله اتجاهاً محددا.

كانت أول محطة توجه إليها مياني هي مصوع، في البقعة التي سوف تصبح المستعمرة الأولى: إريتريا. كان ضمن القوة التي كونت الحملة، بقيادة الجنرال أليساندرو أزيناري من سان مارتسانو، الذي كان عليه أن ينتقم للكارثة التي وقعت في دوج علي، وذهب ضحيتها 450 جندياً إيطاليا. في الحقيقة لم تسفر الحملة، التي كانت تكلفتها باهظة جدا، عن أي نتيجة، لأن راس ألولي المسؤول عن المذبحة والإمبراطور يوهانس الرابع، الذي قدم له العون، رفضوا المشاركة في القتال، وانسحبوا بكل هدوء. بعد ذلك ببضعة أسابيع رحل الجزء الأكبر من قوات الحملة على متن السفن إلى إيطاليا.[44]

---

[40] جويدو ريلليني، مع حملة مياني لاحتلال فزان، الجمعية الملكية الجغرافية الإيطالية، روما، 1972م، ص 6.

[41] أ.م.ل.م.، متنوعات حكومية، 1914م.

[42] ج. فورناري، مرجع سابق، ص41.

[43] أ.م.ل.م.، مكافآت، أوسمة، متنوعات مهنية، جاء مياني في الترتيب التاسع من 501 من تلاميذ السنة الدراسية 1882–1883م.

[44] أنجيلو ديل بوكا، الإيطاليون في أفريقيا الشرقية. من الوحدة إلى المسيرة على روما. لاتيرسا، روما–باري، 1976م، ص ص 277–296 (الآن في منشورات موندادوري، ميلانو، 1996م).

بعد إجازة قصيرة، عاد مياني إلى أفريقيا، وانضم إلى العمليات التي كانت قائمة لاحتلال إريتريا. في 2 يونيو 1889م شارك في احتلال كرن، وفي 3 أغسطس شارك في احتلال أسمرة. خلال هذه المعارك، لفت مياني نظر الجنرال بالديسيرا، فكلفه، وقد تبين له ما يمتلك الملازم الشاب من مواهب حركية، بقيادة قوة محمولة جواً للقيام بعمليات في الإقليم الغربي من المستعمرة. وعلى رأس فرقة من المجندين المحليين، وكتيبة من غير النظاميين، وكان فيها هو الأبيض الوحيد، قام مياني بعمليات في مناطق الحباب وبني عامر وباريا وبازا، التي كانت قد انتزعت من وقت قريب من سيطرة المهديين. ولم يكن مياني مهتماً فقط باحتلال هذه المناطق، ولكنه عكف على دراستها. ولهذا الغرض تعلم اللغة العربية والتغرينية، وعكف على إجراء دراسة جيولوجية وطبوغرافية للمكان.

ومن خلال سجلات خدمته نعرف أيضاً أنه استولى، بمساعدة قبائل بني عامر وباريا وبازا، على قلعة سوزينا التي كانت تهيمن عليها عصابة من قراصنة حبشيين. وبعد ذلك، شارك مياني في 31 مايو 1890م في المعارك التي دارت في ماي دعرو.[45] وبعد تعيينه في السنة نفسها مقيماً سياسياً في إقليم ماريا، وفي السنة التي تليها في إقليم بني عامر، عكف مياني على إثراء معارفه الجغرافية والأنثروبولوجية حول أراض لم تكن معروفة تماما.

في تقرير أعده لتقديمه للجنرال باراتييري، الذي كان حاكماً لإريتريا منذ 1892م، حول الأراضي المحاذية لحدود السودان المصري الإنجليزي، ودخول قطعان الحيوانات منها إلى المراعي الإريترية، رسم مياني أول خريطة للإقليم، غنية بالتفاصيل، تكشف كيف أن الضابط قد تجول على صهوة حصان حتى في أصغر المسارب، وكيف أنه متسلحاً بأدوات الاستكشاف، حدد مواقعها. في التقرير المذكور آنفاً ثمة واقعة ذات أهمية خاصة في محاولة إعادة بناء شخصية بطلنا، لأنها تكشف مدى ثقته المطلقة في قطاعات غير النظاميين. فقد كتب، مقترحاً على باراتييري دعم جماعة محمود شريف، من أجل السيطرة على الحدود مع السودان: "أنا أظنه مخلصاً لنا، إن لم يكن بواعز عاطفي، فعلى الأقل بناء على قناعة؛ إذ تم تعيينه من قبل الحكومة رئيساً"؛[46] ولن يكون ما حدث في إريتريا آخر مرة يضع فيها مياني ثقته في غير النظاميين. فكما رأينا، كانت ثقته التي وضعها في جماعات المجندين غير النظاميين هي التي أدت به إلى الكارثة في ليبيا.

كان مياني، من مختبره في إقليم بني عامر، يفحص بعناية الحدود الغربية، التي تعرضت مرتين، في يونيو 1890م ويونيو 1892م، لاعتداءات من قبل الدراويش. وعلى الرغم من أن الحركة المهدية لم تعد تملك العدوانية التي كانت لها في السنوات الأولى، عندما كانت قادرة على القضاء على غوردون باشا وقواته في الخرطوم، إلا أنها ظلت تمثل تهديداً دائماً للمستعمرة الناشئة

---

[45] أ.م.ل.م.، السيرة المهنية، الجيش الملكي الإيطالي، قيادة القوات المسلحة، ميلانو، 7 أغسطس 1926م.

[46] أ.م.ل.م.، معلومات حول الأراضي الحدودية، وثيقة رقم 2، ملحاس عنسبا ، 23 مارس 1895م.

إريتريا، التي لم تكن تحميها سوى قوات صغيرة. ولذا أنشأ مياني مجموعات بركا للقيام بالدفاع عن القبائل المحمية، وطور خدمة الاستخبارات والاستطلاع على طريق كسلا وتوكر. وهكذا نجح، مع نهاية سنة 1893م، في اكتشاف أن الأمير أحمد علي كان يحشد، بتعليمات من أقوردت، جيشاً قوامه أكثر من عشرة آلاف بندقية، ما أتاح له أن يحذر العقيد أريموندي، الذي كان يقود قلعة أقوردت، فتمكن من تنظيم دفاعاته.

المعركة التي اندلعت حول القلعة في الثامنة من صباح 21 ديسمبر، لم تكن تنبئ بأي خير؛ لم يكن لدى أريموندي سوى 2181 رجلاً، أي خمس قوات العدو، يضاف إلى ذلك أن ستة آلاف من الدراويش كانت لديهم بنادق ممتازة من نوع ريمنجتون، أفضل أداء بكثير من بنادق فيتيرلي التي كانت لدى الجيش الإيطالي. وطوال الجزء الأول من النهار كانت نهاية المواجهة تبدو غير مؤكدة. وفي اللحظة التي بدأ فيها الإريتريون المحاربون مع الجيش الإيطالي ينهزمون وينسحبون في اتجاه القلعة، تمكن إريموندي من إنقاذ الموقف بأن دفع إلى الميدان آخر فرقتين بقيتا لديه. هذا الهجوم الجديد إضافة إلى شظية من قذيفة هشمت جمجمة القائد أحمد علي قلبت الموقف رأساً على عقب. اندفع الدراويش هاربين، تاركين في ساحة المعركة أكثر من ثلاثة آلاف قتيل. في معركة اقوردت، التي كان مياني قد توقعها ونبه إليها، حصل على أولى ميدالياته الفضية، التي منحت له لما أبداه "من شجاعة ورباطة جأش وذكاء، سواء من خلال إطلاق خدمة الاستطلاع، أو من خلال تغطية فرقته التي كان يقودها انسحاب كتيبتي المدفعية، مدافعاً بشراسة وعناد عن الأرض خلال المعارك ضد الدراويش بالقرب من قلعة اقوردت".[47]

بعد بضعة أشهر عين الحاكم باراتييري مياني رئيساً لمكتبه، وتقديراً لمعرفته الواسعة بالإقليم المحاذي للسودان، كلفه بأن يرسم، بناء على البيانات التي دونها في أوراقه، خريطة للمنطقة بين كرن وكسلا. وهكذا أسهم مياني في الإعداد للحملة من أجل احتلال كسلا، التي رغب فيها باراتييري ورئيس الوزراء كريسبي رغبة شديدة، على الرغم من أن توسيع حدود إريتريا كان يمثل خطأ استراتيجياً كبيرا. شارك مياني في احتلال كسلا، على رأس كتيبة من الجنود المحليين وغير النظاميين، ومنح على ذلك شهادة تكريم رفيعة "على الطريقة الجديرة بكل إطراء وتنويه التي قاد بها قواته بمناسبة الاستيلاء على كسلا في 17 يوليو 1894م، ملاحقاً العدو الهارب، على مدى ثلاثة أيام، في مسيرات سريعة ومجهدة، ملزماً العناصر التابعة له، بانتهاج سلوك واثق وجدير بالإعجاب".[48]

---

[47] أ.م.ل.م.، السيرة المهنية، مرجع سبق ذكره.

[48] نفسه.

في أوائل أكتوبر 1895م قرر الحاكم باراتييري، الذي كان لا يزال يحظى بدعم كريسبي، تنفيذ حملة هجومية في إقليم التيغري الجنوبي. حتى هذه العملية، التي أثارت استهجان الإمبراطور مينيلك، ومن ثم إعلان النفير العام في الجيش الأثيوبي، سوف يتبين أنها كانت خطأ فادحاً. كان باراتييري ينوي إبادة قوات راس منجاشا، قبل أن يتمكن هؤلاء من الالتحام مع قوات مينيلك، ولكن المناورة التي كانت تهدف إلى تنفيذ كماشة تعرضت للفشل؛ إذ تمكن منجاشاً من فك الحصار، والانسحاب بالجزء الأكبر من قواته، تاركاً في المواجهة قوة لا تزيد على ألف رجل، كانوا يتحركون بطريقة معقدة على رقعة جبل دبرا هيلا. وقد أوكلت مهمة طرد الأثيوبيين لمياني، الذي كان في المقدمة على رأس الفرقة الثالثة. بعد إعداد سريع للمدفعية، اندفع مياني للهجوم بالمجندين المحليين الذين كانوا تحت إمرته، وفي هذه المعركة نال الميدالية الفضية الثانية، التي تضمنت هذا التسبيب: "تقديراً لذكائه ورباطة جأشه والمهارة التي حرك بها، تحت النيران، الفرقة التي يقودها، ضارباً المثل في الشجاعة والإقدام في الهجوم على العدو وملاحقته".[49]

لقد كان تصرف مياني، في مواجهة نيران العدو، تصرفاً ممتازاً. وكما يذكر أحد الضباط الذين كانوا تحت إمرته، الذي سيصبح فيما بعد أحد قادة الجيش، وهو الجنرال أوريليو بيتراكا، "لقد أثبت قدرة فائقة على الإمساك بمقاليد الأمور في الفرقة، وتمكن من قيادتها إلى قمة جبل امبا، بمهارة مكنتها من الاندفاع، دون أي تأخير، في ملاحقة العدو الذي كان ينسحب"،[50] ولكن العمل العسكري في ذاته كان متواضعاً، وغير حاسم، ولم يكن له من جدوى سوى تعميق شعور منليك بالإهانة. وقد علق الرائد جوفاني جاميرا، الذي كان يتمتع بخبرة واسعة واستقلالية مشهودة في الحكم، على العملية الهجومية في التيغري بقوله: "لم نكتف بالاستيلاء على مقلا، فاندفعنا حتى جبل أمبا علاجي. وهكذا، ونحن نتقدم خطوة خطوة، مثل أطفال غير مدركين، يهيجون الزنابير في أعشاشها، أثرنا ضغينة كل الأثيوبيين".[51]

على كل حال، أتيحت لمياني مرة أخرى، قبل وقوع كارثة عدوة، الفرصة للكشف عما كان يتمتع به من شجاعة وقدرة قيادية. في الحقيقة نقرأ في دفتره الشخصي ما يلي: "في ديسمبر 1895م، وكنت قائداً للفرقة الثالثة من اللواء الخامس المكون من المجندين المحليين من مستعمرة إريتريا، مكلفاً من قبل قيادة الجيش، وعلى رأس قوة بلغت حوالي ألف رجل، بتنفيذ غارة، فيما يلي تكزي، لإقناع راس حقوس وأتباعه بأن يصبحوا أصدقاء للإيطاليين، وأن ينسقوا جهودهم لتأمين

---

[49] نفسه.

[50] أ.م.ل.م.، مذكرة الفريق أوريليو بيرتاكي، ص 5.

[51] جوفاني جاميرا، بين مجندي إيطاليا المحليين. ذكريات محمد إدريس، زانيكيللي، بولونيا، 1899م، ص 98.

حماية الجناح الأيمن لقوات الحملة، تمكنت من إنجاز المهمة، متجاوزاً العديد من الصعوبات المتعلقة بطبيعة الأرض والتموين، وأثبت في ذلك حضور بديهة ومهارة وقدرة".[52]

إن لهذه القصة أهمية بالغة في محاولتنا رسم شخصية مياني، لأنها تقدمه لنا في ظرف يشبه من نواح عديدة ذلك اليوم المؤسف في قصر بوهادي. فما حدث هو أن الحملة التي كان يقودها مياني، وكانت في طريق عودتها إلى عدي–جرات، لم تكد تعبر تكزي، حتى بلغتها الأنباء أن راس ماكونين، الذي كان على رأس مقدمة جيش منليك المباد، قد هاجم في 7 ديسمبر أمبا علاجي، فقتل الرائد توزيللي و18 ضابطا، و20 جندياً إيطاليا، و1500 مجند محلي. وإذ أدرك مياني على الفور مدى الانعكاسات الخطرة التي يمكن أن تنجم عن تلك الهزيمة، وربما أدت إلى انتشار الثورة في كل إقليم التيغري، قرر تقليص عدد الجنود في قواته بالتخلص من المجندين غير النظاميين المنتمين إلى هذا الإقليم، وكان ينبغي افتراض أنهم قد يتحولون إلى أعداء.

وفي تقرير لأوريليو بيتراكي يقول: "في صباح 10 ديسمبر استدعى مياني، بحضور كل الضباط، زعماء الجماعات التيغرية، وأعفاهم بكل لباقة من الخدمة، متحججاً بأنه مضطر لذلك بسبب صعوبات التموين، وأخبرهم بأنه يمكنهم من تلك اللحظة العودة إلى أديغرات، حيث تتجمع كل القوات الإيطالية، ولهم أن يختاروا الطريق التي يرونها ملائمة".[53] ويضيف بيتراكي أن المجندين استقبلوا الأمر دون اعتراض، لسبب واحد هو أن "قوات مياني ومجموعة تيسفو مريام، كانوا مدججين بالسلاح على نحو يجعلهم جاهزين لقمع أدنى محاولة للتمرد".[54] لقد أحس مياني بما يعتمل في نفوس غير النظاميين الإريتريين من قلق، وتمكن في 10 ديسمبر 1895م من توقي خطر كان محدقاً، بقدر من الألمعية وحضور البديهة، لم يتوفر لديه في 29 أبريل سنة 1915م في قصر بوهادي.

الميدالية الفضية الأخيرة:

ولمجرد الصدفة البحتة لم يشارك اللواء الذي يقوده أميليو، وكان مياني يتولى قيادة الفرقة الثالثة منه، في معركة عدوة في 1 مارس 1896م، التي انتهت بكارثة. كان باراتييري قد كلف لواء أميليو بمجابهة محاولة محتملة تقوم بها طلائع قوات مينليك لاحتلال إريتريا، فاتجه لاحتلال حافة

---

[52] أ.م.ل.م.، قيادة لواء باليرمو، تقرير مستمد من الفقرة 161 من اللائحة المتعلقة بالترقية الخاصة بالرائد مياني، ميلانو، 9 سبتمبر 1910م.

[53] أ.م.ل.م.، مذكرة للجنرال بيتراكي، مرجع سابق، ص 10.

[54] نفسه، ص11. في وثيقة أخرى يؤكد مياني أنه سرح المجندين غير النظاميين من الخدمة، "في مجموعات منفصلة"، بحجة إرسالهم "للدفاع عن بيوتهم وعائلاتهم". من التقرير حول حملة سنة 1895م، راس أجوس (Ras Agos).

جبل جوندت، ولم يسمع بوقوع الكارثة إلا في مساء 1 مارس، فتحرك لملاقاة الناجين من المعركة. في العمليات اللاحقة، التي تمت من أجل تحرير أديغرات، أتيحت للملازم مياني فرصة أخرى لإثبات تميزه، وعلى وجه الخصوص في معركتي أجا ودبرا ماتسو في 2 و7 مايو، ضد مسلحي راس سيبات. لهذه الأعمال الجليلة منح ميدالية فضية ثالثة، مرفقة بهذه الديباجة: "لقد بدأ القتال باندفاع مثالي، وكان نموذجاً للشجاع أثناء التقدم والهجوم ضد متمردي راس سيبات، وفي معركة 7 مايو قاد فرقته بذكاء وجرأة، ما أدى إلى فرار خلية كبيرة من المتمردين".[55]

بعد الهزيمة الماحقة التي وقعت في عدوة، وأدت إلى تحجيم الجيش الاستعماري في إريتريا، كان بوسع مياني، الذي رقي إلى رتبة نقيب في 18 أكتوبر 1896م، أن يطلب العودة إلى الوطن، كما فعل معظم الضباط، ولكنه قرر البقاء. وفي يناير 1897م نراه من جديد في ساحة المواجهة مع الدراويش التابعين لأمير قدارف أحمد فضيل، الذي ظن أنه يمكن أن يستثمر عنصر المفاجأة، فيجد إريتريا قد بلغت حالة من الضعف بعد الضربة التي تلقتها في عدوة، فهاجم بعشرة آلاف رجل أحد المواقع الإيطالية المتقدمة في كسلا، مستهدفاً مباشرة اقوردت وقلب المستعمرة. لكن الجنرال فيجانو، الذي كان يتولى شؤون إريتريا في غياب الحاكم بالديسيرا، استطاع بسرعة أن يجمع في اقوردت 5066 رجلا، و14 قطعة مدفعية. وعندما علم الأمير فضيل بخبر هذا الحشد القوي الذي لم يكن يتوقعه، تخلى عن مشروعه الطموح بتقسيم المستعمرة إلى قسمين، وانسحب في اتجاه السودان. وكان من بين من طاردوه وضيقوا عليه مياني، الذي كان يعرف أكثر من أي شخص آخر طبيعة إقليم باريا.

في 10 أبريل 1897م منح مياني إجازة طارئة، فرجع إلي إيطاليا كي يعقد قرانه على ابنة عمه لاورا مياني، ولكننا نجده في 19 مايو يركب السفينة عابراً البحر الأحمر كي يعود إلى حبيبته إريتريا. بيد أن المستعمرة كانت تمر بفترة حرجة جداً، وذلك أن المركيز دي روديني، الذي حل محل كريسبي بعد هزيمة عدوة، لم يكن يبذل أي جهد لإخفاء نيته التخلي عن إريتريا، سواء كلياً أو جزئياً. لقد أقنعه هجوم الدراويش الذي وقع في يناير بضرورة إخلاء كسلا، التي توسِّع، على نحو بالغ الخطورة والتكلفة، الحدود الغربية للمستعمرة. وهكذا سلمت كسلا إلى الإنجليز، الذين كانوا قد بدأوا حملة لتصفية المهدية بصورة نهائية. في نهاية ديسمبر 1897م نزلت في مصوع حملة استطلاعية إنجليزية–مصرية، بقيادة العقيد بارسونز. ومروراً بمناطق سعاتي–كرن–اقوردت وصل إلى كسلا، وحل محل القوة الإيطالية. وبعد أربع سنوات من الاحتلال، طبعتها المواجهات المستمرة، والعديد من التضحيات المالية غير المجدية، أنزلت في مساء 25 ديسمبر الراية الإيطالية إلى الأبد. وكان حاضراً في هذا الاحتفال الحزين، ممثلاً لإيطاليا، الملازم أنتونيو مياني. وكانت

[55] أ.م.ل.م.، السيرة المهنية، مرجع سابق.

هذه آخر خدمة يقدمها إلى الوطن في الأرض الأفريقية. وفي 7 فبراير 1898م رحل إلى الوطن، وألحق بفرقة المدفعية الثالثة.

هنا بدأت مرحلة جديدة في حياة مياني، وهي حياة المعسكر الأقرب إلى الرتابة، ولكن هذا أتاح له فرصة ثمينة كي يعيد ترتيب ملاحظاته الجغرافية والجيولوجية العديدة حول إريتريا، وعندما قَبِل في 12 أكتوبر 1899م، بعد تعيينه ضابطاً في سلك التاج الإيطالي، في المدرسة الحربية، تمكن من تقديم دراسة حول المستعمرة الأولى، كانت الوثيقة الأشمل والأحدث حول إريتريا. وبعد نهاية خدمته في المدرسة الحربية نقل مياني في سنة 1903م إلى قيادة الأركان، وعين في لواء ليفورنو.

في هذه الأثناء كان مياني يعمل على إنجاز الخارطة التوضيحية لمستعمرة إريتريا، التي سينشرها المعهد الجغرافي العسكري في 1905م، كان هذا عملاً غير اعتيادي، قاوم عوامل الزمن، وتم استخدامه حتى خلال الصراع الإيطالي الأثيوبي في الفترة 35–1936م. وفي إشارة إلى هذا العمل كتب وكيل وزارة الحربية ميرابيللي: "لم يترك فرصة، خلال قيامه بالمهام التي كلف بها، إلا انتهزها لجمع المعلومات الجغرافية، ورسم المخططات والمسالك، وتنفيذ مجسمات سريعة، ووسع إلى شمال وغرب الإقليم الذي سبق أن صوره المعهد الجغرافي شبكة من الأشكال المثلثة، التي تشير إليها نتائج الاستطلاعات التي قام هو وآخرون بها، ونجح بذلك في جمع باقة من الوثائق القيمة، تمكن، فيما بعد، بناء على تكليف من قيادة رئاسة الأركان، من رسم خارطة بيانية للمستعمرة بمقياس 1: 500.000. وتدل الأشكال التصويرية، وخاصة تلك المتعلقة بالتكوينات الجبلية، التي اتسمت بالدقة والوضوح، على ما كان يتمتع به المؤلف من براعة فنية والتزام حرفي".[56]

وفاة الوالد جوزيبي، في 1916م، دفعت مياني للتقدم بطلب إجازة طارئة لمدة سنتين. وبكل تأكيد لم يكن هذا الانقطاع في المسار المهني، ولو أنه كان مؤقتاً، في مخططات الضابط. إلا أنه لم يكن يجد أحداً يفوضه لإدارة الورش الميكانيكية لآل مياني وسيلفستري، التي كانت توفر فرص عمل لمئات من العمال. إضافة إلى أنه، منذ عودته من أفريقيا، حرص على أن يظل دائماً على اطلاع على تطور أعمال العائلة. وكما سبق أن أشرنا فقد كان ذا توجه واضح نحو العلوم التطبيقية. في هذا الصدد يذكر الجنرال أوريليو بيتراكي أن مياني "عندما كان في المدرسة التطبيقية في بارما، كان كثيراً ما يذهب إلى التارو لتجارب الرماية، وغالباً ما كان يذهب إلى هناك بالقطار. وكان مياني يشعر بسعادة بالغة عندما يتمكن من الصعود إلى القاطرة ليقودها بنفسه، وسط دهشة العمال وإعجابهم. وكذلك، عندما كان الطلاب يذهبون إلى محطة القطارات للدراسة العملية على منظومات

[56] أ.م.ل.م.، وزارة الحربية، مجلس الوزراء، 18 أكتوبر 1910م، رقم 8544.

الإشارة والتبديل..إلخ، كان مياني دائماً حاضراً لتشغيلها، حتى قبل أن ينتهي المعلم من تقديم الشرح الفني، كما لو أنه عمل من قبل في السكك الحديدية. قد تكون هذه أشياء صغيرة، ولكنها تكفي للتدليل على ثراء عبقريته المتوهجة، وهوسه بكل ما يتعلق بالعلم والمعرفة".[57]

خلال الفترة التي عكف فيها مياني على الإشراف على الورش الميكانيكية استقر في دومازو، على ضفاف بحيرة كومو. كانت الڤيلا، التي يسكن فيها، وبها ما يشبه الترسانة، ذات طراز حديث، وكانت مزينة بحقول وبساتين فاكهة. بعد أن اشترى المبنى، أراد أيضاً أن يزوده بإسطبل كبير، اختار له أبقاراً من سلالات مختارة، جلبها من فرنسا. وبالطبع لم يمكن ألا تحتوي الڤيلا على ورشة ميكانيكية، حيث كان مياني يتسلى بصناعة معدات زراعية، وإجراء التجارب. وفي هذه الجنة الصغيرة، ولدت في سنة 1912م إليسا ابنته الوحيدة.

في 22 مارس 1908م استدعي مياني من جديد للخدمة العسكرية. عين قائداً للفرقة العسكرية في ميلانو، وكان قد رقي إلى رتبة رائد في 22 سبتمبر من السنة نفسها، بمرتب سنوي قدره 4800 ليرة، وبعد ذلك بسنتين نقل إلى هيئة رئاسة الأركان، وعين رئيس أركان للفرقة العسكرية في باليرمو. في سبتمبر 1910م حررت لجنة من كبار الضباط في لواء باليرمو وثيقة تقترح فيها ترقية مياني ترقية استثنائية، وقدمت لذلك بما يلي: "إن الرائد مياني رجل أفعال، يمكن الاعتماد عليه في مختلف الظروف، وفي الوقت نفسه هو ضابط يتمتع بثقافة واسعة وعميقة ومتنوعة. وباختصار تعبر اللجنة عن قناعتها بأن الرائد مياني يمتلك، على نحو خارق للمعتاد، كل مقومات الذكاء والفاعلية العملية التي يمكن أن تطلب في أحد ضباط المستقبل".[58] بهذه الخلفية الممتازة، رقي مياني في 4 يوليو 1912م إلى رتبة مقدم ركن.

وبالطبع لم يكن مياني يحلم بأكثر من ذلك. فقد بلغ، ولما يزل في الثامنة والأربعين من عمره، وعلى الرغم من السنتين اللتين قضاهما في الإجازة الطارئة، الرتبة الأعلى التي كان يسمح بها في الجيش الإيطالي. ناهيك عن أنه كان يحظى باحترام زملائه والعاملين تحت إمرته. ومرة أخرى ها هو ذا الجنرال بتراكي يقدم لنا صورة إيجابية للضابط: "لقد كان مياني يمتلك شخصية قوية ومسيطرة، كما ينبغي لمن يتولى القيادة، وحيث إنه لم يكن يتعدى على مجال اختصاصات الآخرين، فلم تكن لتأتي اعتراضات، طالما لزم المرؤوسون مواقعهم، ولم يتطلعوا لتقديم نصائح لم تطلب منهم، ناهيك عن فعل ما هو أسوأ، أي مقاومة الأوامر".[59]

---

[57] أ.م.ل.م.، مراسلات سنوات الثلاثينيات، رسالة من الجنرال أوريليو بيتراكي إلى العقيد جويدو فورناري، تورينو في 22 يناير 1937م.

[58] أ.م.ل.م.، قيادة لواء باليرمو، مرجع سابق.

[59] أ.م.ل.م.، مراسلات الثلاثينيات، رسالة من الجنرال أوريليو بيتراكي إلى العقيد جويدو فورناري، مرجع سابق.

جنرال آخر، هو كارلو جانيني، الذي كان من بين العاملين تحت إمرة مياني أثناء احتلال فزان، يقدم عن مياني شهادة لا تختلف كثيراً عن شهادة بيتراكي، إذ يقول: "لقد كان رجلاً ذا جدارة عالية، بالغ الذكاء، مثقفاً، باحثاً، حيوياً، حاسماً، ومع ذلك كان طيباً، صموتاً، متواضعاً، بل كان أيضاً متسامحا. كان مفعماً بالحيوية، ذا طبع صارم، ولكن ذا قلب كريم، وذا ثبات في عواطفه، حتى في رسائله التي كان يكتبها إلى عائلته، التي كان يكن لها حباً عظيما".[60]

وأخيراً كان مياني مصوراً بارعاً. وقد كان ينمي هوايته هذه منذ السنوات الأولى التي قضاها في المستعمرة (جميلة جداً تلك الصور، ربما تعود إلى سنة 1887م، التي التقطها لتمرين على الرماية، وتبدو فيها مجموعة من الضباط الأنيقين في الصف الأول)، وسرعان ما تجاوزت أعماله في هذا المجال مرحلة الهواية، كي تصبح أعمال محترف من الدرجة الأولى. أثناء التحضير لحملة فزان –على سبيل المثال– حرص على أن يزود إحدى العربات بغرفة مظلمة، كان يعكف فيها بنفسه على تحميض الأفلام. لا نعرف أي نوع من المصورات كان يستخدمها، ولكن كانت بكل تأكيد من النوع الممتاز، ومزودة ببعض العدسات المقربة، فثلاثون بالمئة على الأقل من الصور التي التقطها، كانت ملتقطة بزاوية متسعة. كما سنرى سوف نجده يلتقط صوراً حتى في الأوقات العصيبة التي مرت بها الحملة، بما في ذلك أثناء احتدام المعارك في منطقتي أشكدة وعدي– جرات، ولم يكن يساعده في ذلك سوى أحد المواطنين المحليين، الذي كان مكلفاً بنقل المصورة والحامل الذي تقوم عليه. وخلال ثمانية الأشهر الصعبة التي استغرقتها المسيرة في صحراء فزان، التقط مياني بضع مئات من الصور، وصلنا منها 181. كلها ذات جودة عالية من الناحية المهنية. وهي بكل تأكيد وثائق لا غنى عنها في تأريخ حملة فزان.[61]

لقد كان مياني، كرجل وكعسكري، النقيض تماما، من حيث الثقافة والطباع والرؤية حول عالم المستعمرات، من الجنرال رودولفو غراتسياني، الذي حل محله بعد عشر سنوات، وأنجز الاحتلال التام والنهائي لفزان. إن أول وأهم اختلاف بينهما يمكن أن نجده من خلال قراءتنا الأوراق المتبقية عن كلا الضابطين. لقد كان مياني دائماً يقظاً وملتزماً بالوقائع. إن كتابته تذكر بأسلوب محرر العقود، قليلاً ما يكشف عن مشاعر، أو يعتمد على الأساليب البلاغية. فحتى في اللحظات التي يتحدث فيها عن انتصاراته الباهرة في محروقة، وترقيته إلى رتبة عقيد، خلت تقاريره إلى الحاكم فينشينسو غاريوني من أي تعبير عن الإحساس بالبطولة. بينما كان أسلوب غراتسياني بخلاف ذلك تماما، يتسم بكثرة الكلام، والتكرار، الذي يبلغ أحياناً حد الاستفزاز. إن كتابته، بلغتها الإيطالية

---

[60] أ.م.ل.م.، مراسلات الثلاثينيات، رسالة من الجنرال كارلو جانيني إلى العقيد جويدو فورناري، جنوا في 28 يناير 1937م.

[61] انظر أنجيلو ديل بوكا، مياني، عقيد ومصور، نحو احتلال فزان، في منشورات دراسات بيانشينتيني، 31، 2002م، ص ص 137–164.

غير الواثقة، تكشف عن طموح لا حدود له، وعن الرغبة في أن يكون دائماً الأول. كان مقتنعاً بأنه يمتلك صفات كبار القادة، وكان عندما يوجه إليه رؤساؤه انتقادات معينة، يرد رد من يشعر بأنه قد أهين، ويبلغ أحياناً أن يكون وقحاً وجلفا. وفي تقاريره التي كان يرسلها إلى الحاكم وإلى الوزير، كان يفخر بقسوته، ويستعرض جبروته البالغ باعتباره إحدى السمات النادرة التي ورثها عن أجداده الرومان.

حتى في ميدان القتال، كانت الاختلافات بين الرجلين بينة جدا. فطوال الحملة لاحتلال فزان لم يستخدم مياني المشانق ولا ساحات الإعدام لإرهاب العدو. وفي المعارك كان صادقاً: يسعى إلى تحقيق النصر، لا إلى إبادة العدو. كان هدفه الأساسي هو إخضاع السكان الليبيين بأقل ما يمكن من القوة، وبأكبر قدر من الدبلوماسية. ولهذا الغرض كان يولي أهمية خاصة للاحتفاليات التي كان ينظمها لاستسلام المواطنين وإحلال السلام في المناطق، وكان يحرص على أن تكون ذات مهابة وغير قابلة للنسيان. أما غراتسياني، فعلى النقيض من ذلك، كان يسعى دائماً إلى إبادة العدو. وإذا لم يحقق ذلك في ميدان المعركة، سعى إلى ترحيل المواطنين، وحشدهم في المعتقلات الجماعية، وإلى "المحكمة الطائرة"، إلى الأسلحة الكيميائية، إلى الإعدامات العشوائية. وباختصار فعل ما أثار ضده كراهية العالم العربي، الذي اتفق على وصفه بالسفاح والجزار. كان مياني وغراتسياني كلاهما شخصيات قيادية في حركة استعمارية بائسة، تقوم على السلب، ولكن بينما كان الأول يحاول أن يوفق بين استخدام القوة، والحد الأدنى من الإنسانية واحترام العدو (ربما باستثناء الفترة التي أعقبت هزيمة قصر بوهادي، للأسباب التي سبق أن تحدثنا عنها)، كان الثاني لا يتحمل الحلول الوسط، ولا يحمل للعدو سوى الكراهية والاحتقار، ولا يراه غير مؤذ إلا عندما يكون معلقاً في حبل المشنقة.

في الشهور الأولى من سنة 1913م، كانت فكرة احتلال فزان توشك أن تتبلور. وقد اختار لها وزير المستعمرات بييترو بيرتوليني العقيد ركن أنتونيو مياني، الذي يتقن العربية الدارجة والمكتوبة، وكان ذا طبيعة هادئة وغير عدوانية. وعندما عرض الوزير عليه الأمر مباشرة، قبل على الفور، وكان يشعر بسعادة بالغة بالعودة إلى أفريقيا، وبإمكانية أن يكون تحت تصرفه لإنجاز هذه المهمة الصعبة، فرقة من الإريتريين، أي جنوده المحليين السابقين. في 5 يونيو 1913م، انتقل مياني إلى وزارة المستعمرات، وفي 17 يونيو كان يستقل السفينة في سيراكوزا، متجهاً إلى طرابلس، حيث سينضم إلى المكتب السياسي العسكري.[62]

[62] أ.م.ل.م.، السيرة المهنية، مرجع سابق.

هنا تبدأ بالنسبة لمياني مغامرة غير عادية ولا نظير لها. كان يدرك أنه يمتلك كل ما يلزم لمواجهتها. بدءاً من تجربته في مواجهة جماعات غير النظاميين، مروراً بمعارفه اللوجستية التي تؤهله للعمل في مناطق غير معروفة، ومن ألفته بلغة الخصم، إلى القدرة العسكرية والأخلاقية لإنجاز مهمة لم يكن قد وجد بعد من يستطيع تقدير مدى صعوبتها وما تحفل به من خبايا ومفاجآت. وكان يزيده ثقة في نفسه أنه لم يسبق أن خسر من قبل في أي مواجهة.

الفصل الثالث

احتلال فزان

مغامرة غير محسوبة:

في ربيع 1913م، وبعد هزيمة الزعيم البربري سليمان الباروني في الأصابعة، واستكمال احتلال الجبل، من ترهونة حتى نالوت، بل بلوغ واحة غدامس البعيدة، أشار حاكم طرابلس الجنرال أوتافيو رانيي على وزير المستعمرات بأن الفرصة مواتية أيضاً لاحتلال واحات الجفرة وفزان. وقد رأى رانيي ضرورة السيطرة على هذه الأراضي للأسباب التالية:

1) الفوضى التي سادت في فزان بعد جلاء الأتراك.
2) ضرورة إنشاء مواقع على طول الحدود غير المأمونة مع الجنوب الجزائري.
3) ضرورة منع السنوسيين والناجين من متمردي طرابلس من اختيار فزان قاعدة عملياتية لهم ضد الأراضي التي تم احتلالها.

هذه الأسباب التي اعتمدها رانيي كانت إذن ذات طبيعة استراتيجية بشكل لافت. فالحقيقة أن فزان، التي تعادل مساحة إيطالياً كلها، وتسودها الصحراء وقليلة السكان، لم تكن لتمثل أي عامل جذب من الناحية الاقتصادية. إضافة إلى أن حركة التجارة مع دواخل أفريقيا كانت منذ وقت طويل قد أخذت في الانحسار، لكن دوافع ذات طبيعة معنوية كانت تتعاضد للدفع في اتجاه الاحتلال الفوري لفزان. فكما كان يتردد في روما، أن إيطاليا ليست أقل من تركيا، التي تمكنت من الاحتفاظ بفزان تحت سيطرتها على مدى عقود من الزمن، معتمدة على فرقة عسكرية واحدة. كان هذا الحديث يتردد وينتشر، ولكن نسي هؤلاء أمراً في منتهى الأهمية: لقد كان الأتراك والليبيون ينتمون إلى العقيدة الدينية ذاتها.

لتنفيذ احتلال فزان كان ثمة في 1913م مشروعان: الأول مشروع الحاكم رانيي الذي يعتمد كلياً على التعاون المفترض من قبل بعض الزعماء العرب وبعض كبار التجار الطرابلسيين، الذي كانوا يرغبون في استعادة سيطرتهم على التجارة مع الدواخل. هذا المشروع الذي كان قليل التكلفة، ولكنه كان بحاجة إلى التحقق منه على أرض الواقع، أحبطه وزير المستعمرات بيرتولوني، الذي أطلق مشروعه الخاص الذي يعتمد على تكوين قافلة قوية، تنطلق من الساحل، ثم تمر بواحات الجفرة، وتتجه نحو فزان، لتحتله كله، ولكن حتى على فرض أن هذا المشروع لا يعتمد على وساطة الزعماء العرب، التي كان بيرتولوني يرى أنها لا تليق بعزة الوطن، فإن من الحق أيضاً أن القافلة التي كان يتحدث عنها الوزير لا تزيد إلا قليلاً على ألف رجل، ولم يكن ممكناً مطلقاً أن تسيطر

على فزان كلها. ولم يخطئ الجنرال لويجي كادورنا عندما قال في كتاب مذكراته إن عملية فزان "كانت الحملة الأكثر تهوراً والأبعد عن الملاءمة في التاريخ الاستعماري للبلاد كلها".[63]

وقد كان الضابط الذي اختير لتنفيذ هذه المهمة المتهورة، كما نعرف، العقيد الركن أنتونيو مياني، الذي كان متلهفاً للرجوع إلى أفريقيا، إلى درجة أنه لم يحسب حساباً دقيقاً حجم المجازفة التي كانت تنطوي عليها تلك الحملة، مع أنه تمكن، خلال لقاء جمعه في روما مع الضابط التركي عبد القادر جامي بي، من معرفة بعض التفاصيل، التي كان ينبغي أن تثير لديه مخاوف حقيقية. فحسب جامي بي، إضافة إلى الخلايا المتفرقة التابعة لمحمد بن عبد الله، كان على مياني أن يحسب حساب العداوة التي تكنها للإيطاليين قبيلتا المقارحة والحساونة، اللتان كانتا وحدهما تملكان ما يقرب من خمسة آلاف بندقية.[64] وقد تلقى مياني خلال اللقاءات التي جمعته بالحاكم الجديد الجنرال فينشينسو غاريوني في طرابلس تعليمات كان من شأنها أن تثبط عزيمة أي ضابط. فعلى سبيل المثال، قيل له إن عليه ألا يراهن مطلقاً على أن يتلقى أية إمدادات، نظراً للصعوبات اللوجستية، وضعف استعدادات القوات الموجودة في المستعمرة.

وقد كان واضحاً أن مياني كان يراهن فقط على حظه الحسن، الذي لم يخيب أبداً ظنه. وكان يراهن على قدراته التنظيمية الخاصة، التي لم تكن، بكل تأكيد، عادية. وبين النصف الثاني من يونيو وبداية أغسطس سنة 1913م، خصص كل وقته وكل قواه للتحضير للحملة.

ومن خلال مذكرات مياني نعلم مثلاً أنه عكف طويلا، بناء على المعلومات التي حصل عليها من جامي بي ومن فرحات بي (الزاوي) خط السير الذي يجدر اتباعه. وبدلاً من الانطلاق من مزدة، التي كانت تعد الطريق المباشر إلى الهدف، انتهى أخيراً إلى اختيار أن ينطلق من سرت، التي كانت، على الرغم من أن الطريق انطلاقاً منها سيكون أطول، تمتاز بوجود ميناء يسهل عمليات الإمداد. وكان إلى جانب ذلك يلتهم بشغف كل المطبوعات التي كان يجدها في المكتبة المركزية في ليبيا أو في الأراشيف العسكرية التي توجد بها إشارات أو معلومات عن تاريخ البلد وجغرافيتها. وقد وجدنا بين أوراقه –على سبيل المثال– تقريراً للكونت كارلو أريفابيني فالنتي–جونزاجا، بعنوان السنوسي والمسألة الطرابلسية،[65] وبضع تقارير عن السنوسية أيضاً أرسلها القنصل في قابس أكيلي لومبروزو إلى القنصل الإيطالي في تونس.[66] وبخلاف الكثير من العسكريين والسياسيين كان مياني يدرك تماماً التأثير السنوسي حتى في إقليم طرابلس، وسوف

---

[63] كادورنا، مرجع سابق، ص 48.

[64] انظر باولو سوافي، فزان: الصحراء المشتهاة (1842–1921م)، جوفري، ميلانو، 2001م، ص 278.

[65] الإدارة المركزية للشؤون السرية، سري، يوليو 1906م.

[66] أ.م.ل.م.، وثائق حول السنوسية في شمال أفريقيا.

يحاول، عندما تم له احتلال فزان، أن يدخل في مفاوضات مع الجماعة الإسلامية. وقد أثمرت دراساته خارطة للأراضي التي سوف يعبرها، ومذكرات أولية عن خصائصها العضوية واللوجستية والاستراتيجية.

المغامرة الكبرى تبدأ:

في يوم 16 يوليو 1913م حمّل مياني على ظهر الباخرة ماتيلوت وسفينتين أخريين جنوداً وإبلاً وصناديق وطروداً لا حصر لها. وعندما انتهت عمليات التحميل، انطلق الأسطول الصغير من ميناء طرابلس. وهكذا بدأت المغامرة الكبرى. وفي فجر يوم 17 ألقت السفن مخاطيفها في مياه مصراتة، كي تحمل مزيداً من القوات وفرقة من راكبي الجمال. وبينما كانت أعمال التحميل تجري على قدم وساق، نزل مياني إلى الأرض واستغل تلك الاستراحة في التقاط الصور. كانت في مجملها 14 صورة، تعكس ذوق الضابط وتطلعه للمعرفة وثقافته الواسعة. ومنذ هذه المقاربة الأولى التي خاضها مياني مع الحقيقة الليبية، تبين على الفور أنه لم يكن يهدف فقط إلى توثيق حملته العسكرية، بل كان مهتماً كذلك بالأماكن والمحاصيل الزراعية، وأنظمة الري والأزياء المحلية. ولعل ذلك يعني أنه كان يريد أن يفهم العالم الذي سوف يجده أمامه، لأن من شأن ذلك أن يكون ذا فائدة له في تمهيد الطريق الصعبة نحو فزان. وبعد أن حمض تلك الصور، أثراها بتعليقات، تراوحت بين سطر وعشرين سطراً، حسب موضوع كل صورة. ولم ينس مطلقاً أن يضع عليها توقيعه.[67]

استأنفت قافلة السفن رحلتها، وفي فجر يوم 18 يوليو توقفت أمام ساحل سرت، التي كانت تسمى أيضاً قصر الزعفران، نظراً لكثرة زراعة الزعفران فيها، وقد اختيرت رأس جسر للحملة. هنا توقف مياني حتى فجر 9 أغسطس حتى يضع اللمسات الأخيرة على تنظيم القوات، التي كانت في جزء كبير منها من جنسيات عدة (ليبيين وإريتريين) غير متجانسة، وكذلك إصدار التعليمات المتعلقة بترتيبات مسيرة القوات وتشكيلاتها. وخلال عشرين يوماً تمكن من فعل ما يشبه المعجزة. فعندما وصل الحاكم غاريوني في زيارة إلى سرت، واستعرض القوات، تمكن بنفسه –كما يقول– "من لمس الثمار الرائعة للعمل الذي أشرف عليه العقيد مياني. فعلى طول السهل الذي يمتد إلى جنوب سرت، كانت القوات ذات الألوان المتعددة، تقوم بالعرض أمامي، منظمة وكاملة التجهيز،

[67] من الرصيد الذي بين أيدينا اخترنا لهذا المجلد 85 صورة، ثم استبعدنا منها الرديئة من الناحية الفنية أو المشوهة بفعل الزمن أو المكررة، التي تصور المشهد نفسه من زوايا مختلفة. وإلى جانب الإشارة إلى مصدر الصورة، أشرنا كذلك إلى ترقيم الصور في التعليقات عليها، مدوناً بيد العقيد مياني نفسه. توجد نسخ من هذه الصور محفوظة في المتحف الاستعماري في روما، وفي أرشيف الجيش التاريخي.

مستعدة لخوض العملية الشاقة التي كانت تنتظرها، وتعمرها روح معنوية، وهمة عسكرية مثيرة للإعجاب"[68].

وفي فجر يوم 9 أغسطس، أعطت طلقة مدفعية إشارة الاستيقاظ. وتحركت القافلة المكونة من 1100 مقاتل (108 إيطاليون) و500 مدني من السكان المحليين وراكبي الجمال، 10 مدافع، 4 رشاشات، 4 عربات و1765 جملاً محملة بالمياه (ما مقداره 60 طناً)، مؤن وذخيرة، من سرت متجهة إلى سوكنة، التي تبعد ثلاثمائة كيلومتر عن البحر، وكانت قد احتلتها في 23 يوليو قوات يقودها النقيب هيركولاني جادي.

استمرت مسيرة القافلة الضخمة، التي كانت تمتد على طول 6700 متر، بمقدمة عرضها أقل من ذلك بقليل، مدة 16 يوماً، وتمت بكل دقة وانتظام، سواء في التشكيلات أو الحركة، ما كان يمثل أول شهادة على القدرة اللوجستية العالية للقافلة، على الرغم من أنها تسير في أرض لا ماء فيها. وقد تم توثيق هذه المسيرة بالصور. ومن بين الصور التي وصلتنا هناك مشاهد لمسيرة القافلة في صفين مزدوجين، استراحة على الطريق بين بونجيم وفاطمية، زيارات لآثار القلعة الرومانية في بونجيم. وفي ظهر هذه الصورة الأخيرة كتب مياني بقلم الرصاص، بخطه الدقيق، ولكن شديد الوضوح: "تبين الكتل التي تم قياسها، عند فحصها بالمنظار، الطبيعة الإسفنجية للحجر الجيري الصلب، وقد التقطت من مسافة 4 كيلومترات من كهف جحرة بوجويرة".[69] هنا نجد المصور يقترن بالجيولوجي، ولكن ليس هذا كل شيء. في بونجيم استغنى العقيد عن المزولة، وطفق يستخرج الأبعاد الجغرافية للمنطقة. لم يكن في الجيش الإيطالي ضباط يمكنهم أن يدعوا امتلاك ما كان لدى مياني من معارف.

في 24 أغسطس، وبعد أن اجتازت القافلة مرتفعات الطار، دخلت في منطقة واحة الجفرة، وبقيت للاستراحة في (منطقة) حمام. وبعد يومين وصلت أخيراً إلى سوكنة. وبهذه المناسبة تخلى مياني عن العربة التي استقلها على طول الطريق من الساحل، كي يمتطي ظهر جمل، ويتقدم بمهابة في أول المسيرة. وكان هذا تقليداً سوف يحافظ عليه عند دخوله أي مدينة تستسلم له.

في سوكنة، التي تقع في منتصف المسافة تقريباً إلى مرزق، وهي الهدف النهائي للحملة، توقفت الحملة لمدة أربعة أشهر. وقد كان ثمة مبررات جدية أدت إلى عرقلة مسيرة التوغل في فزان. بادئ ذي بدء صعوبة الحصول على عدد كاف من الجمال. ثانياً ضرورة فتح طريق في جبال السودا، كي يمكن أن تتحرك العربات خلال الصخور السوداء الهائلة. في هذه الأثناء وصلت

---

[68] ج. فورناري، مرجع سابق، ص 36.

[69] أ.م.ل.م.، انظر الصورة رقم 40.

أخبار بأن الزعيم محمد بن عبد الله كان يحشد في منطقة الشاطئ آلافاً من المسلحين، وكان يبيت نواياً غير طيبة، بينما كانت لا تزال هناك بؤر للثورة في منطقة القبلة، أي في ظهر الحملة.

ولكن كان ثمة سبب آخر، ليس ثانوياً بكل تأكيد، يُفترض أنه كان كفيلاً بأن يقلق مياني، وربما يهدد بإفشال الحملة. وعلى النقيض من النقيب هيركولاني جادي، الذي بلغ في سوكنة قمة حماسته، كان مياني يرغب في طبع الحملة بطابع عسكري محض، بعيداً عن المنافسات والدسائس بين الزعماء المحليين وأتباعهم،[70] كان النقيب هيركولاني جادي، الذي وضعه الحاكم غاريوني إلى جانب مياني، كمستشار سياسي، لا يفكر في شيء سوى استثمار تطلعات الزعماء العرب، كي يثير بعضهم ضد بعض، بمناورات متهورة وغير محسوبة العواقب. ويكفي في هذا الصدد مثال واحد. كان النقيب يحاول الاستفادة من معرفته بالتنافس القديم بين عائلتي المنتصر، ذات التأثير القوي في الشريط الساحلي بين طرابلس وسرت، وعائلة سيف النصر ذات التأثير في واحات الجفرة وفزان، كي يستفيد من كل منهما على حدة، مقدماً لهما وعوداً كان يعرف أنه لن يستطيع الوفاء بها. يضاف إلى هذا أن سياسة هيركولاني جادي هذه كانت تحظى بدعم الحاكم غاريوني الكامل، ودعم شخصيات أخرى في روما.

منذ شهر يوليو، عندما بدأ مياني يرى ملامح الخطوط المتهورة لسياسة هيركولاني، عبر عن اعتراضه عليها، وطلب من حكومة طرابلس، بحكم أنه كان يتولى مهمة المندوب الحكومي المكلف باحتلال فزان، أن يمنع هيركولاني من التدخل في التحضيرات السياسية للحملة. وكما أوضح باولو سوافي: "مياني كان ضابطاً صلباً لا يلين، وكان يكره الازدواجية، التي كان يراها مضرة بمصداقية إيطاليا لدى زعماء القبائل"؛[71] لكن مخاوفه وطلباته لم تكن تجد أي اعتبار لدى الجنرال جاريوني، الذي أطلق يدي هيركولاني ليفعل ما يحلو له. وهكذا، بينما تم التقدم نحو سرت بمساعدة آل المنتصر، كان التقدم نحو سوكنة بفضل دعم آل سيف النصر، المشروط بمنع أي تأثير لآل المنتصر في هذا الإقليم. وبينما كانت أبواب فزان تفتح تماماً على مصاريعها، يتم، بدون أية أسباب محددة، إلقاء القبض على كل أفراد عائلة سيف النصر، ويرحلون إلى زوارة، بينما تستعاد أفضل العلاقات مع آل المنتصر.

وقد أوحى هذا السلوك المستهتر والطائش لأحد شيوخ الحركة الاستعمارية الميجور جيراردو بانتانو بهذه الانطباعات المرة: "في المجمل كان لدي شعور أن قلعة احتلالنا، التي رفعنا بنيانها بتعجل، وبأساليب مختلفة، لم يكن لها أي قدر من المتانة. لقد أفسدنا أشياء كثيرة جيدة، وقمنا بأشياء أخرى كثيرة غير جيدة. إن سلوكنا البالغ العنف أو البالغ الرقة، المتسم بالتقلب وعدم الثبات،

---

[70] م. أ. فيتالي، مرجع سابق، ص 56.

[71] ب. سوافي، مرجع سابق، ص 295.

الناعم جداً مع بعض القبائل، وبالغ القسوة مع قبائل أخرى، لم يضمن لنا ولاء السكان، الذين لم يفهموا ماذا نريد منهم".[72]

وقد عاش مياني في سوكنة آخر تطورات سياسة هيركولاني المزدوجة، ونتائجها السلبية. فسرعان ما تبين للشيخ سيف النصر وأبنائه الخمسة أنه قد تم التلاعب بهم؛ إذ لم يكتف هيركولاني بعدم الوفاء بالوعود التي قطعها لهم، بل أخذ يحاول إنهاء سيطرتهم على إقطاعياتهم في منطقة الجفرة، متهماً إياهم بأن لهم علاقات بمحمد بن عبد الله والمتمردين في منطقة القبلة. ونتيجة لذلك أخذ موقفهم يتجه لأن يكون أقل ولاء، دون أن يبلغ الحد الأقصى للخيانة. بيد أنه بلغ الحد الذي جعل الحاكم غاريوني يقتنع بضرورة إبعادهم عن منطقة العمليات. وهذا ما جعل النقيب غاريوني يقترح اعتقالهم. ولكن مياني، وكذلك الوزير بيرتولوني، كانا ضد هذا الإجراء. كتب مياني في 24 أكتوبر: "إن هذا العمل يؤكد الاعتقاد بأننا لا نلتزم بالعهود التي نقطعها على أنفسنا مع الزعماء الذين لا يعارضون احتلالنا". ويضيف بيرتولوني في 6 نوفمبر ما يلي: "إن أي إجراءات قاسية ضد آل سيف النصر، إذا كانت تقوم على مجرد شكوك، سوف تكون لها انعكاسات سلبية على زعماء آخرين، سوف يفقدون أي أمان معنا".[73]

ومع ذلك فحتى هذه المرة تغلب رأي جاريوني. في منتصف نوفمبر، وفي عملية خداع واحتيال كبيرة ألقي القبض على كل أفراد عائلة سيف النصر، ورحلوا على الفور إلى طرابلس، ومن ثم إلى الحدود في زوارة.[74] بمثل هذا التصرف الظالم والمخزي، الجدير بأسوأ ما يمثله شخص مثل غراتسياني، أخذت في الاتساع قائمة الأشخاص الذين سوف يكرسون كل حياتهم للنضال ضد إيطاليا، التي انتهت، بعد ممارسة كل أنواع العنف، إلى الإخلال بالوعود والعهود.

لم يكن بوسع مياني أن يرفض تنفيذ أوامر الحاكم، ومن أجل أن ينأى بنفسه عن عملية اعتقال أفراد عائلة سيف النصر، كلف هيركولاني بإنهاء هذه العملية الدنيئة. وبالطبع كان بوسع غاريوني أن يتوقع خطر وقوع ثورة من طرف زعماء آخرين، إذا ما انتشر خبر هذا الاعتقال، ولذا فقد نصح بعدم استئناف مسيرة الحملة مؤقتا. لقد كان غاريوني يؤمن بصحة المخاوف التي عبر عنها مياني. وفي 12 نوفمبر أبرق إليه بما يلي: "إن من مصلحتنا السياسية العليا أن نتجنب، بأي ثمن، الخوض في مجازفة، سوف يكون لها في هذا الوقت بالذات عواقب وخيمة. ولسيادتكم أن تقرروا

---

[72] جيراردو بانتانو، ثلاث وعشرون سنة من الحياة في أفريقيا، ساتيت، تورينو، 1943م، ص ص277–278.

[73] مشار إليه في م. أ. فيتالي، مرجع سابق، ص63.

[74] الأعضاء الأربعة عشر من عائلة سيف النصر يحملون على خمس عربات، بحراسة ضابط وثلاثة وعشرين مجنداً إريترياً، وينقلون إلى مصراته، حيث ينقلون إلى متن السفينة طبرق، مرحلين إلى طرابلس.

في الوقت المناسب، إذا ما كان من الملائم بدء المسيرة التي سوف تتطلب، في جميع الأحوال، الحصول مسبقاً على إذن من هذه الحكومة".[75]

في 25 نوفمبر أذنت حكومة طرابلس لمياني بأن يستأنف المسيرة، حالما يرى ذلك مناسبا. وبعد أن تأكد بنفسه من إنجاز الأعمال لشق الطريق الذي يعبر جبال السودا (وقد كتب الطبيب ريلليني عنه أنه عمل ضخم، أنجز في ظروف استثنائية، لا نظير له إلا أعمال الرومان)،[76] وأن خزاني المياه تم وضعهما في أم زريات وفي بير قطيفة، حسم مياني الأمر في 5 ديسمبر، وأصدر الأوامر باستئناف المرحلة الثانية من المسيرة، بهدف احتلال براك، عاصمة منطقة الشاطئ الشرقي. وكان يدرك جيدا، بناء على بحوثه الدؤوبة في الخرائط الموجودة في الأرشيف، أنه سوف يواجه، في هذا القسم الثاني من الطريق، العقبات الأصعب في مسيرة الحملة كلها: المرتفعات الصعبة لجبل الأسود (الجبال السودا)، وصحراء سرير بن عافية الجرداء تماماً والخالية من آبار المياه. ولكنه كان هادئاً وغير قلق، لأنه كان يعلم أنه قد وجد حلولاً جيدة للعقبات اللوجستية الأساسية. وحتى عندما أبلغه بعض المخبرين أن هناك، فيما يلي صحراء السرير، تشكيلات كبيرة من المقاتلين في انتظاره، لم يهتم كثيراً، وأبرق إلى الحاكم غاريوني يقول: "بعد الحصول على هذا التأكيد، قررت التوجه مباشرة إلى الشب، حيث أتوقع الوصول إليها في يوم 9، وسوف أشن هجوماً قوياً للقضاء على تلك الخلية".[77]

في 6 ديسمبر 1913م، وبعد أربعة أشهر من التوقف الإجباري، استأنف مياني التقدم نحو فزان، بقافلة تم في تلك الأثناء دعمها، ولو على نحو يسير، وكانت تحتوي على: 46 ضابطا، و69 صف ضابط وجنود إيطاليين، و6 زعماء محليين، و1284 مجندين ليبيين وإريتريين، و10 مدافع، و4 رشاشات، و4 عربات، و7 محطات راديو، و211 جملاً من جمال الحكومة، و1554 جملاً مؤجرا، و56 حصاناً وبغلا، و350 دليلاً ليبيا. قبل الانطلاق من سوكنة ببضعة أيام، التحق بمياني زعيم ورفلة عبد النبي بلخير، وكان قد ألحق به كرجل موثوق فيه ومستشار سياسي. وكان بلخير، وهو شخص مثقف وتلقى تعليمه في القسطنطينية، مفيداً جداً لمياني في مجال التواصل مع الزعماء المحليين، والبحث الصعب عن مزيد من الجمال لقافلة التموين، وذلك قبل أن يتحول في سنة 1915م إلى صف التمرد.

---

[75] أ.م.ل.م.، مذكرات الحرب للعقيد أنتونيو مياني، أفريقيا الشمالية، 1913–1914م، منشورات سيرو كوزميني، مج 1، يناير 1972م، نسخة فريدة. هذه المذكرات تحتوي كل البرقيات المرسلة من مياني وإليه، معظمها من حكومة طرابلس. ومن بين المبررات لذلك التوقف الطويل في سوكنة وتأخر وصول محطات البرق، بسبب إضراب في شركة فيات.

[76] ج. ريلليني، مرجع سابق، ص 54.

[77] أ.م.ل.م.، مذكرات الحرب، مرجع سابق، مج 1، ص 9.

كان مياني هادئاً وواثقاً جداً من نفسه، حتى أنه خلال الأيام الستة الأولى من المسيرة، وجد وقتاً لالتقاط أربع وعشرين صورة، من أجمل الصور وأكثرها دلالة. اثنتان منها أهداها إلى قرية ودان التي قال عنها "إنها تعود إلى الحقبة الرومانية"؛[78] وحين تذكر أنه رجل جيولوجيا إلى جانب كونه مصوراً، استسلم لجاذبية الجبال السودا، وخاصة لكتلة صخرية من "الجير المتحجر" المزين بالصدف،[79] ذات طبقات رسوبية من "الجير البلوري الأبيض"،[80] و"طبقة من الحصيات مختلفة الأحجام من البازلت"،[81] ولكنه كان يولي جل اهتمامه إلى الطريق، التي تزيد على 50 كيلومتراً، والتي أشرف على شقها خلال الجبال. في تعليقه على إحدى الصور، التي استخدم في التقاطها العدسة واسعة المجال، وتمثل الطريق الجديدة، تتحرك عليها بسهولة بعض العربات الكبيرة، ولم يكن مياني يخفي افتخاره بذلك، يقول "بين جبال السودا ووادي نوسكة (الوشكة)، تقابل بين حضارتين، الطريق القديمة العربية التركية نحو فزان، والطريقة الجديدة الإيطالية التي شقتها الحملة".[82]

بعد أن خرجت سالمة من الجبال السودا، هبطت قافلة مياني إلى صحراء بن عافية. وحول هذا يكتب الطبيب ريلليني في مذكراته: "ندخل إلى السرير. ندخل فزان، ندخل إلى الصحراء الكبرى".[83] وعلى الرغم من الحرارة المرتفعة، وصعوبة السير، والاقتراب من العدو، ظل مياني، حتى في هذه المرحلة، يلتقط المزيد من الصور. وهي صور موحشة جدا. رمال وصخور. ليس ثمة شجرة واحدة، ولا يبدو في الأفق أي أثر لخضرة. وكطابور من النمل، كانت تتحرك في هذا المشهد الموحش الفرق الإريترية، قوات المهاري، الجماعات الليبية، وكلها في تشكيلات قتالية. وحملت آخر صورة التعليق التالي: "10 ديسمبر 1913م، مسيرة القافلة وهي تدخل منطقة سرير الشب، ساعتين قبل بدء المعارك".[84]

اتساقاً مع "روح التعليمات الحكومية"،[85] التي تأمر، قبل الأمر بفتح النار، بدعوة السكان للخضوع سلميا، أرسل مياني رسائل إلى زعماء منطقة الشاطئ، لكنها لم تجد استجابة لديهم جميعهم. ففي الساعة 14.30 من يوم 10 ديسمبر تعرضت الحملة لهجوم من عدة جهات، بقيادة

---

[78] أ.م.ل.م.، انظر الصور رقم 58–59.

[79] انظر الصورة رقم 61.

[80] انظر الصورة رقم 62.

[81] انظر الصورة رقم 64.

[82] انظر الصورة رقم 68.

[83] ج. ريلليني، مرجع سابق، ص 68.

[84] أ.م.ل.م.، انظر الصورة رقم 81.

[85] أ.م.ل.م.، مذكرات الحرب، مرجع سابق، مج 1، ص 10.

بلقاسم البدي وعمر بن عبد النبي اللذين كانا ينويان قطع الطريق على الإيطاليين نحو براك. تمكن مياني، بعملية بسيطة جدا، من وقف تحركهم، بالالتفاف عليهم باستخدام الجماعات الليبية من جهة، ومحاصرتهم على رأس الفرقة الإريترية من الجهة الأخرى. ويذكر العقيد هذا بقوله: "محاصرين بين الفرقتين، وبعد أن تلقوا ضربات في الصميم من عشرة مدافع، تراجعت قيادة العدو فراراً إلى الجبل ناحية الغرب، تاركة قواتها، تُلاحَق ويُضَيَّق عليها من قبل قواتنا".[86] في هذه المواجهة ترك الفزازنة على أرض المعركة ثمانين قتيلا، بمن فيهم زعيما المحلتين، ولكن مياني يستكمل القائمة بقوله: "لقد شوهد العديد من القتلى والجرحى ينقلون إلى أماكن أخرى".[87] أما خسائر الإيطاليين فلا تستحق الذكر: ضابطان جريحان، و4 قتلى من المجندين المحليين وآخران جريحان.

بيد أن المقارحة لم يفقدوا الأمل في التمكن من صد القافلة والقضاء عليها. وعلى الرغم من أن مياني أرسل إليهم رسالة جديدة يدعوهم فيها للتوقف عن أية أعمال عدائية، إلا أن ذلك لم يجد صدى، فبينما كانت القافلة في 13 ديسمبر تنطلق من قرية أشكدة، وجدت قوة ضخمة بقيادة محمد بن عبد الله تقطع عليها الطريق نحو براك. كانت الساعة 8 صباحا، وكانت المرتفعات التي تسيطر على الطريق وتلتف عليه كحذوة الحصان محتلة بالكامل من قبل المحاربين. ولكن فجأة، وبدلاً من مهاجمة الحملة من داخل الخنادق التي حفروها في الجبل، ترك المقارحة مواقعهم الممتازة، واندفعوا بطريقة متسرعة للهجوم على جناح القافلة الأيسر، في سهل مفتوح ومكشوف، حتى وصلوا إلى مسافة أمتار قليلة من قطع المدفعية. واندفع الفرسان العرب في هجمة استعراضية، لم يتردد مياني نفسه بوصفها بأنها "أسطورية"، ولكن هذا الاستعراض لم يكن ذا جدوى على الإطلاق. فعندما أمر مياني بالهجوم المضاد، مصحوباً بالقصف السريع من قطع مدفعية الجبل، والنار المكثفة من قطع الرشاشات، اضطر المقارحة للتوقف ثم الانسحاب، بعد أن تركوا في الميدان أكثر من مائة وخمسين قتيلا.[88]

أوقف مياني على الفور ملاحقة الفارين. فقد كان هدفه الوصول إلى براك، لا إبادة العدو. في الساعة 11.15، وبعد إعادة تنظيم القافلة، استؤنفت المسيرة. بعد ثلاث ساعات، وعندما أصبحت المدينة تلوح في الأفق، شاهد اثنين من المشايخ يتجهان نحوه، رافعين الراية البيضاء، وسلماه الرسالة التالية: "إلى الحكومة الإيطالية العادلة، نحن مشايخ براك نفيدكم بأننا باسم كل مدن الشاطئ نعلن خضوعنا للحكومة الإيطالية العادلة، لافتين النظر إلى أننا منذ بداية المواجهات لم تكن لدينا

---

[86] نفسه، ص 11.

[87] نفسه.

[88] تكبدت قافلة مياني الخسائر التالية: مقتل اثنين من المجندين الإريتريين، وجرح أربعة آخرين.

النية أن نعلن عليكم الحرب. ونعلن مرة أخرى بأننا ونحن نشاهد الحكومة تصل إلى هنا نشعر بأننا فخورون بالتمكن من خدمتها" توقيع مجموعة مشايخ براك.[89]

في الساعة 15.30 دخلت القافلة المدينة، ووصلت إلى القلعة، حيث رفعت في ساحتها الراية الإيطالية، "بين صيحات يحيا الملك، يحيا الوطن"، كما يقول مياني.[90] بعد يومين، وخلال "احتفال مهيب" وقع كل مشايخ الشاطئ الشرقي وثيقة تعلن بموجبها قبيلتا المقارحة والحساونة، القبيلتان الرئيستان في المنطقة، والأكثر ميلاً إلى الحرب، استسلامهما. وفي تقرير عن الحدث رفعه مياني إلى الحكومة في طرابلس يقول: "بهذا اليوم يمكن بالفعل اعتبار أن فترة العمليات قد انتهت، لأن فزان لن تمثل بعد الآن أي مقاومة، ويمكن القول بأن الاحتلال قد تم بطريقة سلمية".[91] في اليوم التالي، وفي برقية أخرى إلى طرابلس، يعبر مياني عن تمسكه بتفاؤله المفرط: "أعيد تأكيد الفكرة العامة أن محمد بن عبد الله لم يعد قادراً على القيام بأي عمليات حربية، وأن كل ما بوسعه هو القيام ببعض أعمال الانتقام أو الإغارة".[92]

وكانت البرقيات العديدة التي توالت على مياني تمدحه وتثني عليه تزيد من تفاؤله. بدأت سلسلة البرقيات ببرقية من الحاكم غاريوني يعلمه فيها أنه بوصوله إلى مرزق سوف يجد أمامه الترقية الاستثنائية إلى رتبة عقيد. وتلت تلك البرقية البرقيات التي حملت تهاني العقيد غراتسيولي، رئيس المجلس العسكري في طرابلس، ورئيس هيئة أركان الجيش، الجنرال الركن ألبيرتو بوليو، ووزير المستعمرات بيرتوليني وأخيراً من كونت تورينو. ولم يكن مياني قد سبق له أبداً أن تلقى في مرة واحدة مثل تلك الإشادات والتهاني.

بيد أن محمد بن عبد الله تكفل بإيقاظه من غفلته؛ إذ كان في انتظاره على مرتفعات القرضة ومحروقة، على بعد 25 كيلومتراً من براك. وكان مياني، بعد النجاحات التي حققها في الشب وأشكدة)، وتمام الاحتلال بدون أية خسائر، وطلبات الاستسلام التي استلمها من العديد من مشايخ منقطة الشاطئ الشرقي والأوسط، مقتنعاً تماماً بأنه قد قضى على أي مقاومة. بل أكثر من هذا تشير برقياته إلى طرابلس إلى أنه كان يظن أن محمد بن عبد الله لم يكن لديه أكثر من مائة مسلح، وهو عدد صغير جداً ليس من شأنه أن يشكل أي تهديد.

لقد كان مخطئاً تماما. فقد أخذ المخبرون يأتون إليه كل يوم بمعلومات لا تنبئ مطلقاً بأي خير. فالواقع أن محمد بن عبد الله كان يتحداه بطريقة مكشوفة، بمنع مشايخ الشاطئ الغربي من

---

[89] أ.م.ل.م.، مذكرات الحرب، مرجع سابق، مج 1، ص 14.

[90] نفسه.

[91] نفسه، ص 15.

[92] نفسه، ص 16.

التوجه إلى براك، لإعلان استسلامهم. بل كان ثمة ما هو أسوأ. لقد بدأ محمد بن عبد الله يجند، سواء بالوعد أو بالوعيد، مئات من الرجال من قبائل أولاد بوسيف، والزنتان، والطوارق، والمشاشية، والغراينة ومن إدري والقوايد، بل حتى من بين المتبقين من رجال سليمان الباروني. وقد قدر المراقبون أن قوات محمد بن عبد الله لم تكن تقل عن ألفي رجل، منظمين عسكرياً تنظيماً تاما، بضباط وآمرين، معظمهم مسلحين ببنادق موزر ممتازة، والآخرون لديهم بنادق من نوع غراس (Gras) ومارتيني (Martini) وبعض البنادق من نوع ليبل (Lebel).

كان مياني يدرك أنه لن يستطيع أن يتحمل التحدي وقتاً طويلا، سواء بدافع المحافظة على الكرامة، أو بسبب أن الوقت كان يلعب لصالح الخصم. لذا قرر في 23 ديسمبر إنهاء حالة الانتظار، والذهاب لإخراج القائد المقاتل من وكره. في الساعة 12 خرج الإيطاليون من براك، بالتشكيل نفسه المكون من صفين. ولأنه اضطر أن يترك في براك حامية من 300 جندي، كان مياني يتحرك للهجوم بـ 36 ضابطاً، و29 جندياً وصف جندي إيطالياً، و978 مجنداً محلياً وإريتريا، و10 مدافع. وبصرف النظر عن القوة النارية التي كان مياني يتمتع بها، فإنه لم يكن لديه من الرجال سوى نصف العدد الذي كان لدى محمد بن عبد الله.

ومع ذلك فهذا لم يكن كل شيء؛ إذ نكتشف في هذا الموقف أننا بإزاء مياني آخر بعيد كل البعد عن الحذر، بل متهور. فقد أوكل قافلة التموين، كما ذكر هو نفسه "إلى زعماء ومسلحين من قبيلتي المقارحة والحساونة، الذين كانوا يقاتلونني في 10 و13 من الشهر. وكنت أراهن على ولائهم لنا، وكنت قررت، لو أنهم خانوني، أن أتركهم يبتعدون بالقافلة، وأن ألتفت إلى المعركة، وهي هدفي الأساسي، ثم أطاردهم بعد ذلك، إذا ما انتهت المعركة نهاية إيجابية".[93] بعد ذلك أمّر على قيادة القافلة عبد النبي بلخير، الذي كان بدوره يقاتل الإيطاليين إلى جانب سليمان الباروني، وكانت تحوم شكوك كثيرة حول مدى ولائه.

كارثة قصر بوهادي، إذن، كانت لها سابقة، واضحة ولا مراء فيها. في اليوم السابق لمعركة محروقة، كان مياني يصطحب معه حوالي مائة رجل، ممن يمكن أن ينقلبوا عليه في أي لحظة، فيسلبوا منه قافلة التموين الحيوية (مؤن وذخيرة)، وربما أيضا، كما حدث بالفعل في ذلك اليوم المأساوي في 29 أبريل 1915م، أن يوجهوا إليه نيرانهم. فماذا كان يدفع مياني للإقدام على مجازفات بهذه الخطورة، وقد كان يعد نموذجاً لدقة الحساب والفطنة؟ ليس ثمة في نظرنا إلا تفسير واحد. لقد كان ذا إيمان مطلق بحظه الحسن، وشخصيته القوية، وما يخبئه له القدر. وكجندي من جنود الملك، كان يحسب أنه يجسد شخصية مثالية، ذات سلطة لا حدود لها. وبخلاف غراتسياني،

---

[93] أ.م.ل.م.، تقرير قيادة الحملة.

الذي كان يرى نفسه وريثاً لقناصل روما في السيطرة على أفريقيا، كان مياني، الذي حصل على شرف تسميته ضابطاً في سلك التاج الإيطالي، مقتنعاً بأنه يجمع في شخصه كل فضائل العسكرية الإيطالية، ومثاليات عصر النهضة.

بعد قضاء ليلة 23 ديسمبر في قرية أقار، استأنفت قافلة مياني في فجر يوم 24 مسيرتها، وقطعت الخمسة عشر كيلومتراً التي تفصلها عن محروقة، التي جمع محمد بن عبد الله فوق مرتفعاتها كل قواته. وقد كانت هذه المواجهة في محروقة هي الحاسمة. وكان كلا الطرفين يدرك ذلك، كما كتب مياني في تقريره إلى وزير المستعمرات، قائلاً: "لقد كان محمد بن عبد الله يعرض علي خوض معركة حياة أو موت. فعلى نتائجها تتوقف بالنسبة له محافظته على سلطته، وبالنسبة لي بقاء قافلتي. فلو هزمنا لن يتمكن إلا قليل منا من العودة إلى براك، ولن يحلم أحد بالوصول إلى سوكنة، عابراً الصحراء".[94]

لقد كان لمحمد بن عبد الله كل ما يكفيه من الوقت لإعادة تحصين نفسه، سواء على المرتفعات التي تحاذي الطريق الذي تسلكه القافلة، أو في الثغرات المفتوحة المطلة على وادي الشاطئ. وقد كانت الاستعدادات الدفاعية، المصممة على شكل كماشة، ومزودة بمتاريس وحوائط بها فتحات، متينة وغير متوقعة، حتى أنها عندما بدأت المعركة في الساعة 9.35 أربكت المهاجمين إرباكاً شديداً. وبينما كان مياني يحاول، من خلال بعض المناورات الذكية، أن يحمي مقدمة القافلة وجناحها الأيمن، اللذين تعرضا لإصابات مهمة، اندفع من جوانب الوادي "عدة مجموعات من الفرسان"، في حين نزل المشاة من المتاريس كي يشاركوا في الهجوم. كان الظرف حرجاً، لكن مياني أمر على الفور بتدخل فرق المدفعية بقيادة الملازمين لوكورشو وموندييني، فتمكنت بصعوبة من صد تقدم العدو.

عندما تبين الشيخ سعد بن عامر، زعيم المقارحة، الذي كان قد زود مياني بالجمال اللازمة للحملة، في الساعة 9.47 أن الموقف يتجه لأن يكون صعبا، عرض أن يتدخل برجاله المسلحين على خط النار. شكره مياني على ذلك، ولكن نبهه إلى أنه سوف يواجه في الجانب الآخر إخوانا له من قبيلة المقارحة، وأن القتال بينهم سوف يكون قتالاً بين إخوة. وأخبره بأن الأفضل أن يحافظ على النظام في صفوف الحملة. كان هذا موقفاً مشرفاً للعقيد، لا سيما أن أي بندقية إضافية، كان من شأنها في ذلك الموقف أن يكون لها وزنها المهم. هذه الحادثة أيضاً جديرة بأن تضاف إلى سجل مياني، الذي يرفض القبول بالحلول الوسط، أو الإخلال بمبادئ الشرف.

---

[94] مشار إليه في م. أ. فيتالي، مرجع سابق، ح 66.

وبينما كان العرب يحاولون القيام بعملية التفافية للهجوم على ميمنة القافلة، ثم على ميسرتها، حمي وطيس المعركة، من خلال هجمات عديدة بحراب البنادق وبقوات الفرسان ومدافع محمولة بالأيدي على الخطوط الأمامية. وفي تقاريره إلى طرابلس وروما اعترف مياني بأن مشاة العرب وفرسانهم، كانوا، على الرغم من عواصف النار التي كانت تطلقها عليهم قطع المدفعية العشر، يتمكنون من الوصول إلى القافلة ومهاجمتها. ثم يقول: "إن العدو الشجاع كان يقاوم في المواقع المجهزة للرماة، ويوقع بقواتي خسائر كبيرة".[95]

في الساعة 12.15، أي بعد ثلاث ساعات من بدء المعارك، قدر مياني أن الموقف بات حرجاً؛ "إذ لم يتوقف العدو، وكان متحصناً بمواقعه، عن إطلاق النار على قواتنا المكشوفة، كما لو كانت في ساحة رماية".[96]

في الساعة 12.20، ولكي يخرج من هذا الوضع المستحيل، أمر بالتقدم على طول خط القتال، وبفعل ظاهرة غريبة من ظواهر السراب في الصحراء، انكشف المحاربون الذين كانوا يختفون في وادي الشاطئ للعيان؛ إذ كانت صورهم تبدو مرتفعة فوق خط الأفق على مدى البصر، ما مكن المدفعية من إنجاز مجزرة حقيقية. وإذ تعرض العدو للهزيمة، اندفع المجندون الليبيون والإريتريون بالسلاح الأبيض لإتمام احتلال وادي الشاطئ، وتسلقوا ضفته، بينما كانت معركة جهنمية تندلع حول راية الرسول الخضراء، التي استمات في الدفاع عنها حامل الراية زانيا مادي بي وغيره من الزعماء، الذين كانوا يضحون بأنفسهم لحمايتها، تحت طعنات رماح الإريتريين من الفرقة الثالثة.

وقد كان فقدان الراية إشارة إلى نهاية المعركة. انطلق المقاتلون ينسحبون، وقد تفرقوا في مجموعات صغيرة، بدون أي صلة فيما بينهم، في شتى الاتجاهات. في الساعة 13.15 أصدر مياني أوامره بالتوقف عن الملاحقة، وكان بوسعه آنذاك أن يستمتع بمشهد مذهل بالفعل. وابتهاجاً بالنصر اندفع المجندون الليبيون والإريتريون، على الرغم من الاختلافات والمسافات فيما بينهم، والضغائن القديمة التي ما زالت حية في النفوس، يهتفون باسم الملك ويتعانقون. بعد إعادة تنظيم القوات، والتزويد بالذخيرة، وبعد إخلاء القتلى والجرحى، استأنفت القافلة السير، وفي الساعة 17 تم احتلال محروقة، حيث كان الشيوخ والنساء والأطفال (إذ كان الرجال قد ولوا هاربين) في استقبالهم، ملوحين بالرايات البيضاء.

---

[95] أ.م.ل.م.، مذكرات الحرب، مرجع سابق، مج 1، ص 24.

[96] أ.م.ل.م.، تقرير قيادة الحملة.

لقد كانت خسائر العدو المؤكدة هائلة: 250 قتيلاً، بضع مئات من الجرحى. لكن الوقت لم يكن يسمح باستكشاف ميدان المعركة كله، وتحديد عدد الضحايا بدقة. وهو ما قام به في الأيام التالية أقارب الضحايا. وقد أكد هؤلاء أن الضحايا كانوا 600، وهي مذبحة لم يسبق أن سجل مثيل لها في تاريخ المنطقة. ومن بين القتلى البارزين كان زعيم الثورة محمد بن عبد الله (البوسيفي) وخمسة عشر شيخاً من قبيلة أولاد بوسيف ومن رجال الجبل، وبعض زعماء من قبائل الزوايد والحطمان والزنتان والطوارق. وخسائر الحملة أيضاً كانت كبيرة، فقد قتل الرائد دي دومينيشيس، وجرح الرائد سيرافيني، والملازمون كارارا وتيروتسي[97] وتراكيا.[98] وسجلت في صفوف المجندين الإريتريين، الذين تحملوا العبء الأكبر في المعارك، خسائر قدرت بـ 15 قتيلاً و60 جريحا، وفي صفوف الليبيين 4 قتلى و14 جريحا.

وقد ترك لنا مياني للمعركة الفاصلة في محروقة وللمعركتين السابقتين توثيقاً بالغ الأهمية بالصور الفوتوغرافية. كيف تمكن مياني من التقاط هذه الصور، بواسطة آلة ضخمة، وسط أزيز الرصاص، سيبقى ذلك لغزا، لا سيما أننا نعرف أنه لم يكن يخول لأحد مطلقاً مهمة التقاط الصور. في محروقة التقط مياني 10 صور، تمثل أولاها، وهي ملتقطة بالعدسة المكبرة، مشهداً شاملاً لميدان المعركة. وجاء في وصف هذه الصورة: "الساعة 11 على خط النار، على اليسار مجندون ليبيون. على اليمين، مدفعية لوكورشو أثناء العمل (القطعة التي على اليمين تطلق النار). في الاندفاعات إلى الأمام وصلت في تلك اللحظة إلى خط النار. الليبيون يستعدون للقيام بهجمة أخرى".[99] الصورة التالية التقطت في الساعة 12.30 تمثل الفرقة الخامسة الإريترية التي تتراجع "بعد العملية التي قامت بها على رأس الجسر".[100]

بقية الصور كرست أساساً لتصوير مظاهر الابتهاج بالنصر. أكثرها طرافة تصور مياني ومعه ضابط آخر وجندي، ملتصقين يشد بعضهم بعضاً، حول راية القيادة، التي يشير مياني إلى أنها كانت "مخترقة بثلاث رصاصات: (إحداها في الشريط الأبيض، وأخرى في الأحمر، والثالثة في الأخضر)".[101] صورة أخرى تمثل الملازم جوالينو من قاذفي القنابل، وهو يرفع خنجره إلى أعلى،

---

[97] منذ سنة 1920م أصبح أتيليو تيروتسي في قيادة فرق العمل الفاشية في ميلانو، وفي المسيرة على روما قاد فرق إقليم إميليا رومانيا. وبحكم ارتباطه بالنظام، وولائه المطلق لموسوليني، ترقى حتى تولى مناصب حكومية بالغة الأهمية. ثم انضم إلى الجمهورية الإيطالية الاشتراكية.

[98] كان روجيرو تراتشا نشطاً جدا، وكان بالغ القسوة خلال سنوات إعادة احتلال ليبيا وخلال وبعد غزو أثيوبيا. وبسبب سلوكه القاسي صنفته حكومة أديس أبابا بأنه مجرم حرب.

[99] أ.م.ل.م.، انظر الصورة رقم 94.

[100] نفسه، الصورة رقم 95.

[101] نفسه، الصورة رقم 98.

والمجندون الإريتريون يفعلون مثله ويلوحون برفع البنادق. على هذه الصورة كتب مياني: "الساعة 13.15 وصول القيادة، والراية ترفرف في الريح، الجنود ينطلقون بالتصفيق ويهتفون: "يحيا الملك، تحيا إيطاليا". مجموعة من الفرقة الثالثة من اللواء الخامس الإريتري، الذي استولى على الراية الخضراء، تقدمها للقيادة، مع خنجر حامل اللواء الذي دافع عنها بشجاعة، قبل أن يسقط قتيلا، وبعد أن جرح أربعة من المجندين بخنجره".[102] وهناك صورة أخرى حزينة: صورة جثة الرائد دومينيكو دي دومينيشيس، ممددة على سرير وملفوفة في الراية الوطنية.[103]

نحو سبها ومرزق:

بعد تشتيت العدو، مرة أخرى بدون أي مظهر من مظاهر القسوة، بالاكتفاء بالحد الأدنى من الملاحقة وتجنب القيام بأعمال انتقامية ضد سكان قرى وادي الشاطئ، الذين زودوا محمد بن عبد الله بالرجال والسلاح، بات بوسع مياني أن يكرس جهوده تماماً لتأمين استتباب الهدوء والاستقرار وإعادة النظام إلى الإقليم.

كانت الصور الأربع والعشرون التي التقطها مياني، خلال الخمسين يوماً الفاصلة بين معارك محروقة واستئناف المسيرة نحو سبها ومرزق، مخصصة أساساً لاحتفاليات التوقيع على الاستسلام. أهمها تلك التي التقطت في السهل الواقع في ضاحية محروقة، في 1 يناير 1914م. وكان مياني يضفي على هذا الاحتفال، الذي شهد استسلام كل زعماء ومشايخ الشاطئ أهمية كبرى، حتى أنه خصص له عشر صور. أكثرها دلالة تظهر مئة من المشايخ، يعتمرون جرودهم البيضاء، متحلقين في دائرة حول الراية الإيطالية وطاولة القيادة التي جلس حولها بعض الضباط. واحداً بعد الآخر كان المشايخ يقتربون من الطاولة كي يمضوا أو يختموا وثيقة الخضوع وقسم الولاء لإيطاليا.[104]

في 8 يناير اشترك مياني في براك في احتفال مهيب آخر: توزيع مكافآت التقدير للجدارة العسكرية على المجندين الإريتريين من الفرقة الخامسة. في إحدى الصور يظهر الأمباشي بركات آغا وهو يستلم ميداليتين فضيتين. وفي التعليق على هذه الصورة يذكر مياني أن المجند الإريتري "كرم سابقاً بميدالية فضية، استحقها خلال المعارك في إريتريا".[105] صور أخرى من هذه الفترة

---

[102] نفسه، الصورة رقم 100.

[103] نفسه، الصورة رقم 101.

[104] نفسه، الصورة رقم 107.

[105] نفسه، الصورة رقم 115.

تظهر إحداها شاهد القبر الذي دفن فيه الرائد دي دومينيشيس، وأخرى تظهر محطة الراديو الخاصة بالحملة مركبة على عربة، وتظهر أخرى شابين فزانيين وهما ينسجان رداء من الصوف، وتظهر أخرى البئر الرئيس في براك، وبعض الآبار الثانوية تحيط بها أشجار النخيل.

الصور السبع والخمسين الأخر التقطها مياني بين 16 فبراير وبداية ديسمبر 1914م، عندما غادر العقيد فزان نهائيا. أهمها تلك التي تصور احتلال سبها، الذي تم في 16 فبراير، واحتلال مزرق، الذي أنجز في 4 مارس، اللذين تما كلاهما بدون إطلاق أي رصاصة. تفتتح السلسلة صورة جميلة جدا: مجموعة من راكبي المهاري الليبيين، بملابسهم البيضاء، يمتطون جمالهم، يمرون بين الكثبان الرملية، التي تتوجها أشجار نخيل صغيرة الحجم، ودغل من شجر الأثل. الكلمة التي كتبها مياني على هذه الصورة كانت بليغة على نحو ملفت: "في الزلاف بين براك وسبها"،[106] ولكننا نتجه على الفور للتفكير في تلك الصفحات الخالدة، وفيلم (أتلانتيدي Atlantide) الذي استلهمه منها بيير بينوا. وكانت هذه المرة الأولى التي يلتقط فيها مياني بمصورته مشهداً لأفريقيا الأصيلة والرومانسية، وقد نجح في ذلك تماما.

وهنا سؤال يطرح نفسه بقوة: كيف كان مياني، الذي كان غارقاً تماماً في المشاكل السياسية والعسكرية والمالية والتنظيمية، يجد الوقت والهدوء وخلو البال كي يهتم بالتصوير. ولعل تفسير ذلك في أن التسلي بالتقاط الصور كان الوسيلة المثلى لديه لتخفيف التوتر الذي كان يتعرض له بين فينة وأخرى. إن من يطلع مثلنا على أوراق مياني، لا يمكن ألا يعجب من أنه لم يتعرض للانهيار تحت ثقل المهمة التي كلف بها كمفوض الحكومة من أجل احتلال فزان. وقد كان مياني بكل تأكيد أكثر هدوءً وسيطرة على مزاجه أثناء احتدام المعارك في محروقة، مما كان عليه وهو يجلس إلى منضدة عمله في براك. في هذه الحالة كانت تنهمر عليه طلبات المعونة الاقتصادية، وعرائض المشايخ من مختلف القبائل، وثرثرات كثيراً ما تكون كاذبة حول إعلان الولاء لإيطاليا، شكاوى ممن يقولون إنهم تعرضوا لاعتداءات، أخبار عن محاربين ما زالوا يحملون السلاح في مجاهل الصحراء، تقارير صحفية واستخباراتية، برقيات من روما وطرابلس وسوكنة، فلأي هذه كان عليه أن يجيب أو يرد بأكبر قدر من الاستعجال. لقد كان مياني ينظر في كل شيء بنفسه، لم يكن يفوض أحدا، كان يقرأ الأوراق ويصنفها ويضمها في مشابك، أصبحت الآن تمثل بعض الخطر بسبب ما يحدث لها من صدأ. فعلى سبيل المثال هناك حافظة تحتوي على حوالي مائة رسالة باللغة العربية، مرفقة بترجمتها إلى الإيطالية، إلى جانب المظاريف وطوابع البريد.

---

[106] نفسه، الصورة رقم 125.

كانت الرسائل في عمومها تبدأ بالعبارات التالية:

"بسم الله الرحمن الرحيم

إلى معالي السيد المحترم صاحب السيادة والفضيلة السيد العقيد مياني، متصرف لواء فزان، حفظه الله ورعاه، آمين..".

وكان مياني يحتفظ بها كلها مرتبة، بروح مهووسة بالنظام والترتيب.

إلى ذلك، كانت هناك المشاكل التي تبدو غير قابلة للحل. في 2 يناير 1914م أرسل مياني إلى حكومة طرابلس برقية يذكر فيها بأن "الفرقة الإريترية يجب أن تكون في إريتريا بحلول 15 فبراير، وأن المجندين فيها، نظراً للخدمات التي قدموها، والتضحيات التي بذلوها، يرغبون في الالتزام بنهاية العقد".[107] في 1 فبراير عاد العقيد للموضوع ليذكر بأن المجندين قاموا "بتظاهرة احتجاج على التأخر في عودتهم إلى الوطن"، وأنهم عبروا عن نيتهم عدم المشاركة في التقدم نحو مرزق.[108] بعد ذلك بأربعة أيام يشير مياني إلى قيام الإريتريين باحتجاج جديد، وعلق عليه بما يلي: "إني أرى أن من الخطر البالغ الاحتفاظ بالفرقة، سواء بسبب ما سوف يحدثه رفضهم المتكرر لطاعة الأوامر من آثار سلبية، أو بسبب انتشار عدوى تحركاتهم إلى الفرقة الليبية، إضافة إلى انتشار خبر ذلك في المنطقة من شأنه أن يثير العداء والرغبة في التمرد".[109]

وفي محاولة للضغط على الحاكم غاريوني، الذي كان يبدو أنه لا يدرك خطورة المشكلة، عمد مياني في 1 فبراير إلى توجيه الفرقة الخامسة الإريترية إلى سوكنة والساحل. ونظراً لأنه لم يتم تعويضه بعد عن الخسائر التي تكبدها في محروقة، ولم يدعم بفرقة إريترية أخرى، فقد بقي مياني في قلب فزان، على بعد ألف كيلومتر تقريباً من المتوسط، بنصف عدد الرجال الذين بدأ بهم حملته، ودون الاعتماد على أي دعم من قبل الإريتريين، الذين كانوا وحدهم القادرين على القتال حتى الموت. وكما لو أنه كان يتحدى الحاكم أو يستفزه، أرسل إليه أنه سوف يزحف إلى مزرق معتمداً على مشايخ منطقة الشاطئ، الذين لم يكن قد مر وقت بعد على هزيمتهم على يديه. كان يريد أن يثبت لأهل فزان "كيف أن الذين هزموا بالأمس، يتعاونون اليوم بإخلاص مع الحكومة".[110] لقد كانت المخاطرة كبيرة جداً، ولكن غاريوني بمماطلته ومناوراته الغامضة، لم يدع له أي خيار آخر.

---

[107] أ.م.ل.م.، مذكرات الحرب، مرجع سابق، مج 1، ص 28.

[108] نفسه، ص 46.

[109] نفسه، ص 49.

[110] نفسه، ص 53.

العلاقة بين مياني وغاريوني في الحقيقة لم تعد ودية كما كانت في وقت مضى، وعلى الرغم من أن الحاكم أبلغ مياني في 6 يناير أن "جلالة الملك وقع صباح اليوم مرسوم ترقيته"،[111] وأغدق عليه عبارات الثناء والتهنئة، فلم يمر شهر على ذلك حتى أرسل يؤنبه على طول مكوثه في براك، ويحثه على مواصلة التقدم نحو سبها ومرزق؛ ولأنه كان يرى أنه لا يستحق هذا اللوم، رد مياني بحدة قائلا: "أجد أن من واجبي أن أوضح لسيادتكم أن توقفي يرجع فقط إلى عدم تعاون الخطوط الخلفية، وليس إلى ترددي، ويمكنني أن أؤكد لسيادتكم أني لا أتردد مطلقاً أمام أي مسؤولية".[112]

في الحقيقة كان الخلل يأتي من سوكنة، وكان غاريوني يعرف ذلك جيدا، لأنه كان هو من انتزع هذه الحلقة الحيوية على خط الإمدادات من صلاحيات مياني، فقط من أجل محاباة محميه هيركولاني جادي، وربما في منظور تحقيق هدف بعيد جداً لجعل سوكنة قاعدة انطلاق لحملة جديدة لاحتلال زلة. ودون أي جدوى نجد مياني يكتب إلى طرابلس في 21 فبراير "عليّ أن ألفت نظر هذه الحكومة إلى عدم صحة ما يجري في سوكنة (...). أرجو أن تأمر الحكومة سوكنة بأن تفسر تعليماتي بطريقة أكثر دقة ووعياً وذكاء، من أجل تأمين إمكانية إنجاز العمليات في فزان وفق المنظور الذي سبق إبلاغه إلى هذه الحكومة".[113] فعلى سبيل المثال كان مياني قد طلب من سوكنة، أي من هيركولاني، تزويده بألف جمل، فلم يرسل إليه سوى ثلاثين. وكان ذلك نوعاً من السخرية.

في 16 فبراير 1914م، وبعد أن تلقى من الحاج السنوسي بركان، الذي كان يدير الشؤون العامة في مرزق، بعد رحيل الأتراك، التأكيد على أن الوضع في الإقليم هادئ، وأنه هو نفسه مستعد لإدارة البلدة باسم الحكومة الإيطالية، ترك مياني براك متجهاً إلى سبها، التي وصلها بدون أي عوائق في 25 فبراير. وبينما كانت المدافع تطلق الإحدى وعشرين إطلاقة، تم رفع الراية الإيطالية فوق أعلى مبنى في المدينة. ووسط الجدران المتهدمة في سبها، كان رجال الحملة، الذين نقص عددهم بشكل ملحوظ، واقفين وقفة الانتباه والاستعداد، في صفوف منتظمة، وأنظارهم متجهة إلى الراية التي كانت تعلو في تلك السماء الصافية. وإذا علمنا أن 90% من أولئك الذين كانوا حاضرين في هذا الاحتفال هم إما مجندون ليبيون، أو رجال شرطة فزانيون، محاربون ليبيون سابقون والآن يعملون لصالح إيطاليا، ومن ثم كان لديهم أكثر من سبب لإضمار الكراهية لتلك الراية.

---

[111] نفسه.

[112] نفسه، ص 50.

[113] نفسه، ص ص 58-59.

في اليوم التالي استأنفت القافلة، التي كانت من الضعف بحيث لم يكن بوسعها أن تترك قوة في سبها، مسيرتها. وكما يلاحظ الدكتور ريلليني "أن المنطقة التي كانوا يعبرونها كانت آمنة، ومن ثم فلم تكن القافلة تسير في شكل طابورين".[114] في 28 فبراير وصلت الحملة إلى واحة غدوّة، التي أذهلت مياني بما شاهد فيها من وسائل الري والبساتين، حتى أنه قرر قضاء الليلة فيها، من أجل التمكن من التقاط بعض الصور. بعد أن التقط صورة لإحدى السواني، وهي بئر لاستقاء الماء، كتب مياني يصفها: "الحمير تهبط في مجرى منحدر نحو الجهة المقابلة للبئر، فتشد الحبل الذي يمر على الجرارة العليا، فيرفع الدلو المصنوع من جلد الإبل. وبواسطة نظام عبقري يعتمد على رقبة مرنة، يتم قلب الدلو على جانبه المنحني، فينهمر الماء في الساقية المستخدمة في الري".[115] وبالنسبة لمغرم بالميكانيكا مثل مياني، كانت تلك التقنية، على الرغم من أنها بدائية، تتضمن بعض العناصر الكفيلة بإثارة إعجابه. وبكل تأكيد لم يكن يخطر ببال مياني، وهو يلتقط صوراً لتلك السواني ويكتب ملاحظاته عليها، أن يأتي عليه يوم، بعد الهزيمة في قصر بوهادي وإبعاده عن الجيش، ينعزل فيه في مدينة دومازو ويقضي جزءاً من حياته في ممارسة مهنة الزراعة.

في دليم، على بعد عشرة كيلومترات من مرزق، أوقف مياني سير الحملة، لأنه كان يريد أن يدخل تلك المدينة القديمة في فزان في ساعات الصباح الأولى، وبأعلى درجة من الأبهة والفخامة. في يوم 3 مارس، وفي الساعة 8.30، وبعد أن كان جنود الحملة قد نظفوا أنفسهم كما ينبغي، دخل مياني من الباب الكبير في مزرق، التي كانت غايته النهائية. وفيما يتعلق بدخول القوات واستقبال السكان لهم، نرجع إلى التعليقات التي كتبها مياني على الصور الجديدة التي خصصها لذلك الحدث، والتي لابد أن بعضها قد التقطها الدكتور ريلليني؛ إذ نشاهد مياني في مقدمتها.

مرزق، 3 مارس 1914م؛ نقرأ على الصورة الأولى: "السكان يهتفون، ورجال قوات مرزق يستعرضون أسلحتهم،[116] مكونين جناحين تتقدم بينهما قافلة فزان، تتقدمها عربة القيادة، التي ترفرف عليها الراية الإيطالية، وتتجه نحو باب المدينة".[117] التعليق على الصورة الثانية يقول: على عربة القيادة يظهر مياني ورؤساء السلطة في المدينة الذين ذهبوا لاستقباله في الصباح.

---

[114] ج. ريلليني، مرجع سابق، ص 105.

[115] أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 132.

[116] هذه الفرق كانت مكونة من بقايا المستبعدين من الجيش الصغير الذي كونه الأتراك.

[117] أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 136.

يتبعهم على صهوات الجياد ضباط ومشايخ، ثم بقية جنود القوة".[118] عندما وصل الموكب أمام باب مرزق، مياني ينزل من العربة، ويقبل الهدية التقليدية المكونة من الخبز وقطع لحم الضأن. ثم تتجه القافلة نحو القلعة، التي كانت سابقاً مقر ملوك فزان، وفي الساحة الداخلية، "بين طلقات المدفعية، وصيحات الجنود المنتظمين في صفوف، يعلن قائد الحملة، موجهاً حديثه إلى المشايخ والسكان، باسم جلالة الملك سيادة إيطاليا الكاملة وسيطرتها المباشرة والمطلقة على كل إقليم فزان".[119] وبعد العقيد مياني يأخذ الكلمة الشيخ على أفندي معروف، قاضي مرزق. وجه حديثه إلى السكان "داعياً إياهم لالتزام الطاعة والاحترام والعرفان لحكومة إيطاليا القوية، التي تحمل إليهم، إلى جانب الحرية والأمن والعدالة، الحضارة والرخاء".[120]

في الأيام التالية كان على مياني أن يواجه مهمة دقيقة: تعيين المسؤولين السياسيين والإداريين والدينيين في إقليم مرزق. وكان عليه أيضاً أن يدخل في مفاوضات مع زعماء قبائل تيبستي، وفي مقدمتهم محمد إنجيداسيم أبيل زعيم قبائل أوراغن، الذي كان يرغب في الاعتراف بسلطته سلطاناً على كل الطوارق. بعض هؤلاء الزعماء كانوا مطلوبين لدى الفرنسيين، بسبب المذابح الكثيرة التي ارتكبت في الماضي، وكانوا يأملون في حماية إيطاليا، وهو ما أكده لهم مياني، ولكن بشرط أن يتولوا هم ضمان أمن طرق القوافل في المنطقة.

خلال أوقات الراحة، كان العقيد يقوم بجولات في المدينة وضواحيها، ويلتقط بمصورته مناظر طبيعية ووجوها، كما يفعل أي سائح. ومن بين هذه المناظر، تلفت النظر صورة الشيخ سعد بن جلقم زعيم قبيلة المقارحة، وورد في التعليق عليها: "استسلم في 15 ديسمبر 1913م، بعد معركة أشكدة"،[121] والشيخ عبد النبي بلخير زعيم ورفلة، يصفه التعليق على الصورة بأنه "مساعد مخلص ووفي وذكي لقيادة الحملة"،[122] والحاج السنوسي بركان قائمقام مرزق.[123] بعد هذه الصور توقف مياني تماماً عن التقاط الصور. فتلك القلعة التي شيدها خلال أكثر من سنة، قضاها في مسيرات شاقة، ومعارك عنيفة مع العرب، ومفاوضات مضنية، كانت توشك أن تنهار فوق رأسه.

فعلى الرغم من النجاح المؤكد الذي حققه مياني، كان وزير المستعمرات في روما يشعر بالقلق أكثر من شعوره بالحماسة. فغداة محروقة –مثلاً– أرسل بيرتوليني إلى الحاكم غاريوني برقية يبلغه فيها أنه "يرى من الملائم عدم إعطاء مزيد من الدعاية للأخبار المتعلقة بالعمليات التي أنجزها

---

[118] نفسه، صورة رقم 137.

[119] نفسه، صورة رقم 143.

[120] نفسه، صورة رقم 144.

[121] نفسه، صورة رقم 160.

[122] نفسه، صور أرقام 163، 164.

[123] نفسه، صور أرقام 161، 162، 165.

مياني".[124] وهو طلب يمكن أن يفسر بطريقتين: إما أن بيرتولوني كان يخشى من ردة فعل المعارضة، التي كانت تتبنى بوضوح موقفاً معارضاً للاستعمار أو وهذا ما نميل إليه، أن بيرتولوني كانت قد بدأت تراوده شكوك قوية حول المآل النهائي لحملة فزان، التي كان قد أمر بها، ولكنه لم يستطع أن يمدها بمزيد من القوة.

وقد كانت مخاوف وزير المستعمرات تستند إلى أسباب حقيقية. فمع أن مياني كان قد حقق الهدف من الحملة بخسائر تكاد لا تذكر، بعد هجمة كانت كفيلة بأن توصف بأنها خيالية، فإن الموقف الذي وجد نفسه فيه، بعد دخوله مرزق دخول المنتصر، لم يكن يبعث مطلقاً على الاطمئنان، وذلك للدوافع التالية:

1) أن قواته، التي كانت أصلاً متواضعة، تفرقت بسبب الحاجة إلى إبقاء أجزاء منها في مواقع مختلفة، والأدهى من ذلك أنهم لم يكونوا متصلين ببعضهم البعض بوسائل اتصال مناسبة.

2) لم تكن القطعات تملك القوة الكافية التي تمكنها من مواجهة عصابات المحاربين الذين كانوا لا يزالون يحملون السلاح.

3) خط العمليات الطويل جدا، الذي كانت تمر عبره الإمدادات: سرت، بونجيم، سوكنة، أم العبيد، براك، سبها، مرزق كان في مختلف المواقع عرضة لهجمات العرب، الذين كانوا لا يزالون يسيطرون على جزء من منطقة القبلة وسرت.

4) الحركة السنوسية، التي كانت في برقة تقاتل الإيطاليين علنا، وفي طرابلس وفزان كانت تقف موقف تربص وانتظار. ولكن حتى متى؟

وعموماً، على الرغم من الغيوم التي كانت تتراكم في سماء فزان، فقد أخذت تتبلور أيضاً فكرة المضي لاحتلال واحة غات البعيدة جدا، الواقعة على الحدود مع الصحراء الجزائرية، بعد مفاوضات طويلة مع القائمقام فيها عبد القادر عيسى، ومع زعيم الطوارق في أوراغن سيدي محمد انجيداسم أبيل. في 12 أغسطس، وبينما كانت الحرب العالمية قد اندلعت في أوروبا، كان الجنرال جانيني يدخل غات، على رأس بضع مئات من الرجال. وقد تبين أن وزير الحرب غراندي كان معارضاً تماماً لهذه العملية الجديدة، وكان محقاً في ملاحظته أن النتيجة الوحيدة لها، هي إضافة خمسمائة كيلومتر أخرى على خطوط الإمداد. ولكن في وزارة المستعمرات، التي كان قد تولاها منذ وقت قليل

[124] مشار إليه في م.أ. فيتالي، مرجع سابق، ص 68.

فيرديناندو مارتيني، كانوا يرون الأمور بطريقة مختلفة، من جهة أنهم كانوا يرون أنه لم يعد من الممكن تأجيل البدء في عملية رسم الحدود بين طرابلس والصحراء الفرنسية.

وبينما كان وحده في ذلك المحيط من الرمال، دون أي وسائل اتصال، وكانت وسيلته الوحيد للتواصل هي البريد مع واحتي أوباري وغدامس البعيدتين، لم يعلم الرائد جانيني بخبر الثورة العربية الكبرى إلا في 21 ديسمبر 1914م عندما وصلته بالبريد الأوامر بالتراجع بأسرع وقت ممكن. لقد كان قرار التقدم لاحتلال غات أبعد ما يكون عن الصواب. وللعلم فقط، لم يكن يوجد في غات سوى: 1250 مجنداً محليا، 300 حيوان أليف، 3000 نخلة، 22 نبع مياه، 38 بئرا، وثمار من الكمأ، لذيذة الطعم، ولا رائحة لها، تسمى ترفاس الطوارق.

الفصل الرابع

الثورة العربية الكبرى

وكر للثعابين:

بعد استلام المسؤولين في مرزق مهامهم، ونهاية المفاوضات مع الطوارق، شرع العقيد مياني في 20 أبريل 1914م في العودة إلى سبها، التي اختارها لموقعها المتوسط مقراً لمتصرفية فزان. وطفق على الفور يعمل على تأسيس مقر يليق بالحكومة، فاختار موقعاً مرتفعاً كان قد استخدم في الماضي من قبل الرومان لينشئوا فيه قلعة ضخمة، يمكن منها الإطلال على السهل الواسع والشوارع والقرى والواحات. كما اقترح أيضاً على الحاكم غاريوني إهداء القلعة إلى الملكة مارغريتا "ملكتنا المحبوبة".[125]

ومرة أخرى، كانت تنهال على منضدة مياني كل المشاكل المترتبة على إدارة المفوضية، سلسلة لا تنتهي من الحوادث، وغير قليل من الكوارث. ومن بين العقبات التي كان عليه أن يجد لها حلاً، واجهته مشكلة كانت لها حساسية خاصة، وذلك أنها تتعلق بحالة خطرة من حالات الإخلال بالنظام. وحول هذه القصة سوف نتوقف قليلاً، لأنها تكشف لنا أي وكر للثعابين كانت البيئة العسكرية في طرابلس، في تلك السنوات. فمنذ 9 مارس نجد مياني يبرق إلى غاريوني متهماً النقيب أوتوريو ميتزيتي بخروجه عن النظام، وتغيبه عن الخدمة، ونقل وثائق مشفرة سرية، ورفضه العودة إلى طرابلس، بحجة أنه لا يأخذ أوامر إلا من الحاكم. ويختم مياني، الذي شعر قبل كل شيء بالمساس بكرامته كرجل، وكقائد للحملة، تقريره على هذا النحو: "لقد رجوت منذ شهر إبعاده فورا، والتأخر في تلبية هذا الرجاء سيجعلني مضطراً لأن أتقدم إلى سيادتكم باستقالتي من وظيفة مفوض، وأن أطلب تعيين بديل لي على الفور، والإذن لي بالعودة إلى الوطن (...). وأضيف أن من الضروري تنظيف المكان من شلة الماسونيين الرومانيين التي تؤدي، بسبب عدم اهتمامها بالمصالح الوطنية، إلى عرقلة الحملة، من أجل تحقيق طموحات شخصية موهومة".[126]

ولعل ما وصفه مياني بأنه مؤامرة لم يكن له حقيقة تلك الأبعاد المقلقة التي تحدث عنها. ولكن ما لا شك فيه أن النجاحات التي أنجزها العقيد لم تكن تعجب بعض زملائه، وأن محاولات كانت تتم، على نحو ما، لعرقلة المشاريع التي كان ينوي تنفيذها، بل بلغ الأمر في بعض الأحيان حد التشهير به. أحد الخصوم الألداء لمياني، كما سنذكر لاحقاً، كان الرائد هيركولاني جادي، الزعيم

---

[125] أ.م.ل.م.، مذكرات الحرب، مرجع سابق، مج 1، ص 63.

[126] نفسه، مج ا، ص ص 69-70.

الفعلي لسوكنة، أي أهم مركز للإمداد لكل إقليم فزان. كان مياني يتهمه بأنه أرسل إليه دقيقاً فاسداً غير صالح للاستهلاك، وأنه يمتنع عن إيصال المواد التي ترسل إليه، وأنه أوقف تزويد عائلات المجندين الليبيين الذين بقوا في سوكنة بالمؤن الغذائية، وأنه يبالغ في تضخيم الأصوات التي تتحدث عن "منشقين" مزعومين، في منطقتي القبلة وزلة، يمثلون تهديداً لخطوط الإمدادات. وقد كانت تلك الاتهامات المتكررة التي يوجهها العقيد تواجَه دائماً بالرفض من قبل الحاكم غاريوني، الذي كان يرد عليها بالتالي على سبيل المثال: "فيما يتعلق بالسياسة المتبعة في سوكنة، ترى هذه الحكومة أن من الملائم في الوقت الحاضر الامتناع عن إصدار أي حكم، من جهة أنه يبدو لي أن هذا ليس هو الوقت المناسب لإصدار مثل هذه الأحكام، ولا نراها ضرورية".[127]

شخصية أخرى كان مياني لا يثق فيها هي شخصية المقدم إميليو غراتسيولي، رئيس المكتب السياسي العسكري في طرابلس، الذي لعله كان أكثر سطوة من الحاكم نفسه. حتى غراتسيولي كان يدافع بدون تردد عن أعمال هيركولاني جادي. بيد أن ما يبدو أنه كان أكثر خطورة في نظر مياني أن غراتسيولي كان يتلقى ويروج الإشاعات التي لا أساس لها من الصحة، مثل القول بأن زعيم المتمردين محمد بن عبد الله لم يقتل في محروقة، وأنه ما زال حياً يرزق، وأنه يجمع المسلحين في منطقة أوباري.[128]

فكرة أن غراتسيولي لم يكن على علاقة جيدة مع مياني، يؤكدها الصحفي الذي أصبح فيما بعد حاكماً لإريتريا كورادو زولي، الذي ربطته بمياني صداقة حميمة خلال إحدى زياراته لفزان؛ إذ نجده يكتب في 7 أكتوبر 1914م، بعد مقابلة مع غراتسيولي "لقد حاول كثير من الضباط، الذين عادوا من فزان، إلحاق أذى شديد به، سواء في طرابلس أو في روما. وحيثما أتيح لي تتبع هذه السموم التي كانت تنتشر وتنتقل من أعماق فزان حتى العاصمة، كنت أجد أقوى مشاعر الإدانة لهذه الاتهامات الدنيئة الوقحة (...)، وأول من يستقبل هذه الإشاعات والأقاويل غراتسيولي الذي يلتقي بكل الضباط العائدين من الدواخل. (...) وقد كانت لغراتسيولي خصلة رديئة أخرى هي: أنه كان يصغي للكثير من الأقاويل، وكان يأخذ بآخر ما يبلغ مسامعه...".[129]

تشكيك غراتسيولي في قصة مقتل محمد بن عبد الله، الذي يهدف بوضوح إلى التقليل من أهمية معركة محروقة، دفع مياني إلى إرسال رسالة قوية إلى غراتسيولي، رد عليها غراتسيولي بدوره بخطاب شخصي وسري، يعكس شعوراً قوياً بالحرج: "إني أعطيك كلمة شرف كجندي بأني لم أُكِنّ لك مطلقاً إلا أعلى قدر من الاحترام والتقدير، وأني قد كرست كل ما بوسعي من جهود،

---

[127] نفسه، مج II، ص 15.

[128] نفسه، مج II، ص 47.

[129] أ.م.ل.م.، مراسلات متنوعة، رسالة مكتوبة على ورق رسمي لصحيفة (القرن)، ميلانو، مكونة من 16 صفحة.

في حدود ما تتيحه لي إمكاناتي المتواضعة، كي أكون عضداً لك في مهمتك العظيمة. إن جميع الأخطاء التي تحملني أوزارها منذ زمن، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، هي ثمرة سوء فهم جسيم، سوف يتم إيضاحه قريباً جدا، بقليل من الصبر والإرادة، وبناء على الوثائق المتعلقة بالأمر. (...) وأنا على قناعة تامة بأنك ستكون، حالما أتمكن من إيضاح سوء الفهم والعديد من المسائل الملتبسة، أول من يمد إلي يده، وأنك ستعتذر عما سببته لي من الأذى، بسبب شكوكك المتواصلة".[130] بعد ذلك بعدة أسابيع تم لقاء بين الضابطين بناء على رغبة مباشرة من الحاكم غاريوني في سبها، لكن الإيضاحات التي قدمت لمياني لم تكن كافية، فقد كان في تلك الظروف يشعر بأنه محاط بأناس لا يمكنه أن يثق بهم.

كان مياني، كما يظهر من قراءة مراسلاته الكثيفة، ذا طبع صعب. كان شكاكا، سريع التأثر، وذا ميل قوي للمبالغة في تقدير قوة شخصيته. ومع ذلك فإنه لم يكن يستحق ما تعرض له من عزلة وتجاهل، بعد كل تلك النجاحات التي حققها. تعد بالعشرات البرقيات التي أرسلها إلى غاريوني يشكو فيها من عدم كفاية الإمدادات التي ترسل إليه، إضافة إلى عشرات المرات التي عبر فيها عن احتجاجه على التأخر غير المبرر في إرسال الفرقة الإريترية. في 13 مايو أرسل إلى غاريوني البرقية التالية: "بما أن الفرق الليبية لم تتلق، بعد مغادرتها سوكنة في شهر أكتوبر، أي إمدادات ومعدات وملابس، فقد أصبحوا في حالة يرثى لها، وكأنهم شحاذون، بدون أي إمكانيات للتزود محلياً. وحتى المجندون الجدد يصلون في أسمال بالية، وكأنهم عراة تماماً، وليس من اللائق تركهم هكذا".[131] وفي هذا التقرير نفسه يذكّر مياني غاريوني بأن المدفعية المخصصة لتسليح براك، والبنادق المخصصة للمجندين، بل حتى حقائب الضباط، ما زالت محتجزة في سوكنة.

بصفته مفوض الحكومة لاحتلال فزان، كان ينبغي أن يتمتع مياني بسلطات كبيرة، لكنه في الحقيقة كان مقيداً تماماً بمزاج الحاكم غاريوني، الذي كثيراً ما كان يطلب منه إبداء رأيه، ولكنه لم يكن يعير أحكامه أي اهتمام. لننظر –مثلاً– إلى مسألة احتلال غات وزلة؛ كان مياني يرى أن الأولوية يجب أن تكون لاحتلال زلة، التي تمثل نقطة مهمة على طريق القوافل، تقع تقريباً على الحدود بين طرابلس وبرقة، وقد تجمع فيها المحاربون الذين بقوا من رجال محمد بن عبد الله ومن قبائل أخرى قادمون من جهة القبلة، ويقعون في دائرة تأثير السنوسية. أما غاريوني، فبخلاف ذلك، كان يريد الوصول إلى واحة غات البعيدة جداً، ولكنه لم يحرص على أن يوفر لمياني ما يلزمه من رجال ومعدات. وفجأة نجده يغير رأيه، ويقبل وجهة نظر مياني في التوجه لاحتلال زلة. ثم يعود

---

[130] أ.م.ل.م.، مذكرات الحرب، مرجع سابق، مج II، ص 54، بتاريخ 1 مايو 1914م.

[131] نفسه، مج II، ص ص 62-63.

ليغير رأيه في اليوم التالي، فيقترح على مياني التوجه لاحتلال واحة الفقها، على الرغم من أنها، كما يقول العقيد، كانت بعيدة جدا، ويستحيل الدفاع عنها.

في 23 أبريل 1914م، وقد أغضبته تلك الأوامر الغامضة والمتناقضة، والطلبات التي لا يستجاب لها أبدا، أرسل مياني برقية إلى غاريوني "خاصة وسرية"، تبين كيف أن العقيد كان قد بلغ أقصى ما يمكن له أن يتحمله، يقول فيها: "حيث إني أستنتج من مجموع البرقيات التي وصلتني من سيادتكم ومن سيادة رئيس المكتب السياسي العسكري، في هذه الأيام الأخيرة في سبها وفي براك، أن عملي السياسي والعسكري، وآرائي الشخصية، سواء تلك التي يطلب مني إبداؤها أو التي أبادر أنا بها، لم تعد تتوافق مع رؤية هذه الحكومة، وقبل أن يصبح بقائي في فزان مصدر إزعاج، يشرفني أن أتقدم إلى سيادتكم باستقالتي من منصب المفوض والقائد العسكري لفزان، وأطلب الإذن بالسفر في أقرب فرصة، والعودة إلى الوطن فورا".[132]

جواب غاريوني كان جاهزا؛ فبعد أن أشار إلى أن رسالة مياني قد "أدهشته بشكل مؤلم"، وأن "عدم الاستجابة لبعض مقترحاته وآرائه" إنما يرجع فقط إلى عوامل "الضرورة"، يناشد لدى مياني "مشاعره السامية وإخلاصه"، كي يحثه على "مواصلة عمله الجليل لإتمام المهمة الصعبة التي أسندت إليه، والتي قادها حتى الآن بطريقة ممتازة، حظيت بتقدير الجيش والوطن"،[133] لكن مياني كان قد بلغ حداً من خيبة الأمل والانزعاج، بحيث لم تعد تكفيه مثل هذه التعبيرات العاطفية، فرد مؤكداً أن قراره الاستقالة لا يعود إلى "مجرد عناد، بسبب عدم قبول مقترحاتي (...). فأنا أحمل روح جندي، ومعتاد على التنفيذ المخلص والدقيق للأوامر العليا"، وأكد أن ما يدفعه لتقديم الاستقالة، "سلسلة من الحوادث غير الودية"، مثل الرعاية التي وفرها غراتسيولي للنقيب ميتزيتي. ويضيف مياني "وحسب معلوماتي إن مجيئه إلى مكتبه ومناقشته حول رسالة تتضمن اتهامات مزعومة يعد خروجاً عن النظام". ولكن غراتسيولي، عِوَض أن يوقع على ميتزيتي الجزاء المناسب، وفر له الحماية، وأخر ترحيله إلى إيطاليا.[134]

سحب مياني بعد ذلك استقالته، عندما قدم له غاريوني وغراتسيولي تأكيدات أن التحقيقات بخصوص ميتزيتي كانت مستمرة "بكل حزم، ويقوم بها شخصياً الجنرال شيليانا"،[135] لكن العلاقات بين مفوض الحكومة في فزان وأجهزتها القائمة في طرابلس، كانت قد بلغت حداً من السوء لم يعد قابلاً للتدارك أو العلاج.

---

[132] نفسه، مج II، ص 51.

[133] نفسه، مج II، ص ص 51-52.

[134] نفسه، مج II، ص 52.

[135] نفسه، مج II، ص 55.

البوادر الأولى للثورة:

في مايو 1914م، وبينما كانت تتشكل هذه الخلافات الخطرة في قمة السلطة في قوات الاحتلال الإيطالية، كان النقص الشديد في الرجال الموجودين في فزان قد بلغ حداً كان كفيلاً بأن يزعج مياني بقوة، وفي الوقت نفسه ينعش الثقة لدى المحاربين العرب الذين لم يفقدوا الأمل في الانتقام لما تعرضوا له. فالواقع أن المفوض كان يرأس الإقليم كله، وهو في حجم إيطاليا، وليس لديه سوى أربع كتائب من حاملي البنادق (ثلاث إريتريات وواحدة صومالية)، وثلاثة أقسام للمدفعية موزعين بين براك وسبها ومرزق. لم يتوقف مياني عن إمطار غاريوني بالبرقيات طالباً تزويده بقوات أخرى من المجندين، ولكن إريتريا، وكانت الجهة التي تزود بأكبر عدد من المجندين، لم تعد قادرة على الاستجابة لهذا الطلب، بسبب ما كانت تتعرض له حدودها من تهديدات بالغزو من قبل أثيوبيا التي كان على رأسها ليج ياسو. هذه كانت، على الأقل، الحجة التي استند إليها وزير المستعمرات مارتيني.

لم تكن قلة الرجال الموجودين في فزان هي المشكلة، ولكن الأهم من ذلك أن القلة التي بقيت كانت معنوياتها في الحضيض. في هذا الخصوص كتب العقيد إلى غاريوني: "الآن وقد انتهت العمليات العسكرية، تنهمر عليّ طلبات العودة إلى الوطن من الضباط وصف الضباط، من جهة أن الظروف التي يعيشون فيها في منتهى الصعوبة والدقة، فإلى جانب قلة الإمكانات وتدني مستوى المعيشة، جاء خفض المرتبات والتعويضات، ناهيك عن التهديد الذي ظل قائماً بإجراء تخفيضات في العدد".[136]

ولمواجهة الحاجات الضرورية لمختلف المواقع، شرع مياني في يونيو في تجنيد متطوعين من أبناء فزان، ولما كانت أعداد المتطوعين غير كافية، أصدر أمرا، "وفق المعتاد لدى الحكومة التركية" لزيادة العدد بالمجندين. وهذا ترجم عملياً في شكل تجنيد إجباري، وهو ما يتعارض مع الالتزامات التي تعهدت بها إيطاليا في ليبيا من جهة، ومن جهة أخرى مع الحاجات الاقتصادية في المنطقة، التي لم يكن ممكناً أن تستغني عن اليد العاملة القليلة أصلاً في مجال الزراعة، خشية أن يؤدي ذلك إلى حدوث مجاعة حقيقية. ولم يكن التجنيد الإجباري لآلاف الفزازنة ضاراً باقتصاد المنطقة الضعيف أصلاً فحسب، ولكن سيتبين أنه كان خطأ سياسياً جسيما. فهو يضاف إلى الأسباب الأخرى: الترحيل، نهب الممتلكات، الإعدامات الصورية، ليؤدي في النهاية إلى إندلاع الثورة العارمة.

---

[136] نفسه، مج II، ص 60.

في هذه الأثناء كان المجاهدون يكتسبون المزيد من الشجاعة، وأخذوا يستغلون أخطاء الإيطاليين وضعفهم، للبدء في مهاجمة الطوابير العسكرية المتحركة، أو القوات المتمركزة في مواقعها. وقد كان هدفهم الأول هو خط الإمدادات الواصل بين سرت وسوكنة وبراك، ذا الأهمية الحيوية بالنسبة لفزان. في 27 فبراير هوجمت قافلة تحمل مؤناً ومعدات بالقرب من بير قطيفة، وتم الاستيلاء على كل ما فيها. وكانت الحادثة ذات دلالة خاصة بالنسبة لمياني، لأنه كان قد ترك في بير قطيفة حامية، قام هيركولاني جادي بإصدار أوامر بنقلها. في 2 أبريل هوجمت الحامية التي أعيد تشكيلها، من مجموعة كبيرة من المحاربين، ولكنها تمكنت من الصمود. ومع نهاية مايو شن المجاهدون القادمون من زلة والفقها عدة غارات بالقرب من تمسنت وأم العبيد. وفي أوائل يوليو شنوا هجوماً آخر على جنوب سوكنة، ما دفع أخيراً الحاكم غاريوني إلى اتخاذ قرار باستبدال النقيب هيركولاني جادي بالرائد جولييلموتي، الذي أبلغ في 15 يوليو عن هجوم على بير الطار.

حتى في منطقة القبلة، أي مباشرة خلف مواقع القوات الإيطالية في فزان، كان الموقف في منتهى الخطورة. خلية مهمة من أولاد بوسيف، بقيادة الزعيم الشيخ أبوبكر قرزة، تترك الإقليم لتتحول إلى منقطة سرت، التي كانت قد وصلت إليها قبائل أخرى كانت ترفض الهيمنة الإيطالية. أما فيما يتعلق بالمغاربة الذين وجدوا في صالح لاطيوش زعيماً قويا، فقد جرؤوا على مهاجمة حامية مرسى الحويجة. وفي 7 يوليو مزقوا في منطقة الوادي الأحمر تمزيقاً فرقة من الليبيين المتعاونين، بما في ذلك جميع ضباطها.

دفعت هذه المؤشرات الأولى عن الثورة، التي كانت قيادتها بكل تأكيد في الكفرة والقسطنطينية، السلطات الإيطالية للاتصال بزعماء السنوسية. وكان مياني قبل ذلك بفترة يتراسل مع السيد محمد العابد، أخي السنوسي الكبير، ومع خاله سيدي محمد علي الأشهب، وكانا كلاهما مستعدين للتعاون مع الإيطاليين لإعادة النظام إلى فزان، ولكن الحقيقة أنهما كانا يسعيان فقط لكسب الوقت، وكانا يتحينان الفرصة المناسبة لشن الهجوم.

في 28 يونيو وصل إلى مرزق، قادماً من واو الكبير البعيدة سيدي محمد علي الأشهب رفقة عدد كبير من السنوسية والطوارق. استقبله مياني بكل حفاوة وتشريف. لم يكتف فقط بجعل الجنود يستعرضون له بأسلحتهم، بل قام بنفسه بإلباسه برنساً أحمر ثمينا، مطرزاً بخيوط الفضة، هدية من الحكومة الإيطالية. خلال الاجتماعات المتتالية، التزم الزعيم السنوسي بالتعاون مع الحكومة الإيطالية من أجل إيقاف الأعمال العدوانية في كل مكان، مبرراً خطوته هذه بأنه والعديد من زعماء

العائلة السنوسية لم يعودوا على وفاق مع السيد أحمد الشريف فيما يتعلق بمواصلة الحرب ضد الإيطاليين في برقة، بل إنهم قد قرروا عزله، وربما أيضاً إبعاده من ليبيا.[137]

سوف يقال فيما بعد أن مياني قد وقع في فخ نصب له، عندما أخذ تلك القصة مأخذ الجد، وقد كانت في الحقيقة غريبة جدا، لا سيما أنها تأتي على لسان محمد علي الأشهب. لكن شهادة الصحفي كورادو زولي مراسل "القرن" الذي كان في تلك الأيام في مرزق، تفند هذا تماما. فقد أسرّ العقيد إلى زولي، وهو يعي تماماً أبعاد خطوة الزعيم السنوسي الغامضة قائلا: "إن ما لا بد أن نفعله الآن هو أن نجعلهم يصدقون أننا نصدقهم... وأننا نشتري بالذهب بضاعة دبلوماسيتهم الشرقية البائسة. ويمكنني أن أقول لك شيئاً، وهو كفيل بأن يوضح لك أكثر من أي تعليلات وشروح حقيقة ما أفكر فيه. لقد أنهيت منذ قليل كتابة تقرير إلى الحاكم، تحدثت فيه عن الاحتفال وكل الكلمات الجميلة التي ألقيت فيه، وطلبت منه أن يزودني بفرقة جيدة من الإريتريين، حتى أزحف على زلة ومرادة، وإذا أمكن أبعد من ذلك".[138]

والدليل على أن مياني كان قد فهم لعبة الزعيم السنوسي الرامية للمماطلة وكسب الوقت، نجده في رسالة بتاريخ 4 أغسطس، أرسلها إلى محمد علي الأشهب، يقول له فيها إنه لم يعد يحتمل إخلاله بالعهود التي قطعها على نفسه، وطلباته التي لا تنقطع للأعطيات والهدايا والمزايا ومرتبات شهرية ثابتة. وبلغة عسكرية واضحة ينهي مياني رسالته قائلاً: "أرجوكم ألا تزعجونا من الآن فصاعداً بطلباتكم، قبل أن تنفذوا ما ينتظر أن تقوموا به من أعمال. عندئذ فقط، لن تقصر الحكومة معكم".[139]

الواقع أن مياني كانت لديه، كما يذكر ذلك في رسالة أرسلها إلى غاريوني في 4 يوليو، فكرة "واضحة حول الطريقة المثلى لحل مشكلة برقة حلاً نهائيا".[140] شرحها في الفقرة الثامنة من التقرير المطول الذي كان قد أرسله إلى الحاكم في 28 يونيو، وهي التي لخصها للصحفي زولي بقوله: "وحيث إني علمت أن هناك فرقاً إريترية في طريقها إلى ليبيا، فإني أرى أن تنظر الحكومة في اقتراحي بأن توجه في عمليات نحو زلة، التي أرى أنه سيكون ممكنا التقدم منها نحو أوجلة وجالو، ومن ثم التحرك نحو مرادة وبرقة الجنوبية".[141]

---

[137] أ.م.ل.م.، مذكرة رقم 3، برقية رقم 2501 بتاريخ 28 يونيو 1914م، ص ص 1-14، وبرقية رقم 2503 بتاريخ 30 يونيو 1914م، ص ص 33-46. عند ترتيب برقيات مياني في مجلدي مذكرات الحرب، نسي العقيد كوزيميني أن ينسخ النصوص التي تضمنتها المذكرة الثالثة التي تغطي الفترة من 11 يونيو حتى 6 أغسطس 1914م.

[138] كورادو زولي، في فزان: ملاحظات وانطباعات عن الرحلة. منشورات ألفييري ولاكروا، ميلانو، 1926م، ص 145.

[139] مشار إليه في م.أ. فيتالي، مرجع سابق، ص 80.

[140] أ.م.ل.م.، مذكرة رقم 3، برقية رقم 2515، ص 69.

[141] نفسه، برقية رقم 2501، ص 13.

لم تكن تلك خطة متكاملة (كان يفترض أن يستكملها وزير المستعمرات، الذي كانت تتوفر لديه معلومات حول برقة لم يكن مياني يملكها)، ولكنها قد تكون الوحيدة التي كان يمكن أن تجهض الثورة العربية الكبرى، وتنقذ فزان الذي لم يكن مر على احتلاله وقت طويل. ولعل مياني كان الوحيد المؤهل تماماً لتنفيذها بنجاح، بنفس الإقدام والحزم اللذين احتل بهما فزان.

لكن المقترح رُفض على الفور سواء في طرابلس أو في روما، لأسباب لم يكن من شأنها أن تبعث على الاطمئنان. فالحقيقة أنه لم يكن ثمة أي تفاهم بين حاكمي طرابلس وبرقة والوزير مارتيني، الذي كان يتولى مهمة تنسيق العمليات بين طرابلس وبنغازي، ولم تكن له مؤهلات كافية، على الصعيد العسكري، لمواجهة قضية بذلك التعقيد. وقد تكفل غاريوني من جهته بالقضاء على المقترح ببرقية جافة تقول: "أما فيما يتعلق بالبرنامج العسكري، عليّ أن أبلغك فوراً بأن الفرق الإريترية، وإن كانت في طريقها للعودة إلى ليبيا، فإنها سوف تخصص بالكامل للعمل في برقة، ومن ثم فإذا رأيت أن من الضروري احتلال زلة، فذلك يجب أن يتم بالاعتماد على القوة المتوفرة في المستعمرة، علماً بأنه لأسباب واضحة تتعلق بالنواحي اللوجستية لن يمكن أن يتم ذلك قبل حلول الخريف القادم".[142] هذه العملية سوف تأخذ طريقها للتنفيذ بعد ذلك بخمسة عشر عاما، عندما أصبح لليبيا حاكم واحد هو المارشال بييترو بادوليو، وسوف يكون أحد منافسي مياني، هو الجنرال رودولفو غراتسياني، من ينفذها.

ثم جاء انفجار الحرب العالمية ليعطي الضربة القاضية والنهائية للوجود الإيطالي الهش في فزان. وعلى الرغم من أن إيطاليا لم تدخل الحرب إلا في مايو سنة 1915م، فإن تركيا والإمبراطوريات الوسطى كانت تعدها مشاركة في الحرب، ومن ثم كانت تبذل جهودها لتغذية الثورة في ليبيا، من خلال إنزال عسكريين ألمان ونمساويين وأتراك، إضافة إلى الأسلحة والذخيرة ومحطات الراديو، في سرت بواسطة الغواصات. في هذه الأثناء كان السنوسيون يستغلون تنظيمهم القبلي، الممتد في كل الأقاليم الليبية، ويكثفون من عمليات التجنيد والتحريض. ولم يكد يحل آخر شهر يوليو حتى أخذت ملامح الثورة تظهر في كل مكان. ففي 23 يوليو مثلاً هاجمت مجموعة من البدو المتمردين في زيدن في منطقة سرت قافلة مكونة من 500 جمل واستولوا على كل ما فيها، وفي اليوم التالي تجرأ صالح لطيوش على محاصرة الحامية الإيطالية في النوفلية. وفي 26 أغسطس هوجمت قافلة إمدادات متجهة إلى فزان، عند بئر الفاتية، وتمت إبادة كل من كان فيها.

ولكن لم يكن ثمة فقط الألمان والنمساويون والأتراك والمجاهدون الذي كانوا يعملون على تصفية المنجزات الإيطالية الأخيرة في الدواخل الليبية. دخل على الخط أيضاً الجنرال لويجي

---

[142] مشار إليه في ج. فورناري، مرجع سابق، ص 166.

كادورنا، الذي تولى في 27 يوليو 1914م منصب رئيس أركان الجيش. لقد كانت أفكاره حول الطريقة التي يجب اتباعها في ليبيا واضحة جدا. ولأنه كان يرى أن ليبيا ليس لها إلا أهمية ثانوية في الصراع الدائر، فإنه لم يكن ليقبل أن يرسل إليها ولو جندياً واحداً إضافيا، وربما فكر أصلاً في أن يأخذ منها. وقد كانت المسافة قريبة جداً بين هذه القناعة وبين اتخاذ القرار بانسحاب كل الحاميات الإيطالية في الدواخل. وهو ما قام به فعلاً في 4 نوفمبر، مدمراً بذلك كل ما حققه مياني من إنجازات.

شكوك وخصومات:

لقد تزامنت الفترة التي شهدت أقصى حد للتوسع الإيطالي في طرابلس: من طرابلس إلى غات، ومن واحات الجفرة إلى غدامس، مع فترة شهدت الكثير من الشكوك. في أغسطس اشتعلت ثلاث بؤر للثورة: في فزان، في القبلة، وفي سرت. وفي محاولة لاستعادة هذا الإقليم الأخير قررت الحكومة الإيطالية القيام بعمل يائس، وهو إطلاق سراح أفراد عائلة سيف النصر، بهدف تكليفهم بالقيام بمحاولة للتهدئة. ولكن ذلك كان هو الخطأ الجسيم ذاته. فكما يلاحظ كورادو زولي: "لقد كان من العبث الرهان على أن أناساً ذوي عزة واستقلالية مثل آل سيف النصر يمكن أن يكونوا قد نسوا ما لحق بهم من إهانة باعتقالهم وسجنهم ونفيهم، فيكونون على استعداد للترحيب بمثل هذا الغفران المتأخر، الذي كان من السهل تفسيره وفهمه، على حقيقته، بأنه ليس إلا دليلاً على الضعف".[143] وكانت ثمة إشارة أخرى إلى هذا الضعف تمثلت في دخول حكومة طرابلس في مفاوضات مع صالح لطيوش لفك الحصار عن حامية النوفلية. وهكذا لم تعد تراود العرب أي شكوك، الإيطاليون باتوا على حالة من الضعف، وتحولوا في كل مكان إلى حالة الدفاع، مترددين وخائفين. لقد حانت إذن اللحظة المناسبة للتحرك في كل الأراضي الليبية.

في 3 أغسطس، أرسل العقيد مياني، من واحة أوباري التي ذهب إليها لمرافقة الرائد جانيني، الذي كان مكلفاً بالإقامة في غات، برقية إلى حكومة طرابلس توثق لنا بدقة طبيعة الموقف اليائس الذي بات عليه أن يتحرك فيه. بما كان لديه من قوة تتكون من 1255 رجلا، بمن فيهم المجندون غير المدربين الذين تم تجنيدهم في حملة فزان، مزودين باثني عشر مدفعاً وعشرة رشاشات، وخمس سرايا من راكبي الجمال، لم يكن مطلقاً قادراً على أن يواجه في منطقة الشاطئ "آلاف البنادق الحربية التي ما زالت توجد فيها". وقد اشتكى أيضاً من "ضعف الحالة المعنوية للقوات" في سبها وأم العبيد ومرزق. ففي هذه المنطقة الأخيرة لم يكن يوجد سوى "المجندين الجدد غير المدربين

[143] س, زولي، مرجع سابق، ص 295.

وبعضهم غير مسلحين بسبب عدم وجود بنادق كافية". وكي يستطيع أن "يواجه موقفاً بات مقلقاً جداً" طلب مياني على الأقل إرسال الفرقة الإريترية التي تعسكر في واحة القريات،[144] ولكن لم يُستَجَب حتى لطلبه هذا.

ويجدر بنا في الحقيقة أن نشير إلى أن الحاكم غاريوني طلب أكثر من مرة من الوزارات المختصة أن يحولوا إلى طرابلس بعض الفرق الإريترية، ولكن دون جدوى. من جهته كان مياني، الذي بات يشعر بكثير من القلق بسبب العزلة التي كان يجد نفسه فيها، وبكثير من الغضب لعدم تلبية ما كان يطلبه، يجهد نفسه للاقتناع بحسن نوايا الحاكم، وكانت تفلت منه في بعض الأحيان، خلال تقاريره التي كان يوجهها إليه، بعض العبارات الجارحة. في 5 أغسطس لم يفت الجنرال غاريوني أن يعبر في البرقية رقم 3169 التي أرسلها إلى مياني عن موقفه قائلاً: "على الرغم من رغبتي في التساهل مع سيادتكم، إذ عبرتُ وجعلت آخرين يعبرون عن تقديرنا لإنجازاتكم، فإنكم ما زلتم تواصلون إطلاق التصريحات التي تتجاوز أحياناً الحد المقبول من اللياقة. وإني أرجوك بقوة أن تتجنب هذا التكرار المستمر للتعبير عن إلقاء اللوم على ما حدث في الماضي على الآخرين، لا سيما على أشخاص تجد تجاههم مشاعر غير مبررة من الغضب، في حين أن سيادتكم لا تملكون كل المعطيات اللازمة للحكم عليهم. وإذا كنتم سيادتكم قد وجدتم أو تجدون أنفسكم تواجهون صعوبات كبيرة، فإن الآخرين، بما فيهم هذه الحكومة، قد وجدوا أنفسهم ولا يزالون يواجهون صعوبات كبيرة".[145]

لقد كانت نغمة اللوم قوية بما يكفي كي تمثل بالنسبة لمياني قطيعة فعلية واضحة. ولكن ما وجده مياني فعلاً غير مقبول، لدرجة أنه دفعه لتجديد التعبير عن رغبته في الاستقالة، عبارة وردت في البرقية المشار إليها تقول: "إذا ما أصبح الموقف في فزان خطرا، كما تتوقع سيادتكم، أرجوكم، بدلاً من تشتيت القوات، أن تنظروا في ما إذا كان من الملائم أن تجمعوها في براك، عاصمة الشاطئ، وهو الإقليم الوحيد في فزان الذي ما زال طرفاً في الحرب، ويقع على طريق القوافل القادمة من منطقة القبلة، ومنها يمكن إرسال راكبي الجمال، الذين يمكن أن أزودكم بالمزيد منهم إذا لزم الأمر، إلى المواقع الأخرى، التي يجب أن نشعر فيها العدو بوجودنا، والذين سيكونون تحت إمرة زعماء موثوق فيهم إلى جانب جنود محليين".[146]

بعبارة أخرى كان الحاكم غاريوني يقترح على مياني الانسحاب من أكثر من نصف فزان، وتسليم هذه المساحة الهائلة من الأراضي لزعماء محليين، لم يثبت مطلقاً من قبل مدى ولائهم

---

[144] أ.م.ل.م.، مذكرة رقم 3، برقية رقم 2674، ص ص 139-135.

[145] أ.م.ل.م.، مذكرات الحرب، مرجع سابق، مج II، ص 71.

[146] نفسه.

وإخلاصهم. ومع أن هذه الفكرة تقدم بها غاريوني باعتبارها افتراضاً قد يلجأ إليه عند اليأس من أي حل آخر، إلا أنها وجدت على الفور ترحيباً تاماً في إيطاليا، حيث كان كادورنا قد أشار في 7 أغسطس على وزير المستعمرات أن "من الملائم خفض القوات المتمركزة في الحاميات الموجودة على الساحل، والاحتفاظ فقط بما يوجد منها في المواقع الرئيسة"،[147] فما بالك بالحاميات في الدواخل.

ولأنه كان، على الأقل في البداية، يشترك مع السلطات العسكرية فيما يجدونه من مخاوف، طلب وزير المستعمرات من غاريوني إعداد خطة لسحب القوات والمعدات من الدواخل. بيد أن هذه الخطة لم تبلغ حتى مرحلة المسودة الأولى؛ إذ استُدْعِي غاريوني إلى روما للتشاور، ولم يعد بعد ذلك أبداً إلى طرابلس، بعد أن عين محله الجنرال لويجي شيليانا. هذا الأخير، حال استلامه مهامه، جدد إصدار الأوامر لمياني "بتركيز احتلالنا العسكري الفعلي فقط على خط الشاطئ بين براك وإدري".[148]

وجد مياني نفسه، وقد أقلقته وأثارته خطة غاريوني، التي تبناها شيليانا، والتي لم يطلع عليها لأكثر من شهر، أنه لم يترك له أي خيار سوى أن يتقدم باستقالته للمرة الثالثة، في برقية جاء فيها: "أرجو من سيادتكم الموافقة على عودتي فوراً إلى الوطن، التي تفرضها علي أسباب أخلاقية لا يمكن تجاهلها، إضافة إلى ظروفي الصحية الحرجة، بسبب عدم انتظام نبضات القلب، التي تستدعي، لمن هو في مثل سني، عناية طبية، وفترة راحة تامة". ويختم البرقية بعبارة سخرية واضحة يقول: "من أجل التنفيذ الفوري للخطة، أسمح لنفسي بأن أطلب من سيادتكم أن ترسلوا فوراً إلى فزان الملازم غراتسيولي، وهو الشخص الوحيد، من جهة أني أعرفه معرفة مباشرة، القادر على تنفيذها بطريقة دقيقة وفورية".[149] وهكذا يكون مياني قد قدم خدمة لصديقة اللدود غراتسيولي.

وفي تقرير لاحق بتاريخ 2 أكتوبر يقدم العقيد مبررات أوفى لاستقالته التي لا تراجع عنها، فيقول: "إضافة إلى هذا التنكر لكل ما قمت به، منذ البداية حتى هذا اليوم، من عمل لإخضاع إقليم فزان وتنظيمه وإدارته، وهو ما يدل عليه بوضوح تجاهلي تماما، اتخاذ الحكومة قرارات مهمة تتناقض مع ذلك، تكلفني الحكومة أنا بالذات بتنفيذها، وتفرض علي تدمير كل ما بنيته، والتنكر لذلك أمام السكان المحليين".[150]

---

[147] ل. كادورنا، مرجع سابق، ص 58.

[148] أ.م.ل.م.، مذكرات الحرب، مرجع سابق، مج II، ص 73.

[149] نفسه، مج II، ص 74.

[150] نفسه، مج II، ص 78.

كان لدى مياني أكثر من سبب لاتخاذ هذا الموقف، لكن رفضه تنفيذ الأوامر العليا من شأنه أن يعرضه لإجراءات تأديبية. وعلى كل حال الوزير مارتيني لم يطلب ذلك، بل على العكس، فقد كان برفضه استقالة مياني يضرب عرض الحائط بخطة غاريوني، في حين يقبل تلك المقترحة من مياني، التي لم تكن في حقيقة الأمر قابلة للتنفيذ. كانت خطة المفوض تقترح في الواقع الاحتفاظ باحتلال فزان كله، اعتماداً على قوات مجندة محلياً وبقيادة ضباط إيطاليين. واقترح مياني إضافة إلى ذلك اختيار سبها، لا براك، مركزاً للدفاع، لأن القلعة الواقعة على المرتفع (القاهرة)، والتي كانت قيد الإنشاء، تتيح "للقوات القدرة على مقاومة طويلة، في مواجهة قوات أكثر منها عدداً، حتى في منظور حدوث تمرد عام".[151]

وعلى الرغم من أن جهود مياني لتجنيد الفزازنة لم تسفر إلا عن عدد قليل من الرجال، معظمهم لا يوحون بأي قدر من الثقة، فإن خطته التي كان يبذل جهده لتنفيذها كان يمكن أن تبلغ غايتها لو أنه فقط حصل على مهلة ستة أشهر. لكن الوقت كان يضغط، وقد اعترف مياني بذلك في تقرير بتاريخ 11 أكتوبر جاء فيه: "إن توجهنا لتركيز قواتنا من الإريتريين في براك ومرزق، تحت شعار حماية سمعتنا وتأمين أمن الضباط، يجعلني لا أستطيع ضمان النظام وطاعة السكان، الذين يمكن أن يحل محل تأثيرنا عليهم، تأثير السنوسيين، فيدفعونهم نحو الثورة".[152]

بعبارة أخرى لقد اعترف المفوض نفسه بضعف خطته الشديد، وكرر مرة أخرى طلب إرسال الجنود الإريتريين الذين ظل يحلم بهم، وكانوا دائماً يمثلون ما يشبه النجدة من السماء. لقد كان مصمماً على الدفاع بأسنانه وأظافره عن الأرض التي احتلها خلال تلك العملية البارعة والبالغة السهولة في حملة سنة 1913م، ولكن لعله لم يكن مدركاً حجم الأخطار التي كانت تحدق به. بيد أن المفوض لإدارة فزان لم يكن وحده من أصيب بهذا العمى عن رؤية الحقائق، فكما لاحظ فيتالي بحق "لا السلطات المركزية، ولا حكومة المستعمرة، كانت لديهم الجرأة لاتخاذ قرارات حاسمة حول ما كان ينبغي فعله، فكل طرف كان، في خضم تلك الحالة من التردد، ينتظر أن يقوم طرف آخر بالمبادرة".[153]

---

[151] نفسه، مج II، ص ص 75-76.

[152] نفسه، مج II، ص 83.

[153] م. أ. فيتالي، مرجع سابق، ص 93.

الفصل الخامس

الانسحاب من فزان

أوائل الانكسارات:

تميز الشهران الأخيران للوجود الإيطالي في فزان بالتردد، ومراجعة الأفكار، وبخلاف متفاقم بين الحاكم بالوكالة شيليانا والمفوض مياني. وبلغ الحوار بين الإثنين مستوى غير معقول من حوار الطرشان. ففي حين ظل مياني يطالب بتزويده بذلك الفيلق الإريتري الأسطوري، كان شيليانا يرد عليه، تارة بتقديم الوعود، وتارة أخرى بالرفض. كان مياني يرد على ذلك دائماً بتأكيد رغبته وحاجته الماسة لمغادرة أفريقيا، بعد أن قضى في صحرائها عاماً بالغ الصعوبة، وكان الآخر يدعوه إلى تقديم المزيد من التضحيات، ويعيد تأكيد ثقته في "عمله الجاد والفعال". كان مياني يبالغ في الحديث عن الأهمية الاستراتيجية لقلعة سبها، كما لو أنها أصبحت تيرموبيلي (Termopili) جديدة، وكان شيليانا يدعوه إلى التراجع نحو سوكنة، وإذا لزم الأمر التخلي عنها أيضا".[154] وفي محاولة لتضميد جروح العقيد، أخذ شيليانا يحدثه عن أنه طلب من روما "أن ترسل بسرعة أربع فرق من الإيطاليين. وهو ما من شأنه أن يكون له تأثير كبير على الروح المعنوية للمجندين في المستعمرة".[155] ولكن كذبة كهذه لم يكن لها على معنويات مياني سوى أثر مثبط للعزيمة.

وبينما كان الضابطان يتبادلان هذا الحوار المقلق والمتناقض، كان المجاهدون يتجمعون حول زعماء قدامى وجدد، يستخرجون أسلحتهم من المخابئ التي كانوا يخبؤونها فيها، ويستعدون للانتفاضة العامة. أما فيما يتعلق بمياني فلا يمكن القول إنه كان غافلاً عن خطورة الموقف. في 16 أكتوبر –على سبيل المثال– وجه انتقادات قوية لحكومة طرابلس، التي تلغي الوظائف، وترفض إرسال الضباط الضروريين، بل إنها تبقي في طرابلس حتى أولئك الذين أنهوا إجازاتهم، "حتى أنه يمكن القول إنه لم يعد ثمة قسم، لا في سلاح المشاة ولا في المدفعية، يتمتع بالكفاءة المطلوبة".[156] في 24 أكتوبر عاد لتناول الموضوع قائلا: "ينقصنا ضباط مدفعية لمرزق وبراك. فالحكومة لم ترسل القطع التي وعدت بإرسالها إلى براك، ومن ثم فالنتيجة أن أقسام المدفعية، سواء الثابتة أو المتحركة، ليست في وضعية مناسبة للعمل".[157] ومن أجل التمكن من القيام بأي مناورة، سواء للهجوم أو للتراجع، يلزمنا المزيد من الجمال والوقود للعربات. وكان مياني يشكو من النقص التام

---

[154] أ.م.ل.م.، مذكرات الحرب، مرجع سابق، مج II، ص 90.

[155] نفسه، ص 91.

[156] نفسه، ص 84.

[157] نفسه، ص 87.

في هذين العنصرين، ما يعني أن جسم الحملة في فزان لم يعد صالحاً للعمل، وبات تماماً تحت رحمة العدو.

وقد كان الأسوأ هو حالة العجز عن اتخاذ القرار، التي باتت واضحة من خلال عدم تحمل المسؤولية. كان الحاكم بالوكالة شيليانا قد أصدر أوامر لمياني، منذ 13 سبتمبر، بأن يجمع كل القوات في براك، وفي رسالة مستعجلة بتاريخ 8 نوفمبر بلغ حد اقتراح التخلي التام عن فزان كلها؛ إذ "كان من المستحيل انتظار وصول إمدادات لا من إيطاليا ولا من إريتريا".[158] ولم يمر يومان حتى وجدناه يتراجع عن موقفه هذا، فيقول: "فيما يتعلق بالانسحاب الجزئي أو التام من فزان، أنا لم أطلب سوى أن تقوموا سيادتكم بدراسة إمكانية تنفيذه، على نحو وقائي، وأنا في انتظار رأيكم الموقر بالخصوص".[159]

وفي نغمة يشوبها الغضب والسخرية يرد مياني على الفور: "أعتقد أن قرار التخلي عن فزان، الذي كان يجب أن يتخذ من مدة، حتى يمكن تنفيذ الانسحاب من المواقع، يرجع البت فيه إلى سلطة أعلى من سلطة مجرد مفوض، ويدخل في اختصاص هذه الحكومة والحكومة المركزية، اللتين يجب أن تصدرا الأوامر بذلك، وأن توفرا الوسائل لتنفيذه. إن القائد العسكري للقوات الموجودة في فزان لا يستطيع أن يبادر بنفسه بالتخلي عنه، ما لم يكن مضطراً إلى ذلك تحت ضغط قوى معادية أكبر من القدرات المتاحة له، وبعد أن يكون قد استخدم كل الوسائل الممكنة للحفاظ على السيادة".[160]

وقد كان المفوض على حالة من الانزعاج والتذمر من تردد الحاكم وتناقضاته، حتى أنه عاد لتناول الموضوع في اليوم التالي، ولكن بشحنة مضاعفة من السخرية: "إشارة إلى وجود أوامر من سيادتكم على هذا القدر من التحديد، فإني مندهش من البرقية المؤرخة في 8 نوفمبر، التي تشير إلى أنكم طلبتم فقط تقديراً للموقف، وأنكم لم تكونوا قد أصدرتم أوامر للتنفيذ. وما يدهشني أكثر تأكيدكم الأخير "بأنكم لا تجدون من الملِحّ اتخاذ أية إجراءات، بناء على آخر ما وصلكم مني من أخبار، التي كانت تطلب من سيادتكم مراراً وتكراراً أن ترسلوا على الفور قوات، سواء من أجل قمع أعمال التمرد، أو من أجل تنفيذ الانسحاب من فزان".[161] هنا يمكن أن نفهم مدى ما كان يشعر به مياني من مرارة وغيظ أمام مثل تلك الحالة من الضعف والعجز. لقد كان العقيد، بقوة لا تزيد إلا قليلاً على ألف رجل وبضعة مدافع، قد تمكن من استكمال العمل الذي بدأه الجنرال كانيفا،

---

[158] نفسه، ص 91.

[159] نفسه، ص 93.

[160] نفسه، ص 92.

[161] نفسه، ص 94.

الذي كانت لديه قوة تتكون من مائة ألف رجل، وأسطول ضخم، وعشرات من الطائرات. والآن، بسبب نقص الإمدادات، وعدم وجود سياسة ثابتة، يطلب منه أن يتخلى عن كل شيء: عن المكتسبات وعن الكرامة، والأدهى من ذلك يطلب منه أن ينسحب من فزان بأسرع ما يمكن، أي أن يلوذ بالفرار.

في 14 نوفمبر، أخبر الجنرال شيليانا مياني أخيراً أن الفرقة 15 الإريترية قد بدأت تحركها من مصراته نحو الداخل، وأن قافلة من العربات تستعد للانطلاق، بقيادة الرائد موسييه. بواسطة هذه القافلة تمكن مياني من بلوغ الساحل، كي يستقل السفينة نحو إيطاليا، تاركاً قيادة القوات الموجودة في فزان للرائد موسييه. وقد كان وصول الإمدادات، على الرغم من أنها كانت ضئيلة، من شأنه أن يحسن الموقف في الإقليم، لو أنها وصلت قبل ذلك، لكن شيليانا كان يحذر من أنها لن تستطيع الوصول إلى سبها قبل منتصف ديسمبر. وكان ذلك متأخراً جداً في منظور ردع الثورة. بل إنه كان متأخراً جداً أيضاً حتى لإنقاذ الحاميتين في سبها وأوباري من الإبادة.

في منتصف نوفمبر، كان مياني قد أبلغ حكومة طرابلس أن الموقف يزداد خطورة "في منطقة الشاطئ، بطريقة متسارعة". فقد كانت قبائل المقارحة والحطمان والقوايد والزوايد في حالة تهيؤ. هاجمت مجموعة من المتمردين قافلة حكومية في منطقة ونزريك. ولكي "يواجه الموقف بقوة" جهز مياني بسرعة قافلة من 700 مجند نظامي و50 غير نظامي، وانطلق في 16 نوفمبر متجهاً إلى الشاطئ الغربي،[162] لكنه لم يبتعد كثيرا. فحالما وصل إلى محروقة والقرضة، اكتشف أن القريتين كانتا مهجورتين وأن الفلاحين المسلحين كانوا قد اتخذوا مخبأ لهم في منخفض الزلاف، حيث تتوالى غابات النخيل مع كثبان الرمال المتحركة. وهي أرض ملائمة جداً لنصب الكمائن، ولكنها لا تلائم حركة القوات النظامية واستخدام المدفعية. كان إقليم الزلاف، للأسباب التي سبق ذكرها آنفاً، يجعل قافلة مياني في وضع سيئ للغاية،[163] ومن ثم فبعد أن قضى أربعة أيام ينتظر عبثاً أن يظهر المجاهدون من مخابئهم، وأن يقبلوا القتال في أرض مفتوحة، قدّر أنه سيكون "من غير المجدي، والمكلف جدا، مواصلة البقاء في القرضة"،[164] فتراجع في 22 نوفمبر إلى أقار، وبعد ذلك بيومين عاد إلى براك، ومنها أبرق لشيليانا كي يعجل بإرسال الفرقة 15 الإريترية، وهي القوة الوحيدة التي كان يمكن أن تكون قادرة على إعادة النظام إلى الشاطئ. لكن الفرقة 15 الإريترية كانت لا تزال في إقليم سوكنة، وكان الموقف في الشاطئ على وشك الانهيار.

---

[162] نفسه، ص 98.

[163] نفسه، ص 102.

[164] نفسه، ص 104.

مجزرتا سبها وأوباري:

بينما كان مياني يقود حملته غير المجدية في منطقة الشاطئ الغربي، منتزعاً قوات من حاميتي سبها وبراك، وهو ما جعله مرغماً ينجر إلى ما يريده العدو، كان مدبر الثورة العربية محمد المهدي السني، زعيم بيت من أهم بيوت قبيلة اولاد بوسيف، يجهز خطته لقلب الموقف في الإقليم. وعلى النقيض من محمد بن عبد الله، الذي كان يقبل، بما يشبه روح الفروسية، مواجهة الإيطاليين في ميادين مفتوحة للمعارك، لم يكن لديه أي أمل في أن يخرج منها إلا مهزوما، كان محمد المهدي السني، على العكس من ذلك، يركز على القيام بعمليات حرب عصابات صاعقة، كان الليبيون أساتذة فيها على أعلى مستوى. ومع ذلك فحسب شهادة الملازم بيترينياني، الذي وقع أسيراً لدى محمد السني، لم يكن هذا يحمل أي صفة من صفات المقاتل القوي. كان "شخصاً أقل من عادي، ذا بشرة سمراء، في الخامسة والأربعين من عمره، برداء أبيض ناصع، وسترة صفراء فاقعة، وبنطال أزرق، ذا وجه مبتسم، وعينين براقتين، وصوت أجش، وأسنان ناصعة البياض".[165] وباختصار له ملامح تاجر في السوق، لا مقاتل في ميدان الحرب.

بعد أن علم محمد المهدي السني، عن طريق جندي ممتاز ليبي منشق عن الإيطاليين، أن قلعة القاهرة في سبها لم يتم استكمال بنائها بعد، وأن رجال الحامية كانوا يقيمون في مساكن مؤقتة عند أسفل المرتفع، بدلاً من الإقامة في الحصن الموجود في القمة، أرسل في 27 نوفمبر أربعة رجال من ضباطه هم: سالم عبد النبي ومحمد دهموس وعلي الشنطة وسالم دنة لمهاجمة مقر الحكومة في فزان. كان هذا المقر بقيادة النقيب ميليوريني، ويوجد به 8 ضباط، و6 صف ضباط، و73 جندياً إيطاليا، و19 مجنداً إريتريا، و9 ليبيين من مجندي منطقة الساحل، و68 مجنداً من فزان، مجهزين إلى جانب الأسلحة الشخصية بمدفعين عيار 70، و4 بنادق رشاشة. ولعل هذا كان أكثر من كاف لضمان صمود قلعة الملكة إلينا، لو أن القلعة كانت قد تم بناؤها وتجهزت للدفاع.

في ليلة 27 نوفمبر صعد حوالي مائة من المجاهدين، دون أي عائق، إلى القلعة، وسيطروا عليها، بكل ما كان مخزناً فيها من مؤن غذائية ومياه وذخيرة. ولم ينتبه الإيطاليون إلى المهزلة إلا في الساعة 4.10. الملازم ثان إنريكو بيترينياني، الذي نجا من المجزرة، ولكن لم ينج من الأسر، وصف ما حدث قائلا: "كان المتمردون قد سيطروا على القلعة، التي كان ينبغي أن نكون نحن فيها، ومنها كان بوسعنا أن نصدهم حتى برميهم بالحجارة، لأن الموقع، لو تم التمسك به، كان غير قابل للسقوط. شراذم السنوسيين احتلوا أماكننا، وقاموا بالضبط بما كان يفترض أن تقوم به

[165] إنريكو بيترينياني، في الصحراء الطرابلسية، نقابة الفنون المطبعية، روما، 1928م، ص 371.

القوات الموجودة في القاهرة. مجرد تذكر تلك اللحظات، التي كانت المليئة بالألم والهلع والغضب ومشحونة بالأسف الشديد لتلك الحالة من انعدام الرؤية، المستندة إلى تفاؤل أجوف، وإدعاءات جوفاء من الشجاعة المزعومة، ما زالت تؤلمني حتى اليوم".[166]

وبعد محاولات عديدة متكررة للهجوم على القلعة من أجل استعادتها، وقع الرائد ميليوريني وأربعة من الضباط و5 من ضباط الصف، و12 عريفاً وجندياً إيطاليا، و2 من عمال البريد، و9 من المجندين الإريتريين قتلى. من تمكنوا من الفرار، وصلوا وهم في حالة يرثى لها، بدنياً ومعنويا، إلى براك في ظهيرة يوم 30 نوفمبر. وقد وصف العقيد مياني الكارثة، التي علم بها بعد يومين من وقوعها، بقوله: "بلغني في هذه اللحظة، الساعة 17، الخبر الذي حمله لنا شرطيان، بأن مجموعة كبيرة من المتمردين هاجمت رجال الحامية في القاهرة وهم نيام، واحتلت قمتها، وأنه حدث قتال قصير، سمعت خلاله بعض إطلاقات من بنادق رشاشة ومدفعية، ثم خيم صمت تام".[167] وحتى ظهر يوم 28 لم يكن بوسع مياني أن يعرف حقيقة المذبحة. لن يعرف شيئاً عنها إلا بعد وصول من نجا منها.

عند البرقية (16 سري جداً) التي أرسلها في 28 نوفمبر 1914م توقف مياني عن نسخ مراسلاته إلى حكومة طرابلس ومراسلاتها إليه في مذكراته. لن نستطيع أن نعرف السبب في ذلك. ربما يرجع ذلك إلى أن مياني لم يعد يجد الوقت، وهو بصدد الانسحاب، لممارسة هذا الشكل من التوثيق الشخصي. وهذا يحرمنا من معلومات في غاية الأهمية. ومن المستبعد أن تكون كراسة من المذكرات قد ضاعت، لأن آخر كراسة تنتهي عند الصفحة 132، وكانت هناك بعدها أكثر من مائة صفحة.

لقد مثل سقوط سبها ضربة قاصمة بالنسبة لمياني. بعد ذلك بشهرين كتب في مذكرة أرسلها إلى الحاكم الجديد في طرابلس الجنرال لويجي درويتي: "لقد كانت القاهرة تمثل بالنسبة لي قاعدة العمليات ومقر الحكومة في فزان. وفي حالة عدم القدرة على التمسك ببراك، يكون بوسعي الانسحاب إلى القاهرة، حيث أستطيع التحصن فيها انتظاراً لوصول قافلة النجدة. ففي القاهرة كان يوجد كل مخزوني الاحتياطي من الغذاء والسلاح والذخيرة ومختلف المعدات، وكان يلزم لنقل ذلك المخزون لإخلاء القاهرة أكثر من ألف جمل".[168]

لكن المنغصات والمكدرات بالنسبة لمياني لم تتوقف عند هذا الحد. في الليلة نفسها التي سيطر فيها السنوسيون على القاهرة في سبها، هاجم السكان بقيادة التارقي محمد كوسين حامية أوباري،

---

[166] نفسه، ص 344.

[167] أ.م.ل.م.، مذكرات الحرب، مرجع سابق، مج II، ص 106.

[168] أ.ت.و.أ.إ، ليبيا، مجموعة 2/123، ملف 12، ص 8.

التي كانت قد تحصنت داخل القلعة التركية القديمة. قاومت الحامية، بقيادة الملازم كوتيكا، بشجاعة لبضعة أيام، ولكنها، بعد نفاذ مخزونها من الغذاء والذخيرة، تعرضت للهزيمة.

وكما قلنا كان مدبر الهجومين على سبها وأوباري محمد المهدي السني، المبعوث إلى فزان من قبل السنوسي الكبير، لقيادة الثورة فيها. وعلى الرغم من مظهره الذي يوحي بأنه مجرد تاجر منعم، فإنه كان مقاتلاً صلبا، وكان هو الذي انتصر على مياني. في 14 ديسمبر، وبعد انتهاء العمليات في الشاطئ، وفي انتظار التحرك إلى القبلة، ومنها إلى الجبل، كي يواصل القتال، أرسل محمد المهدي السني رسالة إلى مجموعة من الإخوان السنوسية كانت تحتوي خبر الانتصار الباهر: "نفيدكم بأننا تمكنا بعون الله من احتلال فزان، حيث دمرنا ثلاث معسكرات واستولينا على مدفعين كبيرين وخمس بنادق رشاشة. (...) وإننا ننصح بأن تظلوا يقظين، لقطع الطريق أمام الكفار".[169]

لم يكن مياني يشعر بالغضب والمهانة بسبب الهزيمتين اللتين تعرض لهما وفقدانه العديد من الرجال فحسب، بل كان يشعر بذلك أيضاً لأنه يجد نفسها عاجزاً تماماً عن التحرك من براك. ومع أنه كان لا يزال لديه تحت قيادته أكثر من ألف جندي، بين إيطاليين وإريتريين وليبيين، إلا أنه كان بحاجة إلى الجمال كي يتمكن من الحركة والقتال، في حين كان السنوسيون يضيقون عليه الخناق من جميع الجهات. بل لم يكن بوسعه حتى أن يهرع إلى سبها، ولو كان ذلك فقط لدفن الموتى والانتقام لهم. كما أنه لم يكن بوسعه أن يهب لنجدة أوباري التي كانت لا تزال تقاوم. ومن باب أولى لم يكن بوسعه، نظراً للمسافات الهائلة التي تفصله عنها، أن يهب لنجدة مرزق وغات وغدامس، التي باتت معزولة تماماً. وهكذا في انتظار وصول قافلة النجدة، بقي مياني لأكثر من 10 أيام في أقصى حالات الشعور بالعجز المهين، بينما كانت الدعائم التي كان يشيد عليها بناءه الطموح تنهار فوق رأسه.

مسيرة العودة المخزية:

لم تصل قافلة النجدة المنتظرة، بقيادة الرائد ماوسييه، إلى براك إلا في 9 ديسمبر. كانت مكونة من الفرقة الإريترية 15، وقافلة من العربات بقيادة الملازم فينييه، ومن الجمال التي كانت لازمة لإخلاء كل قوات الحملة، أي 1303 رجال، وأسلحة ثقيلة ومعدات. بعد ذلك بيومين، وبينما كانت قافلة عربات فينييه تواصل سيرها نحو مرزق، لنجدة الحامية في ذلك الموقع (في الحقيقة كان

[169] نفسه، ملف 11.

هدفها فقط إجلاء العناصر الإيطالية، تاركة بقية من كانوا في الحامية ليواجهوا مصيرهم المحتوم)، ترك العقيد مياني براك نهائيا، منسحباً إلى سوكنة، التي وصلها في 22 ديسمبر.

بعد استراحة لمدة أربعة أيام استأنفت القافلة السير، ووصلت عبر طريق بونجيم إلى مصراتة، حيث ستُحَلّ نهائياً في 14 يناير 1915م. وفي تلك الأيام ذاتها تم إخلاء حاميتي غات وغدامس. ولعل ما جعل الصورة أكثر إيلاماً وقتامة أن رجال الحاميتين وجدوا أنفسهم مضطرين لعبور الحدود مع الجزائر، ثم الانكفاء في الأراضي الخاضعة للهيمنة الفرنسية.

في رسالة أرسلها وزير المستعمرات فيرديناندو مارتيني إلى القاضي جوزيبي غاروني وصف الحوادث الأخيرة في ليبيا على النحو التالي: "كم من الملايين أهدرت وذهبت هباء! إن حملة فزان وحدها كلفتنا 70–80 مليونا، وكان يمكن ألا يكون ذلك مؤلماً لو أنها لم تنته إلى هروب مخز، في جنح الظلام، بعد إيهام المجندين المحليين بأننا ذاهبون للحراسة، وأننا سنعود حالا. والآن أصبحت الراية الإيطالية ترفع في الصباح وتنزل في المساء، بواسطة عريف إريتري، تولى المسؤولية، ومن يدري لعله يبسط سيطرته أفضل منا".[170] ولعل شعور مارتيني هذا بالمرارة والخزي كان يمكن أن يكون له معنى أو مبرر، لو أنه لم يشترك هو ومياني والحكام الذين توالوا على الحكم في طرابلس في المسؤولية الكاملة عن الكارثة.

بعد إعادته إلى الوطن في فبراير 1915م، استأنف مياني خدمته في قيادة الجيش في ميلانو، وبدا كما لو أنه بات مقدراً له ألا يظهر مرة أخرى في المشاهد الأفريقية، لا سيما أن اثنين من رؤسائه هما الحاكمان غاريوني وشيليانا أخذا يتسابقان، أثناء سؤالهما عنه، لإلقاء المسؤولية كاملة عليه وحده، بما في ذلك ما كانا هما مسؤولين عنه. من الحق أن بعض الانتقادات التي وجهت إلى مياني، مثل ثقته الزائدة في أفكاره، وشكوكه الراسخة تجاه الآخرين، سواء من الزملاء أو الرؤساء، إلى حد يبلغ أحياناً العصيان، كانت انتقادات صحيحة. لكن الحاكمين كانا يتجاهلان مسؤوليتهما المباشرة عن مواقف التردد وعن إصدار أوامر متناقضة، في حين كانت الحكومة المركزية تحاول إخفاء أخطائها، بدءاً من رفضها الدائم إرسال إمدادات، مروراً بقيامها، في بحر سنتين، بتغيير خمسة حكام، وسحب كل الطائرات من ليبيا، في لحظة كان يمكن أن تسهم إسهاماً كبيراً على الصعيد التكتيكي وفي أعمال المراقبة الواسعة. وهكذا، إذ توزعت الذنوب بالتساوي على الجميع، فسوف نرى أن مياني لن يتعرض لإجراءات تأديبية، بسبب رفضه تركيز كل القوات في براك، بل إنه سوف يكلف مرة أخرى بالقيام بمهمة أخرى في ليبيا بالغة الأهمية.

---

[170] ف. مارتيني، مرجع سابق، ص 104.

ولأنه لم يعر أي وزن للاتهامات الموجهة إلى مياني من قبل الحاكمين غاريوني وشيليانا، وظل، على العكس من ذلك، يعتبره "رجلاً من الطراز الأول"،[171] فقد اتخذ وزير المستعمرات مارتيني قراراً بإرساله إلى طرابلس مكلفاً بتطهير منطقة سرت من المتمردين، متجاهلاً تماماً تهديداته المتكررة بالاستقالة، وقلة التزامه بتنفيذ الأوامر التي صدرت إليه بالانسحاب من فزان، ومعتبراً إياه مرة أخرى رجل حركة وفعل خارقاً للعادة، وأنه الرجل المناسب لمواجهة المواقف الصعبة، فقد أقدم مارتيني بالفعل على تكليف أنتونيو مياني بمهمة إنقاذ المستعمرة، ولكن كما حدث في الماضي، دون أن يزوده بالأدوات اللازمة لفعل ذلك.

بعد أن فرضه مارتيني فرضا، وقبله الحاكم الجديد لطرابلس جوليو شيزاري، الذي كان في الحقيقة قد طلب أن يكلف بالمهمة جنرال ذو خبرة، وصل العقيد مياني على متن سفينة إلى ميناء طرابلس في 10 مارس 1915م، وشرع على الفور في تشكيل حملته العسكرية. وكان قبل أن يغادر إيطاليا قد عرض على الوزير مارتيني خطته، التي تقوم مرة أخرى على الاستخدام الكثيف للفرق الإريترية، مؤكداً أنها الوحيدة القادرة على مواجهة المجاهدين وهزيمتهم. ولأن مارتيني رفض إخلاء إريتريا مما فيها من قوات، وهي مهددة من أثيوبيا بقيادة ليج ياسو، فقد اضطر مياني مرغماً لتغيير خططه والتوجه "لحسم الموقف في البلاد بأهل البلاد نفسها".[172]

بعبارة أخرى كان مياني مضطراً لإقحام السكان المحليين إلى أقصى حد، بأن يختار ليبيين متعاونين لتصفية ليبيين متمردين. وتنفيذاً لهذه الخطة، التي لم يكن في الحقيقة يؤمن بها إلا تاسوني، شكل العقيد خمس فرق من المجندين غير النظاميين، من عناصر من زليتن ومصراتة وترهونة وورفلة ومسلاتة. حوالي 3000 رجل مشاة، و220 من الفرسان. ثم أضاف مياني إلى هذه القوات غير النظامية فرقاً أخرى من النظاميين، استدعاهم من الحاميات الموجودة في الإقليم الشرقي للمستعمرة، وبالتحديد: فرقة من لواء القناصة رقم 2، فرقتان من اللواء 57 مشاة، والكتيبة 13 من مشاة الليبيين، والكتيبة 15 من الإريتريين.

على الورق كان يمكن أن تبدو الخطة مقبولة، ولكنها، في الحقيقة، كانت تتضمن أخطاراً وأخطاءً لا يمكن التغافل عنها. على سبيل المثال:

---

[171] نفسه، ص 320.

[172] أ.ت.و.أ.إ، ليبيا، مجموعة 5/122، ملف 47. شخصي جداً، رقم 610 بتاريخ 1 يونيو 1915م من الجنرال تاسوني إلى وزير المستعمرات. موضوع البرقية: مقدمات يوم قصر بوهادي، ص 4.

1) نقل غير النظاميين إلى منطقة سرت، أي على بعد أكثر من 300 كيلومتر من أماكن سكناهم، على الرغم من أنهم كانوا قد تلقوا الوعود بأنهم لن يقاتلوا إلا دفاعاً عن أراضيهم.

2) أن تجنيد الجزء الأكبر من الليبيين تم "بالتهديد والقوة وسوء المعاملة من قبل الزعماء ووكلائهم الذين زعموا أنهم هم أيضاً كانوا ضحايا للطريقة نفسها"، وكان هذا خرقاً "لمبادئ الإنسانية، فضلاً عن أنه كان خرقاً للوعود السامية التي قدمتها لهم حكومة الملك، بعدم القيام بتجنيد الرجال".[173]

3) الاستيلاء بالقوة على الجمال وسائقيها.

4) تولية قيادة هذه الفرق لزعماء عرب، مثل رمضان اشتيوي السويحلي،[174] والساعدي بن سلطان وبوبكر النعاس وعبد النبي بلخير، الذين كانت تحوم حولهم شبه بالتعاطف، إن لم يكن بالتفاهم مع المجاهدين.

5) تكوين أقسام من غير النظاميين تفوق عدداً الوحدات النظامية، بخلاف أي معيار من معايير الحيطة.

في 14 أبريل، وبينما كان مياني على مشارف بير القداحية، تمكن من اعتراض رسائل كانت مرسلة من معسكر السنوسيين إلى عبد النبي بلخير، وكانت كفيلة بأن تثبت وجود علاقة بين المجاهدين وبلخير، لكن مياني رفض، بدون أي سبب معقول، التسليم بوجود خيانة، وظل يؤكد للحاكم تاسوني ثقته في ولاء فرق المجندين الليبيين، وأنهم سوف يتبعونه حيثما توجه، ولا سيما في الهجوم على قصر بوهادي".[175] وكان بإمكان مياني أيضاً أن يستغني عن فرق غير النظاميين، وأن يذهب إلى موقعة قصر بوهادي بالنظاميين فقط، الذين كان عددهم يبلغ 3075 رجلا، و12 مدفعاً جبليا، وقسمين من المدافع الرشاشة. لكنه كان عنيداً وواثقاً من نفسه أكثر مما ينبغي، ومن ثم لم يكن ممكناً توقع أن يغير خطته في آخر لحظة.

وإذا صح ما كتبه الحاكم تاسوني في رسالته السرية جداً بتاريخ 1 يونيو 1915م أن مياني رد على بعض الانتقادات التي وجهت لمشروعه بهذه العبارة غير المعقولة: "على كل حال أنا أذهب وحدي: وأخاطر فقط بحياتي"،[176] فقد كان عليه أن يمارس سلطته، فيوقف مبادرة مياني أو

---

[173] أ.ت.و.أ.إ، ليبيا، مجموعة 6/122، ملف 50، من تقرير مارتيني، عملية سرت ومقدمات يوم قصر بوهادي. "عاجل وشخصي جدا". رقم 682 بتاريخ 14 يوليو 1915م، موجهة إلى حاكم طرابلس الجنرال تاسوني، ص 26.

[174] أ.ت.و.أ.إ، أيام السيطرة التركية، قدم هذا للمحاكمة ثلاث مرات بتهمة القتل. كما كان متهماً بقتل بلقاسم ابن عمر باشا المنتصر.

[175] أ.ت.و.أ.إ، ليبيا، مجموعة 6/122، ملف 47، "خاص جدا". رقم 610. سبق ذكره.

[176] نفسه، ص4.

يصححها. وكما نقرأ في التقرير النهائي حول أحداث 1914–1915م، "منذ 11 أبريل تبين أنه في حالة خطر، وكان من مسؤولية الحاكم السياسية اتخاذ أي إجراء يترتب على ذلك، تجاه مياني. وقد تبين أن الحاكم تاسوني، إما أنه كان عاجزاً عن فعل أي شيء، أو أنه كان غائباً تماماً عن مسار الأحداث في قصر بوهادي".[177]

وهكذا، فاستناداً إلى مكانته الشخصية، وإلى حظه الذي لم يتخل عنه أبداً في ميدان المعركة، وفي ثقته التي لا تتزعزع في زعماء الفرق العربية، وبدون أي قدرة مؤكدة على ضبط الأمور، غادر العقيد مياني في 28 أبريل 1915م سرت، متجهاً إلى قصر بوهادي، التي كان يعرف جيداً أنها الأرض التي سوف تلعب فيها المباراة الحاسمة. وحتى عندما ظهر له بكل وضوح أن الهزيمة باتت محققة، بقي مياني متفائلاً حتى آخر لحظة، وكان يجد صعوبة في قبول فكرة أن المجندين غير النظاميين يمكن أن يخونوه، وأن الحظ، لأول مرة في حياته، قد أولاه ظهره. لقد قاتل بشجاعة، وجرح مرتين، وبالطبع لم يكن ليتخيل أن الكارثة التي وقعت في قصر بوهادي، ستكون نقطة النهاية في مسيرته المهنية.

صدرت الأوامر بعودته إلى الوطن، بينما كانت كل الدفاعات الإيطالية في دواخل طرابلس تنهار، وينحصر الاحتلال الإيطالي في مدينة طرابلس وبعض المساحات على الساحل، تم إعفاء مياني من القيادة، وكما عبر بصدق باولو سواف "حكم عليه بنسيان، فاق كل ذنوبه وأخطائه".[178] وهكذا انتهت المسيرة المهنية الباهرة لـ:"بطل فزان"، الذي سبق بحملته السريعة على سبها ومرزق إنجازات رفيقه الأكثر حظا، وأشد صرامة وقسوة، الجنرال رودولفو غراتسياني.

---

[177] أ.ت.و.أ.إ، ليبيا، مجموعة 9/122، ملف 81. تقرير عام حول حوادث 1914–1915م، ص 81.

[178] ب. سوافي، مرجع سابق، ص 423.

الفصل السادس

يرفضون السماح له بالدفاع عن الوطن

في البحث عن الماضي:

من نافذة مكتبه، في الطبقة الأولى من ڤيلا مياني، في دومازو، كان العقيد يتأمل الحافة القصوى لبحيرة كومو، الضفة المقابلة، بمساكن كوليكو، ومصب الآدا. كان المشهد مألوفاً لديه، ومع أنه كان أحياناً يحمل بعض المفاجآت، إلا أنه مثّل على كل حال مشهداً مريحاً بالنسبة لمن كان في مثل حالته، لمّا يفق بعدُ من الجروح البدنية والمعنوية التي تكدست عليه في الأرض الأفريقية. وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها، لم يجد قدرة على تحمل أن يكتبوا في ملف خدمته، التي كانت من بين أكثر الخدمات لمعاناً في الجيش الإيطالي، هذه العبارة الغريبة، التي تتضمن حكماً غير قابل للطعن: "يحال إلى الراحة بسبب أقدمية الخدمة ابتداء من 16 يونيو 1916م، ويسجل برتبته في قائمة ضباط الاحتياط".[179]

ليس ثمة شك في أن مياني قد ارتكب بعض الأخطاء، أخطرها أنه أولى ثقة مبالغاً فيها لبعض الزعماء العرب، ولكن من العبث في الوقت نفسه أن يدفع وحده ثمن الكوارث التي وقعت في ليبيا، بما في ذلك تلك التي وقعت بعد عودته إلى إيطاليا. وكما لاحظ قويدو فورناري، "عزل من كل وظائفه، كما لو أنه لم يعد فجأة قادراً على القيام بأي وظيفة مفيدة؛ عُوِّض بمرتب تقاعدي يبعث على السخرية، وكان أكثر ما كان يثير حنقه أن يشاهد ضباطاً من كل عمر ورتبة يستدعون للخدمة، بينما يُمنع هو من المشاركة في الحرب".[180] وقد كان يرى في هذا المنع إهانة لكرامته كرجل وكعسكري. قد يكون مياني مبالغاً في تقدير قيمة نفسه، ولكن ملف خدمته، على كل حال، يشير إليه باعتباره من أكثر ضباط الملك إخلاصاً وتأهلاً وشجاعة، الذين حملوا العديد من أوسمة التقدير والاعتراف. كان بوسع من يريد، ولأسباب غير مفهومة، تجاهله وعزله ودفنه تحت ركام من التهم المسيئة، ولكن ملف خدمته، الذي دونته قيادة الجيش في ميلانو، بقي شاهداً، وليس بوسع أحد أن يحرفه أو يحذفه.

لقد كانت هذه الثقة هي ما مكن مياني من البقاء حياً، يحدوه أمل في أن يعاد إليه اعتباره، آجلاً أم عاجلا. بكل تأكيد كان يعي أنه طالما استمرت حالة الحرب، واستمر ضغط الجيوش

---

[179] أ.م.ل.م.، السيرة المهنية، مرجع سابق، ص3. أحيل مياني إلى التقاعد بمرتب قدره 6066 ليرة. كان آخر مرتب تقاضاه عندما كان مفوضاً في فزان 8000 ليرة.

[180] ج. فورناري، مرجع سابق، ص 61.

الألمانية النمساوية على الحدود الشرقية، فليس بوسعه سوى أن يطلب فتح تحقيق حول خدمته في أفريقيا. وهذا هو ما كان العقيد يسعى إليه، واثقاً من أن تحقيقاً موضوعياً يمكن أن يعيد الحق إلى نصابه، محملاً كل من شارك في المسألة الأفريقية نصيبه من المسؤولية.

وفي انتظار أن تأتي ظروف أفضل، ملائمة للقيام بتوضيحات على نحو هادئ، عكف مياني على ترتيب الأوراق التي تمكن من إنقاذها من الكارثة، وظل على تواصل عن طريق الرسائل مع الضباط الذين عملوا تحت قيادته، ولا يزالون يعملون في طرابلس، وكان يدون ملاحظاته التي سوف تكون لازمة في المستقبل لكتابة مذكرة بالخصوص. كان يخصص لهذه المهام جزءً مهماً من الظهيرة وما بعدها، بينما كان يقضي الصباح للتجول في الجبال القريبة (أحياناً كان يصل حتى قمة سبلوجا)، أو في نزه في البحيرة على متن مركبه الصغير ذي المجدافين (فيما بعد في العشرينيات اشترى زورقاً بمحرك). لكن يومه لم يكن ينتهي دون زيارة قصيرة لمعمل الميكانيكا، حيث كان يجد دائماً شيئاً ما يعمله. وإن من المؤسف حقاً أن المعدات التي كانت موجودة في هذا المعمل قد ضاعت كلها، فقد كانت كفيلة بمدنا بشهادة ثمينة حول مختلف النشاطات التي اعتاد الضابط على ممارستها. ومن بين المعدات القليلة التي أمكن إنقاذها، وهي توجد الآن لدى الجنرال فورمنتو،[181] ثمة القوالب الخشبية التي يستخدمها الإسكافيون، والسكاكين المستخدمة لقص الجلد. وأغلب الظن أن العقيد كان يقوم بإصلاح أحذيته الجبلية بنفسه.

وعلى الرغم من طبعه الصعب كثير الشكوك، كان لانتونيو مياني أصدقاء كثيرون، بعضهم كان شديد الولاء له، وكانوا يزودونه بالكثير من المعلومات القيمة. الرائد ريتسا –على سبيل المثال– كان يحيطه علماً أولاً بأول بمجريات الأحداث في ليبيا، حول الكوارث التي كانت تتوالى. في 4 سبتمبر 1915م كتب، وربما كان يبالغ قليلاً: "كما أشرت في آخر رسالة لي إليك، من الفرقة 8 الإريترية مات حوالي 200 من العطش، وكانوا قد بلغوا حد امتصاص دماء الجرحى الذين كانوا يجدونهم على طول الطريق. والفرق الليبية تعرضت لمجزرة حقيقية".[182] وفي رسالة أخرى أرسلت من فلوريدا في 3 أكتوبر 1915م أبلغ ريتسا مياني أنه قدم، بناء على طلب رؤسائه، "إفادة حول الجراح التي تعرض لها في معركة قصر بوهادي". وختم رسالته بهذه الكلمات: "إذا ما فكروا في أن يقوموا تجاهك بأي نذالة، أنا واثق جداً من أنك ستبقى صامداً، وستفعل ما بوسعك لفضح الكثير من الإيطاليين. هل صحيح أن ميتزيتي قد احتج مرة أخرى؟".[183]

---

[181] شهادة استقاها المؤلف من الفريق إيتوري فورمنتو.

[182] أ.م.ل.م.، مراسلات العقد الثاني، رسالة من كانيكاتيني بانيي.

[183] نفسه.

ضابط آخر هو جوزيبي فاكاري، وكان يدير المكتب السياسي العسكري لحكومة طرابلس، كتب له في 2 أكتوبر 1915م يخبره أنه "لم يستطع أن يقدم له أي خدمة"، ويفيده بأن وزير المستعمرات طلب من الحاكم الجديد الجنرال جوفاني أميليو أن يقوم "بتحقيقات وتحريات" حول الحوادث الخطرة التي وقعت في المستعمرة، ولكنه "رفض القيام بذلك رفضاً تاما". فتخيل لو أن الجنرال أميليو طلب منه أن يدلي بشهادته عن ذلك الذي كان يسميه "ملازمه العجوز"،[184] ألم يكن جديراً بأن يبحث عن الحجج الدامغة كي يقول كلمات طيبة بحقك. وأخيراً قرر الوزير أن ترسل إليك نسخة من الملف كله. وهذا ما يتم فعله الآن (...). ومن ثم فليس بوسعي أن أفعل أكثر من التأكد بنفسي من ألا تفقد أي وثيقة من الوثائق التي كتبت لي عنها، والتي تمثل بالنسبة لك أفضل ضمانة ممكنة". ومع أن فاكاري عبر له عن أمنياته الطيبة، إلا أنه لم يخف عنه تقديره أن الكارثة الليبية لا يمكن أن تمر على البلاد دون أن تثير الانتباه، "وسوف يأتي يوم يدعى فيه الجميع للإدلاء بشهاداتهم. ولأن صورتك عزيزي مياني كانت دائماً لامعة، فإنك لا يمكن أن تحلم بأن تترك في سلام. ولذا فمن مصلحتك أن تعد نفسك، بل لعلي أقول أن تتسلح، بقدر ما تستطيع"؟.[185]

وبالطبع لم يكن مياني يضيع وقته. وكما كان حاضراً وفاعلاً في ميدان المعركة، كان كذلك فيما يتعلق بتنظيم التحقيقات، وإعادة فتح الجزء الأكبر من الوثائق والشهادات. إن الملفات التي وصلت إلينا، والتي لم يتح له أن يستخدم محتوياتها، كما سنرى لاحقا، تتضمن بدقة خطي دفاعه وهجومه. ومن المذهل تماماً ذلك العدد من الشهادات التي في صالحه والتي جمعها في سنتي 1914م و1915م، قبل قصر بوهادي وبعدها. وحتى النقيب كوريدوني، الذي كان مياني قد عامله معاملة قاسية، كتب إلى صديقه دينو جوري قائلا: "أنا أيضاً أتفق معك في إبداء الأسف للقرارات التي اتخذتها الحكومة بخصوص فزان، وقد فكرت أكثر من مرة فيما يمكن أن يسببه ذلك من ألم للعقيد؛ أن يكون هو نفسه من ينفذ الانسحاب من الإقليم، الذي كلف احتلاله أموالاً وجهوداً ودماء ومهارات...".[186]

إحدى أكثر الشهادات تأثيراً تلك التي قدمها النقيب الطبيب فينشينسو أورلاندي، الذي رافق مياني في احتلال فزان. في رسالة أرسلها من طرابلس، بتاريخ 2 فبراير 1915م، بعد فترة قصيرة من الانسحاب المستعجل من فزان، أحصى الطبيب العسكري الأسباب التي أدت إلى الفشل (عدم

---

[184] كان الجنرال أميليو تحت قيادة مياني في إريتريا.

[185] أ.م.ل.م.، مراسلات العقد الثاني، رسالة من طرابلس مكتوبة على ورق رسمي لحكومة طرابلس.

[186] نفسه، رسالة مشار إليها في البرقية بتاريخ 2 فبراير 1915م من النقيب الطبيب فينشينسو أورلاندي إلى مياني، أرسلت من طرابلس.

احتلال زلة، الحملة الفاشلة نحو القبلة والنوفلية، الاعتقال الظالم لسيف النصر، ثم إطلاق سراحه في وقت غير مناسب)، وهذا يتفق تماماً مع ما كان يقوله مياني. "آه.. كم لدي من أشياء أود قولها.. سيدي العقيد... في هذا الوقت الذي لم يعد تعلقي بك يشوبه أي ظل من المصلحة أو المزية (...)، ولكني سأقول لك كلمة واحدة، وهي التعبير عن أمنيتي الصادقة في أن تكافح، أن تكافح لتنتصر، ولينتصر إنجازك الرائع في احتلال فزان، بما يكفل أن تحافظ إيطاليا الاستعمارية في المستقبل على عبقريتك وإنجازاتك وتستفيد منهما".[187]

وقد أصاب الدكتور أورلاندي عندما لفت الانتباه في رسالته المطولة جداً إلى أن مياني كان عرضة لحملة من "الكراهية العمياء"، وأنه كان له "أعداء كثيرون، وأصدقاء قليلون"،[188] وبالطبع سوف يذكر من بين هؤلاء الأعداء العقيد غراتسيولي الذي كان خلال الحملة في فزان على رأس المكتب السياسي العسكري في طرابلس. ثمة رسالة أرسلها غراتسيولي إلى زوجة مياني في 8 يونيو 1914م، أي بعد أيام قليلة من لقائه بالعقيد في سبها، وهو لقاء تم بناء على طلب من الحاكم غاريوني بأمل إيجاد سبيل للمصالحة بين الضابطين. ولكننا نعرف أن المصالحة لم تتم. ولذا فإن رسالة غراتسيولي تبدو لنا عملاً خارقاً من أعمال النفاق. جاء في هذه الرسالة: "يسعدني أن أؤكد لك أنه يتمتع بصحة ممتازة، ويثبت دائماً قدرة غير عادية على مقاومة أسباب الإزعاج والإجهاد التي لا مفر منها، في إطار حملته الرائعة، التي قادها ولا يزال يقودها بشرف وسمو". ويضيف أيضاً: "إن ما شاهدته في فزان، فيما يتعلق بإنجازات العقيد، أكدت لي ما أكنه له من مشاعر الإعجاب والعرفان، لما تمكن من إنجازه هناك، متجاوزاً عقبات رهيبة، من كل نوع، ومحققاً لإيطاليا السيطرة السلمية والهادئة على تلك المستعمرة الليبية الثالثة".[189]

ومن بين الضباط الذين كان بوسع مياني بالتأكيد أن يعتمد عليهم يأتي في المقدمة الجنرال جولييلمو بيكوري جيرالدي، الذي عرفه في إريتريا سنة 1887م، أثناء حملة (Asinari di San Marzano) التي نفذت للانتقام للقتلى الذين سقطوا في دوجالي، ومع أنه كان يعرف أن جيرالدي موجود في جبهة القتال، قائداً للجيش السابع، إلا أنه أرسل إليه مذكرته الدفاعية، فرد عليها جيرالدي

---

[187] نفسه.

[188] نفسه.

[189] أ.م.ل.م.، مراسلات العقد الثاني. في هذه الرسالة المكونة من أربع صفحات، مكتوبة على ورق غير رسمي يقول غراتسيولي إضافة إلى ذلك: "منذ أيام قليلة رجعت من فزان، حيث كنت مكلفاً بمهام مختلفة بأوامر الحاكم. ولذا فقد أتيحت لي الفرصة لمقابلة زوجك والحديث معه ومرافقته في رحلة مثيرة من سبها إلى مرزق وزويلة".

في 21 سبتمبر 1915م مؤكداً له أنه سوف "يتبنى قضيته" وأنه سوف يحيط بالقضية علماً الجنرال بورو: "إنه رجل عادل، ذو ضمير صاح، ولا يلحقني فيه أي شك".[190]

بعد ذلك ببضعة أيام كتب جيرالدي مرة أخرى إلى مياني يخبره أنه قابل بورو، الذي اتصل بدوره بوكيل وزارة الحربية، وعلم منه أن ثمة "تقريراً بالغ الخطورة قدمه تاسوني، وأن الوزير فوض الجنرال بولونييزي بدراسة القضية".[191] وأخيراً في رسالة بتاريخ 21 أكتوبر أبلغ جيرالدي مياني بأنه أرسل إليه، عن طريق الشرطة، على سبيل الاحتياط، "التقرير والمرفقات به"، وأضاف: "أنت تدرك بالطبع أنك سوف تحتاج، لكي تحكم بناء على معرفة دقيقة بكل التفاصيل المتعلقة بقضيتك، حتى للوثائق التي يقدمها الطرف الآخر. وعلى كل حال أظن أن لك على كثير من الملاحظات التي وجهت إليك إجابات مقنعة لصالحك".[192]

وبحلول نهاية سنة 1915م تكونت لدى مياني صورة كاملة عن الموقف، ولكن لم يكن ثمة، لا في وزارة المستعمرات، ولا في وزارة الحربية، من يفكر أدنى تفكير في فتح تحقيق في الكوارث التي وقعت في ليبيا، لا لأن حرباً ضروساً مهلكة كانت لا تزال محتدمة، ولم تكن نتائجها مؤكدة على الإطلاق، ولكن أيضاً لأن الوحيد الذي كان يطالب بذلك التحقيق هو العقيد مياني. الآخرون جميعهم، وزراء وحكاما، كانوا يتحفظون كثيراً على طلب التحقيق، لأنهم يعرفون أنهم سوف يخرجون منه مدانين.

في الجبهة، ولكن لبضعة أيام:

منذ اليوم الأول لعودته إلى الوطن، وإعفائه من جميع مهامه، حاول أنتونيو مياني بكل الطرق، بالكتابة إلى وزير المستعمرات وإلى بعض الأصدقاء ذوي النفوذ، أن يجعلهم يستدعونهم إلى الخدمة، وأن يرسل إلى جبهة القتال. مجرد ارتدائه الملابس المدنية، وهو الذي ظل منذ سنة 1881م يرتدي الزي العسكري، كان يملؤوه بالكثير من مشاعر المرارة والخجل. ومن أجل أن تتاح له فرصة المساهمة في الدفاع عن الوطن، كان مستعداً أن يتولى أي مهمة، مهما كانت متواضعة، ولكن لم يكن يجاب عن طلباته وتوسلاته إلا بتجاهل بالغ الإذلال والإهانة.

---

[190] نفسه. في هذه الرسالة والرسائل التي تلتها استخدم الجنرال بيكوري جيرالدي البطاقة البريدية الإيطالية المعفاة من الطوابع. مراسلات الجيش الملكي.

[191] نفسه، رسالة بتاريخ 31 سبتمبر 1915م.

[192] نفسه. بيكوري جيرالدي يلفت انتباه الصديق مياني أنه اهتم بقضيته، على الرغم من أنه كان مسؤولاً عن "حوالي 70 ألف رجل".

بعد سنتين طويلتين من الانتظار وصله رد على مناشداته من الجنرال جولييلمو بيكوري جيرالدي، الذي كان، كما ذكرنا، قد وقف في جانب الدفاع عن مياني. هذا الجنرال كانت له مسيرة مهنية خارقة، حتى أنه في سنة 1917م تولى قيادة الجيش الأول، الذي كان منتشراً في منطقة ترنتينو، بين أديجي وبرينتا. بيكوري جيرالدي كان يقدر مياني كثيراً، ومن ثم فعلى الرغم من أنه كان يعلم أن استدعاء مياني مرة أخرى إلى الجيش لن يكون مقبولاً لدى القيادات العليا، فإنه تحدى كادورنا وكلف مياني بتولي قيادة قطاع فالارسا الحساس. كانت الرسالة التي تتضمن قرار استدعاء مياني تحمل تاريخ 10 يونيو، ولكن مياني لم يصل إلى منطقة المعارك إلا في أول يوليو.

لم يكن قطاع فالارسا قطاعاً سهلا، كانت نيران مدفعية الجانبين عنيفة ومتواصلة. وكذلك كانت نشاطات فرق الاستطلاع التي تسعى لتحسين مواقع الجانبين ذات وتيرة يومية. وكثيراً ما كان يأتي في التقارير التي تحمل توقيع كادورنا ذكر أسماء أماكن مثل: بوزينا ومالقا رودولي وكوسمانيون دي لاقي ومونتي مايو وباسوبيو وكوني زونيا. وقد كان الطيران النمساوي عدوانياً بشكل خاص. ففي 13 يوليو 1917م كتب كادورنا: "تعرض أحد مستشفياتنا في سبيكييري (فالارسا)، على الرغم من أنه كان يحمل علامات الحصانة ظاهرة تماماً، للقصف أكثر من مرة".[193]

حرب المواقع هذه، حيث كان الجنود يسقطون من أجل احتلال خندق لا يزيد عرضه على متر واحد، وحيث كان المشهد كله تسيطر عليه المدافع والطلقات من كل عيار، لم تكن الحرب التي تناسب مياني. لقد كان معتاداً على الحركة في مساحات واسعة، وعلى الحصارات السريعة، وربما على المطاردات السريعة. وسواء في إريتريا أو في فزان تمكن دائماً من إحراز النصر، بإدخال الرعب في نفوس قوات العدو بسرعة حركته ومناوراته. في فالارسا كانت القوة تتحرك على مسافة بضع عشرات من الأمتار، إلى الأمام أو إلى الخلف، وبدا أن الهدف الذي يسعى إليه روفيريتو غير قابل للتحقيق.

ومع ذلك فكما كان مياني دائما، عنيداً وصلبا، فقد أبدى اهتماماً حتى بهذه الحرب. ولكنهم لم يمنحوه الوقت الكافي. في 18 أغسطس اتخذت القيادة العامة قراراً بإيقافه عن الخدمة، وإرساله من جديد في إجازة. لم تزد المدة التي قضاها في الجبهة عن 48 يوماً. وكانت هذه بالنسبة لمياني ضربة شديدة القسوة، لا تحتمل، لا سيما أن القرار بإيقافه عن الخدمة لم يرفق بأي تفسير. لقد استغرقت البيروقراطية العسكرية البطيئة 48 يوماً كي تكتشف أن مياني، المحكوم عليه بالإبعاد

---

[193] الرابطة الوطنية للمحاربين. النشرات الحربية. MCMXV–MCMXVIII. شركة الطباعة والنشر بورتا، بياشنسا، 1923م، ص 453.

مدى الحياة، كان، على العكس من ذلك، يقاتل من أجل الدفاع عن وطنه، ومن ثم تصدر الأوامر، ولو كان ذلك متأخرا، بطرده من جديد إلى عزلته.

ولابد أن حجم الإهانة التي شعر بها مياني كان ثقيلاً جداً على نفسه، حتى أنه لم يترك لنا حول هذه الحادثة أي شهادة. فليس ثمة في أوراقه أي إشارة إلى انسحابه المفاجئ من الجبهة. الوثيقة الوحيدة التي تتحدث عن ذلك كانت بخط الجنرال بيكوري جيرالدي، ولكنها لا تنير الحادثة كثيراً. يقول الجنرال: "لقد وجهته لقيادة قوات تعمل في خط الجبهة الأمامي، وبالتحديد قيادة لواء فالارسا، الذي رأيت تكليفه به استناداً لمعرفتي منذ وقت طويل بهذا الضابط رفيع المستوى، وبكفاءته العسكرية. لولا أن القيادة العليا لم تحبذ فكرة تكليف ضابط محال إلى الراحة، بقيادة قوات تحارب في خط الجبهة الأمامي، وفي البرقية رقم 41015 بتاريخ 23 يوليو 1917م أصدر أوامره بإعفائه من قيادة لواء فالارسا".[194]

سنة 1917م كان مياني في الثالثة والخمسين من عمره، وكان له في العسكرية ماض يؤهله لتولي قيادة أي لواء. وعلى فرض أن وظيفة قيادة لواء، قد بدت للقيادة العليا، أي لكادورنا، غير مناسبة للرتبة التي كان قد بلغها، فقد كان بالإمكان خفض هذه الرتبة إلى رتبة أدنى. ما حدث كان على العكس من ذلك، فقد تقرر إبعاده بشكل مفاجئ وفج عن الجبهة، كما لو أنه كان ملطخاً بجريمة الخيانة.

السنوات الأكثر سوءً:

بين سنة 1917م، وهي السنة التي أبعد فيها عن الجبهة، وسنة 1934م عندما حصل أخيراً على الترقية إلى رتبة جنرال احتياط، عاش مياني أسوأ سنوات حياته. فقد كان بلغ القناعة التامة بأنهم لن يوافقوا أبداً على فتح تحقيق حول المأساة الليبية، ما يعني أنه سيظل وحده من يدفع ثمن فقدان مناطق الدواخل في ليبيا. وقد حاول حتى بعد نهاية الحرب أن يقترح فتح التحقيق، مقحماً في القضية بعض ماريشالات وجنرالات الجيش الإيطالي، الذين كانوا رؤساءه أو زملاءه، ولكن دون أي جدوى. كانت الحرب قد انتهت، ومع ذلك كان ثمة مشاكل كثيرة جداً تنتظر الحل، بدءً بالنظام العام الذي أخذت تحدث فيه بعض الاضطرابات بسبب المواجهات بين الفاشيين وشخصيات من التيارات اليسارية.

---

[194] أ.م.ل.م.، مراسلات العشرينيات، رسالة من الجنرال بيكوري جيرالدي إلى مياني بتاريخ 13 يوليو 1925م. كان مياني قد ألح في طلب هذه الإفادة كي يتمكن من التمتع بالمزايا الاقتصادية المنصوص عليها في القانون رقم 684 (تدابير متعلقة بالضباط المعفيين من الخدمة من طرف القيادة المتحركة خلال الحرب)، بتوقيع وزير الحربية بينيتو موسوليني.

في مستهل سنوات العشرينيات أخذ يشعر ببعض الأمل، عندما عين لتولى منصب حاكم طرابلس جوزيبي فولبي. منذ أوائل الإجراءات التي اتخذها فولبي بدا واضحاً أنه كان مصمماً على الخروج من عباءة الغموض، وأن يوضح لليبيين أن "زمن الثرثرة تحت الخيام" التي أدت إلى تمديد العمل بالقانون الأساسي، قد انتهى، وأن إيطاليا تعود لتمارس في طرابلس حقوقها كسلطة احتلال. وبالفعل مع وصول فولبي بدأ زمن إعادة احتلال ما كان قد تم التخلي عنه. نقرأ في إحدى النشرات الدعائية: "باحتلال ساحل مصراتة أغلق سيادة الحاكم فولبي تلك الفترة المهينة التي بقيت فيها القوات الإيطالية في موقع الدفاع، وانطلق في عمل قوي من أعمال الهجوم، كان يعني قلب كل وسائلنا السياسية والعسكرية رأساً على عقب. وكانت تلك أول ضربة قاصمة توجه لأسطورة القوة التي يملكها التمرد".[195] بعد إعادة احتلال مصراتة، الذي تم في 12 فبراير 1922م، جاء دور العزيزية وجادو ونالوت وترهونة وغريان وبني وليد.

رأى مياني أن هذه بداية جيدة، لكن البلاد، التي خرجت منهكة من الحرب، كانت مصرة على الانخراط في مغامرات استعمارية جديدة. وهكذا ضاعت مناشدات العقيد التي كان يوجهها إلى السلطات العسكرية هباء، مرة أخرى، ولم تكن تكفي لمواساته تلك المكافأة التي حصل عليها مقابل استشارة قدمها لشركة "بومبريني بارودي ديلفينو لتجارة متفجرات الحرب والمناجم".[196] ولم تكن لتجدي في مواساته أيضاً شهادات التقدير التي ظلت ترد إليه سواء من إيطاليا أو من الخارج. فعلى سبيل المثال، كان يكتب إليه من الدار البيضاء مترجمه القديم جاسباري أفيللوني. وعلى ذكر الحملة على فزان، التي كان قد شارك فيها، كتب أفيللوني: "أحسب أني أنا أيضاً صديق حقيقي ومخلص لك، أنا الذي أتيحت لي الفرصة، أفضل من أي شخص آخر، لألمس عن قرب ما تمتعت به من عقل ثاقب وقلب كبير، أنا الذي رأيتك أثناء عملك الرائع في مناطق طرابلس الداخلية، أنا الذي تابعت معك كل العمليات العسكرية والمفاوضات الدبلوماسية...".[197]

العزاء الوحيد الذي كان يجده في تلك السنوات التي كان يعيش فيها في عزلة تامة، تمثل في وجود زوجته المحبة لاورا وابنته إليسا. وقد قص عليهما كلتيهما، أكثر من مرة، مغامرته التعسة والأخيرة في أفريقيا، لا من أجل أن يجد بعض المواساة في تفهمهما لما حدث، ولكن أيضاً كي يناقش معهما النقاط الأكثر إثارة للجدل في القصة. حتى أنهما تابعتا، بعد موته، وهما على دراية

---

[195] (AA.VV)، ميلاد طرابلس. مذكرات ودراسات حول أربع سنوات من حكم الكونت جوزيبي فولبي في مصراتة. مونتادوري، ميلانو، 1926م، ص 142.

[196] بتاريخ 31 ديسمبر 1917م أرسلت إدارة شركة بومبريني بارودي–دلفينو حوالة مصرفية على مصرف نابولي بقيمة 6000 ليرة، "اعترافاً وشهادة على رضانا عن الأعمال التي قمت بها". (أ.م.ل.م.، مراسلات العقد الثاني).

[197] أ.م.ل.م.، مراسلات العقد الثاني. رسالة من الدار البيضاء بتاريخ 2 فبراير 1919م على ورق معنون باسم ج.أفيللوني. فارس التاج الإيطالي. ممثليات، لجان، محفوظات. الدار البيضاء.

تامة بأبعاد القضية، العمل من أجل الحصول على حكم برد اعتباره، كما يشهد بذلك تلك المراسلات العديدة التي وجهتاها إلى السلطات العليا العسكرية والمدنية خلال سنوات الثلاثينيات.

الفصل السابع

كادورنا يفجر القضية

ترقية متأخرة:

كان مياني قد فقد أي أمل في الحصول على رد اعتبار، سواء أكان جزئياً أم تاما، وإن ظل غير قادر مطلقاً على قبول الوضع المهين الذي يريدون أن يحشروه فيه، وضع المدفون حيا، عندما استلم في 27 فبراير سنة 1923م بطاقة من صديقه القديم وراعيه الجنرال جولييلمو بيكوري جيرالدي، جاء فيها "مستغلاً علاقتي الطيبة مع صاحب السمو دوق أوستا، فقد حدثته عن وضعك، وحيث إني كنت أعرف أن سيادة فيديرسوني سوف يستقبله، فقد حملته مذكراتك، ورجوته أن يسلمها إلى الوزير وأن يوصي بالعناية بها. إن صاحب السمو، الذي يحتفظ لك بذكريات طيبة، قَبِل المهمة، وبعد ذلك بيومين أخبرني أن سيادة فيديرسوني وعده بأن يولي الموضوع كل العناية والاهتمام، وأنه سوف يفيده عنه لاحقا".[198]

هذه الرسالة كانت بالنسبة لمياني نهاية صمت كان يوشك أن يقضي عليه. وفجأة وصلت مذكراته التي قرأها كثيرون بكثير من الإهمال إلى يد إيمانويلي فيليبيرتو دي سافويا، دوق أوستا، قائد الجيش الثالث الذي لم يهزم قط، وإلى يد وزير المستعمرات لويجي فيديرسوني، أحد أقطاب النظام الجديد. لم يكن بالطبع يحلم بأكثر من هذا. ليس هذا فحسب، بل أيضاً لأن بيكوري جيرالدي أخبره أنه رجا دوق أوستا العمل على "عودته إلى الخدمة" مع فيديرسوني،[199] لكن دعم بيكوري جيرالدي لم يتوقف عند هذا الحد. في 27 أبريل أخبر مياني بأنه نجح في تحديد موعد له مع دوق أوستا: "سوف يستقبلك غداً صباحا، يوم السبت 28 الجاري، في الساعة 8.45، في قصر الكويرينالي (ادخل من البوابة الرئيسة، ثم انعطف يساراً حتى نهاية الفناء، ثم يساراً أيضاً، الشقة التي في الطابق الأرضي)".[200]

لم يترك لنا مياني، في أوراقه، أي إشارة للقائه بإيمانويلي فيليبيرتو دي سافويا، ولكننا نجد إشارة مختصرة لذلك اللقاء في رسالة أرسلها بيكوري جيرالدي إلى مياني في 1 مايو، يقول فيها: "كنت واثقاً من حسن استقبال صاحب السمو لك، وقد تحدثت معه مجدداً ومطولاً عن قضيتك. اليوم سوف تنهي اللجنة المركزية أعمالها، وأظن أن الأمير سوف يسافر، لحضور احتفالات الأسرة

---

[198] أ.م.ل.م.، مراسلات العشرينيات، رسالة من فلورنسا على ورق رسمي لمجلس شيوخ المملكة.

[199] نفسه، رسالة من فلورنسا على ورق رسمي لمجلس شيوخ المملكة.

[200] نفسه، رسالة من روما على ورق رسمي للجنة الترقيات المركزية.

المالكة في إنجلترا، وسوف يعود يوم 8".[201] لقد كانت المقابلة مع دوق أوستا، والاهتمام الذي أبداه فيديرسوني، الذي كان يعمل رئيساً لمكتبه كورادو زولي، صديق مياني ومن أكثر المعجبين به، كفيلة بأن تقطع، إلى حد ما، تلك العزلة التي كان ضحيتها على مدى تسع سنوات. ومع انتهاء حالة الإقصاء، أخذت تصل، ولو متأخرة، أوائل مؤشرات العرفان.

بموجب المرسوم الملكي بتاريخ 28 ديسمبر 1924م، بناء على توصية من قائد الجيش في ميلانو الماريشال إنريكو كافيليا، رقي الفارس أنتونيو مياني إلى رتبة جنرال احتياط. ترقية مرحب بها بالطبع، وقد ظل ينتظرها منذ سنة 1915م.[202] بعد ذلك ببضعة أشهر عين الملك فيتوريو إيمانويلي، بناء على توصية من وزير الحربية بينيتو موسوليني، مياني، "تقديراً لخدماته الجليلة الطويلة"" كومنداتوراً لقوات تاج إيطاليا.[203] في 16 أغسطس 1925م حصل على اعتراف ثالث، حمل ضمنياً كشفاً عن أن مياني كان خلال تلك الفترة قد بات قريباً من الفاشية، وإن كنا لا ندري أكان ذلك عن قناعة أم مجرد موقف نفعي. تشير "ورقة الأوامر" الصادرة عن الميلشيا التطوعية من أجل الأمن الوطني أن الكومنداتور مياني قد عين قنصلاً عاما، خارج الكادر، تابعاً للقيادة العامة، ابتداء من 4 أغسطس 1925م".[204]

وإضافة إلى الرتب، أخذت تصل إليه مكافآت مالية. زيادة مرتب التقاعد –مثلاً– من 12.000 ليرة سنوياً إلى15.000،[205] إلى جانب تقديرات لها وقع أجمل، مثل تسمية وزير الداخلية إياه مفوضاً مساعداً لبلدية فراسكاتي (وبعد ذلك لبلدية بوردينوني). وهكذا وجد مياني نفسه جزءاً من النسيج الاجتماعي في الأمة، لم يعد منبوذا، وبات بوسعه أن يتزين بالألقاب والرتب، التي استحقها بجدارة تامة.

لكن كل ذلك لم يكن يكفي كي يعيد إليه هدوءه، ففي كل مرة يأتي في الصحافة الإيطالية ذكر طرابلس والحوادث المأساوية التي وقعت سنة 1914م–1915م، كان اسمه يذكر مصحوباً بأحكام غير لائقة. وكان يجد نفسه، في كل مرة، مضطراً لتصحيح تلك الأحكام التي كان يرى أنها

---

[201] نفسه، رسالة من روما على ورق رسمي لمجلس رئاسة الجيش.

[202] المراسلة صدرت من الجنرال دونيوني، قائد اللواء الوطني في ميلانو.

[203] أ.م.ل.م.، السيرة المهنية، مرجع سابق، المرسوم الملكي بتاريخ 14 يونيو1925م.

[204] ميليشيا المتطوعين من أجل الأمن الوطني، ورقة أوامر، الأمر رقم 16، 1925م، 16 أغسطس 1925م، ص 111.

[205] تمت الموافقة على الزيادة بناء على المرسوم الملكي رقم 684، بتاريخ 31 مارس 1925م، تتعلق بـ"الضباط المعفيين من الخدمة في القيادة المتحركة خلال الحرب".

مخطئة، وأنها مجرد افتراءات كاذبة. وقع هذا –على سبيل المثال– في سنة 1916م، بعد نشر مقالة لجويلفو شيفينيني،[206] وفي سنة 1923م بعد هجوم شنه عليه ماريو دي جازليني.[207]

على بعد خطوة من الحقيقة:

وهكذا، فعلى الرغم من أن مياني قد حظي بتكريم من النظام، فإنه ظل ينتظر أن يعاد فتح التحقيق حول ليبيا، الذي كان واثقاً أنه سيخرج منه مرفوع الرأس. وعلى الرغم من الدعم الذي لقيه من بعض رفاقه القدامى في أفريقيا، ممن صعدوا إلى أعلى المناصب، مثل المارشال جاردينو والمارشال كافيليا والمارشال بيكوري جيرالدي والجنرال تيروتسي، ورعاية دوق أوستا والوزير فيديرزوني، فإن الأمر لم يتعد التعبير عن التعاطف والمؤازرة الإنسانية. كانت قد مرت عشر سنوات على أحداث أفريقيا، ولم يكن ثمة أحد يرغب في إعادة فتح إحدى أكثر الصفحات مأساوية وغموضاً في تاريخ الاستعمار. لا سيما أن تلك الهزائم كان قد تم الانتقام لها بين سنتي 1922م و1926م. هذا إضافة إلى أن المسؤولين الأساسيين عن تلك الهزائم، مثل الجنرال تاسوني ووزير المستعمرات السابق مارتيني، كانوا لا يزالون على قيد الحياة، ولا يزالون أقوياء بما يتمتعون به من شهرة، ما يجعل شمولهم بأي تحقيق أمراً غير وارد مطلقا.

بيد أن كتاباً نشر في نهاية سنة 1925م كان كفيلاً بإحداث المعجزة؛ فقد كان من شأن الجدل غير المعلن الذي أحدثه هذا الكتاب، وقد تضمن مداخلات من تاسوني ومارتيني ومياني، أن يكون بمثابة إعادة فتح للقضية التي رفعها مياني، ولكن في شكل تحقيق وزاري، كشفت عنه الصحافة اليومية. هذا الكتاب كان يحمل توقيع المارشال لويجي كادورنا، وكان عنوانه "صفحات أخرى حول الحرب العظمى". وقد خصص كادورنا فصلاً كاملاً للحوادث التي وقعت في طرابلس، ولكن روايته، التي اتسمت عموماً بالغموض وقلة المهارة، أثارت غضب أحد الشهود على تلك الحوادث، الذي هاجم المارشال بقوة، تحت اسم (مستعمر) في افتتاحية نشرت في 23 فبراير 1926م في صحيفة (جورنالي ديتاليا)،[208] في الصفحة الأولى، بحيث يستحيل ألا تلفت انتباه القارئ.

قبل كل شيء، هذا النقد القاسي ينقض المعلومات حول طرابلس مستخدماً كلمات كادورنا نفسها: "لم يكن من السهل علي جمع العناصر الفعلية المكونة لقصة الحوادث في طرابلس سنة 1914م–1915م، ولكني نجحت في ذلك بمساعدة بعض الضباط المتميزين الذين كان لهم دور

---

[206] في ليبيا. منقذ المستعمرة، في صحيفة "كوريري ديللا سيرا"، 27 يوليو 1916م.

[207] جورنالي ديتاليا، 9 فبراير 1923م.

[208] عنوان الافتتاحية كان كالتالي: كتاب كادورنا وحوادث سنوات 14–1915م في ليبيا.

في تلك الأحداث". ومعلقاً على هذا التصريح المتهور لفت (الاستعماري) نظر كادورنا إلى أنه يوجد في وزارة المستعمرات وفي وزارة الحربية أيضاً "تقرير مفصل عن تلك الأحداث، كان بوسع الماريشال أن يحصل منه على معلومات دقيقة".

وبعد أن أثبت ذلك المجهول الذي قام بمراجعة الكتاب أن كادورنا لم يستخدم الوثائق الضرورية التي تمكنه من الحكم على تلك الوقائع، حدد ما جاء فيه من أخطاء وتناقضات. فعلى سبيل المثال انتقد الأمر الذي أصدره كادورنا بالتخلي عن مناطق الدواخل الليبية، "دون أن يكون ثمة حدث أو مبرر (لم تكن قد وقعت في ذلك الوقت المعركة المؤلمة في قصر بوهادي) تدفع إلى ذلك. (...) يقول: "كنا على وشك الدخول في حرب، وكان علينا أن نبدأ في إثبات قوتنا، منسحبين بإرادتنا من بعض المناطق في طرابلس؟". وإذا كان الحاكم تاسوني كان قد قرر "عدم السماح لأي ضابط بأن يتراجع إلى الخلف، دون أمر مباشر من الحكومة، وأن المناطق التي تحتلها قواتنا الآن يجب المحافظة عليها بأي ثمن"، فلماذا أرسل إليه كادورنا إمدادات ولم يوقف مبادراته؟ وإذا كان يراه مسؤولاً عن الكارثة الليبية، فلماذا عهد إليه، بعد عودته إلى إيطاليا "بمهمة قيادية مهمة في الجبهة؟". وأيضا: "لماذا أحبط كادورنا التهديد بفتح تحقيق، عندما اكتشف النية لجعل حاكم المستعمرة وقائد القوات كبش فداء؟". وباختصار: هل كان تاسوني مذنباً أم غير مذنب؟ ولماذا دافع عنه كادورنا بعد أن وجه إليه انتقادات شديدة؟

ولكن الاستعماري لم يكن يستهدف كادورنا وحده، بل استهدف أيضاً تاسوني، وربما أكثر منهما العقيد مياني. فقد كتب: "والآن نأتي إلى قصر بوهادي. لقد كانت في الحقيقة معركة اختلطت بتمرد. لقد خسرنا المعركة. خسرنا تلك المعركة وكانت تلك بداية الانهيار النهائي لإنجازنا الذي كان قد بلغ حداً كبيراً من الضعف. وإن المسؤولية يجب أن تلقى مباشرة على كاهل العقيد مياني، الذي هو رجل ذو عبقرية فذة، ولكنه أناني بشكل مخيف. لم ينتبه إلى الحالة المعنوية التي كان عليها رجاله، الذين انتبهوا جميعهم، إلا هو، إلى حجم الكارثة. ولكن رؤساء مياني، كانوا جديرين بأن يعرفوا صفات الرجل، قبل وربما أفضل من وزير المستعمرات.

لقد كانت الضربة الموجهة إلى مياني موجعة بشكل خاص، ولم يكن بوسع أحد أن يوجهها إليه إلا واحداً من أعدائه الكثيرين. ولكن من يكون ذلك الذي يختبئ وراء الاسم المستعار (استعماري)؟ هل يكون ذلك الغامض غراتسيولي ؟ أم لعله أوتورينو ميتزيتي، الذي لم يغفر أبداً لمياني أنه كان وراء طرده من ليبيا، موجهاً إليه تهماً ثقيلة؟ ولكن من ضمن أعداء مياني كان ثمة وزير المستعمرات السابق مارتيني. ولم لا يكون هو؟ إن الأسلوب الذي كتبت به المقالة يبدو أنه يشير إليه بإصبع الاتهام.

بعد أربعة أيام من نشر هذه الافتتاحية بقلم (استعماري)، عقب عليها الجنرال تاسوني قائلا: "ما الذي يأخذه علي (الاستعماري)؟ فهو يعرف جيداً أن المستعمرة في ذلك الوقت، في منظور إدارة العمليات العسكرية، لم تكن تتبع إلا وزير المستعمرات. لا أقول إن ذلك كان حسناً أو رديئا. وخلال أربعة الأشهر التي قضيتها حاكما، لم أستلم أية أوامر من رئيس الأركان العامة للجيش، رئيس القيادة العامة لجيشنا في ميدان الحرب. لعله كان قد تواصل مع الوزير، وقد يكون سئل، فأبدى وجهة نظره –لا أدري– وأظن أن هذا هو ما حدث. ولكن كل الأوامر والتوجيهات التي استلمتها كانت تحمل توقيع وزير المستعمرات. (...) إن (الاستعماري) يقول: "بعد عودته من إيطاليا تولى الجنرال تاسوني منصباً قيادياً مهماً في الجبهة، وبدا كما لو أنه يعجب من ذلك". والصحيح أنه كان عليه أن يعجب لو حدث العكس. لقد توليت منصباً قيادياً مهما، ولكن إلى جانب ذلك، حصلت على ما قمت به في الحرب التي خضتها دون انقطاع منذ اليوم الأول الذي عدت فيه إلى الوطن وحتى إعلان الهدنة، على ترقية إلى قائد سلاح، ثم إلى قائد الجيش، ما يدل بوضوح، حتى لمن لا يبصر، أن اسمي قد خرج من الحوادث التي وقعت في ليبيا نظيفاً لا تشوبه شائبة".[209]

تاسوني، إذن، ينفي بشدة أن يكون قد تلقى من كادورنا، قبل مغادرته طرابلس، أية تعليمات بخصوص إخلاء حاميات الدواخل. وينفي كذلك أن يكون قد طلب تعزيزات. "لقد كنت أرى أن سحب بندقية واحدة من جيشنا الذي كان يقاتل في جبهة إيطاليا الشرقية هو بمثابة جريمة". ويؤكد أنه لم يأمر مطلقاً بالانسحاب: "لا يسمح لأي حامية في الدواخل أن تنزل الراية من أي مكان رفعت فيه، أو أن تنسحب أمام العدو بدون قتال. وما بقي لدي لواء أو فرقة أو كتيبة، فإني سوف أدفع بها إلى المعركة من أجل شرف الجيش الإيطالي".

وعِوَض أن تبدو الحقائق أكثر وضوحاً بعد مختلف المداخلات، ازدادت تعقيداً. ولم يعد ثمة أي شك: إن واحداً من بين ذوي العلاقة يكذب. ثم زادت القضية تعقيداً عندما تدخل في النقاش، يوم 4 مارس، الجنرال مياني، عبر رسالة طويلة ومفصلة، لم تستثن أحدا. بدأ مياني روايته للأحداث باللحظة التي أرسله فيها مارتيني إلى أفريقيا للمرة الثانية: "في ذلك الوضع الخطر، أمرني الوزير مارتيني، دون رغبة مني، بصفتي قائداً للعمليات الاستعمارية ذا خبرة وتجربة، بأن أعود إلى المستعمرة لتولي مهمة قمع الثورة". ولإنجاز هذه المهمة لم تكن ثمة حاجة لقوات نظامية، فهذه ليست مؤهلة للقيام بعمليات طويلة وخاطفة في الصحراء ضد عدو من أهل البلاد سريع الحركة. أنا على العكس من ذلك طلبت بإلحاح من الوزير أن يمدني بقوات إريترية، كنت أعرف أن بها وحدها يمكنني أن أقوم بحملة عسكرية ناجحة وسريعة. ولكن حججي التي قدمتها بصفتي خبيراً

[209] حوادث سنتي 1914م–1915م. رسالة من الجنرال تاسوني، في "جورنالي ديتاليا"، 27 فبراير 1926م.

قديماً بإريتريا ذهبت أدراج الرياح. وكان من المستحيل حمله على السماح بذلك، أو زحزحته عن رفضه التام. وهنا يكمن لب القضية، وعلى من تقع المسؤولية الحقيقية لفشل الحملة في منطقة سرت، والعجز الذي وجدت فيه المستعمرة نفسها في مواجهة الثورة التي كانت تزداد قوة".[210]

ويواصل مياني مرافعته ضد فيرديناندو مارتيني مشيراً إلى أنه، بعد رفض الوزير تزويده بقوات إريترية، وجد نفسه "مضطراً للقيام بعمليات بواسطة قوات ملفقة تلفيقاً من مزارعين منتزعين من مزارعهم، في موسم حصاد القمح". بهذه المادة البشرية فاقدة الصلاحية لم يكن ممكنا الحصول على أية نتيجة إيجابية: "ولكن هذه كانت رغبة الوزير مارتيني، وينبغي أن تقع المسؤولية كلها على من رفض إمدادنا بالوسائل اللازمة في الوقت المناسب، وأجبرنا على العمل في تلك الظروف السيئة".

وفي رده بعد ذلك على (الاستعماري)، الذي اتهمه بأنه هو المسؤول الوحيد عن كارثة قصر بوهادي، وأنه كان الوحيد الذين لم يفطن إلى خيانة جماعات المجندين غير النظاميين، أكد مياني أن الحاكم تاسوني عبر له، في ذلك اليوم المشؤوم 29 أبريل 1915م، في البرقية رقم 1827 عن "ثقته غير المحدودة"، ولم يبد أنه "قلق من الحالة المعنوية للقوات". ليس هذا فحسب. فقد أرسل تاسوني إلى مياني تقريراً يخبره فيه أن العقيد جانيناتزي خاض في مزدة ووادي مرصيط معركتين ضد المجاهدين بقيادة أحمد السني، وأن غير النظاميين لاذوا بالفرار، بدل أن يكشف له أن المواجهة خلفت 323 بين قتيل وجريح ومفقود، كي يصور ما حدث بأنه نصر عظيم لنا، وربما فعل ذلك كي يشجعني على الاستمرار في حملتي. (...) وقد كان من واجب الحاكم ألا يخفي عني حقيقة ما حدث، وألا يدفعني للهجوم. فعلى العكس من ذلك كان يهدف إلى دفعي لإنهاء العمليات في سرت، كي يرسلني بعد ذلك إلى مزدة، وهذا دون أن يعمل حساباً لحالة التعب التي كانت عليها أفراد قواتي، المتلهفين للعودة إلى مواطنهم لحصاد محصولهم من القمح".

ومواصلاً هجومه على تاسوني، يكشف مياني أنه، وقد كان غير قادر على تزويده بالقوات اللازمة، نصحه بإخلاء الحاميات التي لا تتمتع بدفاعات كافية، كتلك التي كانت في ورفلة وترهونة ومصراتة وزليتن وتاورغا، "كيلا تصبح معرضة للحصار. لكن الحاكم لم يوافقني على رؤيتي هذه، لأنه كان يرى أني، بعد الفشل في قصر بوهادي، بت ميالاً إلى رؤية الموقف أسوأ مما كان عليه في الحقيقة، لأنه كان في طرابلس يرى أن المستعمرة هادئة (البرقية رقم 4781 بتاريخ 4 مايو)". للأسف تبين أن مياني كان محقاً في توقعاته. فقد تم حصار حاميات الدواخل، ولم يكن تاسوني قادراً على إنقاذها، على الرغم من كل الإجراءات غير العادية التي اتخذها.

---

[210] أضواء على حوادث سنتي 1914م و1915م في ليبيا. رسالة من الجنرال مياني الذي نظم وقاد الحملة في فزان، في جورنالي ديتاليا، 4 مارس 1926م.

ويتابع مياني قوله: "الثورة العارمة لم تكن إذن نتيجة للفشل في قصر بوهادي، الذي لم يكن سوى إحدى مراحلها، بل كان مواصلة وتطويراً طبيعياً للثورة، التي تبين أنها تمثل تهديداً كبيراً منذ نهاية 1914م على الحدود الشرقية والجنوبية للمستعمرة، وأنها كانت مثل موجات هائلة من سيل عارم تتقدم، جارفة القبائل التي لم تكن محمية بما فيه الكفاية، بسبب ضعف استعداداتنا وعدم إدراك وزير المستعمرات لحجم الخطر".

وفي ختام مداخلته يشير الجنرال مياني إلى التحقيق البرلماني الذي قام كادورنا بعرقلته، كيلا يكون الوحيد الذي سيدفع الثمن هو الحاكم تاسوني. وعلى كل حال، فبدل أن يتجنب كادورنا الوقوع في مظلمة مفترضة، أثار مظلمة أخرى، وهي تحميل كل الأخطاء التي وقعت على كاهل مياني، الذي علق بقوله: "نعرف كلنا قصة زهرية الطين الواقعة بين زهريات من الزجاج: فلكي تحمي تلك الشخصيات الرفيعة أسماءها، وتغطي على مسؤولياتها، تخلوا عن ذلك الذي ليس بوسعه أن يدافع عن نفسه، وأنكروا عليه حقه في الدفاع، واتخذوا منه جميعهم كبش فداء".

وقد اختتم الحوار الذي تم على صفحات (جورنالي ديتاليا) بتعقيب وزير المستعمرات السابق، الذي يستهل نشاطه كسياسي أديب، بهذه المقولة: "لقد مرت 10 سنوات منذ 1915م: وهي فترة طويلة جداً لسرد الحوادث، ولكنها قصيرة جداً لكتابة التاريخ".[211] ثم يبدأ مداخلته باعتراف واضح: "لقد اعترفت بنصيبي من المسؤولية. إن من أخطأ هو من يمكن أن يجد صعوبة في الاعتراف بخطئه، ولكن ليس من الأمانة التظاهر بذلك. أنا أتحمل مسؤولية الخطأ في التقدير. فمن المؤكد أنه كان من الملائم أن أقترح على مجلس الوزراء منذ سنة 1914م، أن يسحب إلى الساحل كل الحاميات الموجودة في الدواخل. لم أفعل ذلك، لأني كنت أرى أن ذلك الانسحاب سيكون دليلاً على مدى ضعفنا".

بعد هذا التخلص الذكي يهاجم مارتيني الجنرال مياني بعنف، واصفاً تصريحاته بأنها "غريبة: "إنه في الحقيقة يقول إن الذنب كله ذنبي، لأني لم أزوده بالفرق الإريترية التي ظل مراراً يطلبها بإلحاح. نعم لقد رفضت أن أزوده بها؛ (...) ولكنه كان يعرف أننا، نظراً لضعف موقفنا المحايد، لم نكن نستطيع أن نترك إريتريا دون حماية". ثم يوجه إليه الضربة القاصمة: "إذا كان حقاً يعلم أنه بدون مساعدة الفرق الإريترية لم يكن من الملائم القيام بالعملية أصلا، فما كان عليه إلا أن يتوقف عن القيام بها. فمن كان بوسعه أن يجبره عليها؟ (...) فلا أحد يستطيع أن يأمر جندياً أن يذهب لملاقاة العدو بدون سلاح ولا ذخيرة". لقد كان هذا التصريح الصادر من وزير المستعمرات السابق غريباً بالفعل، ولا يليق بشرف الرجل السياسي والأديب. فكيف جرؤ على تصور أن ضابطاً

---

[211] حوادث سنتي 14-1915م في ليبي. رسالة من ف.فورناري، في جورنالي ديتاليا، 8 مارس 1926م.

مثل مياني، بكل ما له من ماض، وما حصل عليه من ميداليات شرف، وما اتسم به من إخلاص مطلق للملكية، يمكن أن يرفض تنفيذ مهمة، مهما حملت من مخاطرة، دون أن يكون قد نكث بالقسم الذي أقسمه بالولاء للملك، وفعل ما يخل بشرفه العسكري؟.

أما الضربة الأخيرة فيوجهها مارتيني إلى الماريشال كادورنا، الذي افتخر بأنه حال دون أن يصل التحقيق حول الوقائع في ليبيا إلى نتيجة: "أما فيما يتعلق بالتحقيق الذي لم يعد أحد يتكلم عنه، عندما تبين أنه سوف يشمل بالاتهام الوزير نفسه، فإني أسمح لنفسي بأن ألاحظ بأن الاتهام بتحريف مسار التحقيق لمصلحته، هي تهمة ينبغي ألا تطلق هكذا بسهولة، دون وجود أي دليل. هذه المرة لدينا الدليل المضاد: "لقد كنت أنا من اقترح القيام بالتحقيق، مع علمي بأنه سوف يشملني أنا أيضاً بالضرورة، ولقد كان من السهل توقع أن يحدث ما حدث بالفعل ولا يزال يحدث حتى اليوم، وهو أن المرؤوسين سوف يسعون للبحث عن أعذار وحجج تعفيهم من المسؤولية من خلال ما يتحدث به الرؤساء".

وبرسالة مارتيني انتهى الجدل المعلن حول الأحداث في طرابلس. وربما كنا قد بتنا على بعد خطوة من الحقيقة، ولكن كانت لا تزال هناك وقائع بحاجة إلى توضيح، وتصريحات لابد من التأكد منها، ووثائق في انتظار أن يكشف عنها. وعلى الرغم من أن مياني، اضطر لتحمل الكثير من الهجوم والاعتراض، فإن الجدل مثل بالنسبة له، على كل حال، شيئاً إيجابيا. فأخيراً بات بإمكانه أن يعبر عن نفسه، وأن يعلن روايته للأحداث، وأن يسمع صوته، بعد مرور 10 سنوات من الصمت. الآن أصبح على علم برواية رؤسائه وخصومه. وسعد كثيراً إذ تأكد له أن تلك الروايات كانت هشة وضعيفة ومتناقضة، وتشوبها الكثير من الثغرات في بعض أجزائها، بل إن بعضها يشوبه التزوير.

المعركة الأخيرة (معركة الرسائل):

الأصداء الواسعة التي أحدثها الجدل، والدعم الذي لقيه أنتونيو مياني من زملائه وأصدقائه، شجعه على خوض معركته الأخيرة عن طريق الرسائل والمذكرات. فبين 13 مارس و2 سبتمبر 1926م أرسل حوالي ثلاثين رسالة إلى كبار ضباط الجيش، مثل الماريشال لويجي كادورنا والجنرال بيكوري جيرالدي وجارديني، والجنرال وكيل وزارة الداخلية أتيليو تيروتسي، والجنرال وعضو مجلس الشيوخ كارلو بورو دي سانتا ماريا، ووزير المستعمرات الأمير لانسا دي سكاليا، ووزير الحربية بينيتو موسوليني. الآن وقد بات يشعر أن بوسعه أن يتكلم، لم يعد قادراً على أن يتوقف عند حد، بل بلغ أحياناً في بعض رسائله أن تجاوز الحد المقبول، حتى أن بيكوري جيرالدي، الذي كان يقدره

واهتم كثيراً بإعادة الاعتبار إليه، وجد نفسه مضطراً للتدخل، في أكثر من مناسبة، كي يجعله يخفف من لهجته ويتراجع عن بعض تصريحاته. ومع أن تلك الحدة التي اتسم بها مياني كانت غير مقبولة، إلا أنها يمكن تفهمها. لقد التزم الصمت لمدة عشر سنوات، وهي كثيرة جداً بالنسبة لجندي يشعر بأنه افتُرِي عليه بدون وجه حق.

الرسائل الأولى كانت موجهة إلى الماريشال كادورنا، الذي كان قد أصدر في كتابه أحكاماً بالغة القسوة تجاه مياني، محملاً إياه عملياً كل المسؤوليات، دون الاستناد إلى أية وثيقة، معتمداً فقط على ذاكرة بعض الضباط. وكان لدى مياني حججاً قوية بنى عليها قوله في رسالته بتاريخ 9 مارس: "إن التحقيق، كما تؤكدون سيادتكم، لم يصل إلى نتيجة، وقد نجحتم سيادتكم في تجنب إلحاق ضرر بالحاكم، ولكنكم لم تروا أن من الملائم تجنب إلحاق الضرر بي أنا، وقد كنت أتحمل مسؤوليات أقل أهمية من تلك التي يتحملها هو، وقد حكمتم بأن أتحمل أنا الضربة، ولم تسمحوا لي بأن أؤدي واجبي في جبهة القتال، كما طلبت ذلك مراراً وبإلحاح من القيادة العليا ومن الوزير".

وفي موقع آخر من تلك الرسالة الطويلة يؤكد مياني: "وإذا كنتم سيادتكم ترون أني ارتكبت أخطاء جسيمة في ليبيا، فإن ذلك لا يرجع إلا إلى الأحكام غير المحايدة والفردية التي أصدرها الجنرال تاسوني والوزير مارتيني، اللذان أرادا، بإلقاء كل المسؤولية عن الفشل علي، إخفاء مسؤولياتهما الأكثر خطراً. وإضافة إلى ذلك، فقد أراد الوزير مارتيني، الماسوني الكبير، من خلال إنزال العقاب بي أنا، معاقبة ذلك الذي اقترح وألح على إحالة اثنين آخرين من شخصيات الماسونية على التحقيق، هما الملازمان ميتزيتي وفالنتيني. (...) إن يد الماسونية طويلة، ولا تغفر أبداً...".[212]

في هذه الأثناء تمكن مياني من اقتناء نسخة من كتاب كادورنا، وعند قراءته، شعر بغضب شديد، فتحدث عنه مع بيكوري جيرالدي في رسالة بتاريخ 22 مارس قائلا: "أعترف بأني شعرت بألم شديد لملاحظة كيف أن شخصية سامية بهذا المستوى تعرض وقائع تاريخية بطريقة خاطئة بهذا الشكل، وكثيراً ما تكون مخالفة تماماً للحقيقة"؛[213] ولعل ما خلف لديه أسوأ الأثر أن كادورنا اختزل احتلال فزان في سطرين جافين: "خلال هذه المسيرة لاقى مائة من المتمردين المسلحين، يعترضون طريقه، وانتصر عليهم في ثلاث معارك".[214] عند هذا الحد لم يعد مياني قادراً على امتلاك زمام نفسه: "لقد التزمت الصمت لعدة سنوات من أجل الوطن، وربما ظللت هكذا، لو لم يظهر صوت في مثل هذا المستوى ليهينني. إن من واجبي أن أرد، سواء من أجلي أو من أجل

---

[212] أ.م.ل.م.، مراسلات العشرينيات، رسالة على ورق رسمي لبلدية فراسكاتي.

[213] نفسه، رسالة على ورق رسمي لبلدية فراسكاتي.

[214] ل. كادورنا، مرجع سابق، ص 48.

من كان رفيقا ومساعداً مخلصاً لي، وأنا مصمم على بلوغ أقصى حد ممكن كي أكشف الحقيقة وأنال ما أستحقه من إنصاف".[215] ثم أوضح لبيكوري أنه ينتظر أن يكتب كادورنا الفصل الكامل المخصص لليبيا.

وفي هجومه الموسع عبر الرسائل كتب مياني أيضاً إلى الجنرال السناتور الكونت كارلو بورو دي سانتا ماريا، الذي عمل خلال الحرب العظمى تحت رئاسة كادورنا. يقول في رسالته بتاريخ 3 أبريل: "إني أشعر بأن الضباط الذين شاركوا في الحملة على فزان، يمسهم هذا الهجوم أكثر مما يمسني. فمنذ أيام قليلة سعادة الأمير غونزاجا، الذي شارك معي ابنه الملازم في سلاح المدفعية في جميع المعارك، ذكرني بأن من واجبي أن أكشف الحقيقة حول ما قام به الضباط من أعمال تستحق التقدير". من بين هؤلاء ذكر مياني الملازم السابق أتيليو تيروتسي، الذي أصبح يشغل منصب وكيل وزارة الداخلية، وقد تولى أثناء معركة محروقة، على الرغم من إصابته في إحدى ذراعيه، قيادة فرقة من الإريتريين، كان لتدخلها أثر حاسم في قلب موازين القوة، وتحقيق النصر. "إنه بدوره يحتج على الأحكام التي أطلقها صاحب السيادة كادورنا، ويدعوني لكشف الحقيقة".[216]

في 5 أبريل كتب مياني من مدينة بوردينوني، التي نقل إليها لتولي منصب مساعد مفوض، للمرة الثالثة إلى كادورنا رسالة كانت لهجته فيها شديدة الحدة: "لقد اطلعت على ما كتبتموه سعادتكم حول الأحداث التي وقعت في طرابلس بين 1914م–1915م، ولتسمحوا لي بأن أقول إن ثمة الكثير من الأخطاء الجسيمة في العرض التاريخي للأحداث، ومن ثم في الأحكام التي بنيت عليه، وهو ما يمكنني أن أبينه بسهولة، من خلال البرقيات المتبادلة مع حكومة طرابلس".[217]

وبعد وصول رسالة من الجنرال بورو، تفيد باستعداد كادورنا لفتح تحقيق يتيح لمياني إعادة اعتباره،[218] وصلت أخيراً إلى يدي مياني إجابة كادورنا على رسائله الأولى إليه. وقد جاء في هذه الرسالة، التي كتبت بنفس أسلوب كادورنا المعتاد بنعومته ودبلوماسيته، من ضمن ما جاء فيها: "لا أحسب مطلقاً أني عاملتك بقسوة كما تقول في رسائلك، كما أني لا أذكر أني اقترحت عزلك من القيادة التي كانت قد أسندت إليك. وإني أدعوك لأن تسأل بهذا الخصوص الجنرال بورو، الذي كتب إلي قائلا: "إني أذكر استدعاء مياني مرة أخرى إلى الخدمة وتعيينه في الجيش الأول. لا أذكر سبب إبعاده عن منطقة القتال، ولا من أصدر الأمر بترقيته، وأستبعد أن يكون ذلك قد تم

---

[215] أ.م.ل.م.، مراسلات العشرينيات.

[216] نفسه، رسالة بتاريخ 3 أبريل 1926م على ورق رسمي لبلدية بوردينوني.

[217] نفسه، رسالة بتاريخ 5 أبريل 1926م على ورق رسمي لبلدية بودينوني.

[218] نفسه، رسالة بتاريخ 30 مارس 1926م على ورق رسمي لمجلس شيوخ المملكة.

بأمر منك". وأحسب أن الجنرال بورو يمتلك مثلي ذاكرة قوية. هذا ما يمكنني أن أقوله لك في الوقت الحاضر، وإذا رأيت أن تطلب فتح تحقيق حول عملك في أفريقيا فإني سوف أؤيد ذلك".

لم يكتف فقط بإبداء الاستعداد لمساعدة مياني، بل إننا نجده يغير في نهاية الرسالة حتى ذلك الحكم القاسي الذي كان أصدره على مياني: "ولا أملك إلا أن أعلن أني إن كنت قد حكمت على حملة فزان بأنها كانت مجازفة متهورة، فإن المسؤولية الكبرى تقع على كاهل وزير المستعمرات الذي أمر بالقيام بها، ولكن الحملة تمت بطريقة جيدة. ولا أحد يستطيع أن يشكك في سلامة العمل الذي قمت به، وتكفي لإثبات ذلك إنجازاتك السابقة، والنياشين التي حصلت عليها تقديراً لها. وبالطبع يمكن أن نلاحظ أن رفض مارتيني تزويدك بالفرقة الإريترية، كان يخولك أن تقدر عدم إمكانية إنجاز المهمة، وفي جميع الأحوال لم يكن من الملائم أن تثق في المجموعات التي لم يكن أحد يثق في ولائها. ملاحظة أخرى: لقد قصدت ألا أشير إلى التحقيق البرلماني، وأشرت إلى ما اقترحه مارتيني على سالاندرا، كي يلقي المسؤولية الكاملة عن الكارثة على كاهل الجنرال تاسوني. ولقد رفضت تماماً فكرة جعل الجنرال تاسوني كبش فداء تلقى عليه مسؤولية الأخطاء التي يتحملها كلاهما".[219]

لقد أوضح الماريشال كادورنا برسالته هذه أنه كان متعاطفاً مع قضية مياني، ولكن إغفاله بعض الجوانب المتعلقة بطرده من الجبهة، لم يكن بالإمكان ألا أن يثير غضب مياني، الذي كان يرى أن تلك الإهانة التي وجهت إليه تمثل جرحاً يصعب علاجه. وهكذا فعوض أن يرد على كادرونا برسالة شكر، اندفع يهاجمه بكل عنف، مشيراً إلى وقائع وتواريخ وشهود من شأنها أن تجعل الماريشال وظهره إلى الحائط: "لن يكون من الصعب على سيادتكم العثور في أرشيف القيادة العليا على الملفات المتعلقة بي، في الفترة من يونيو إلى سبتمبر 1917م، والمراسلات التي تمت بين تلك القيادة وقيادة الجيش الأول، والتي توجت برسالة بتاريخ 27 سبتمبر 1917م، تعلن فيها سيادتكم أنكم، وقد كنتم مضطرين لإصدار أمر بإبعادي عن الخدمة، بسبب الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها في ليبيا، فإنه لم يعد ممكناً السماح لي، أنا الذي تم استدعائي من الإجازة، بتولي قيادة اللواء فالارسا، وهي قيادة بالغة الأهمية على خط الجبهة الأمامي، وأمرت بوضوح بأن أعفى من تلك القيادة وأن أعاد مرة أخرى إلى مدينتي. هذا الأمر الذي جاء لإبلاغي به في أنغيبيري (Angheberi)، سعادة الجنرال زوبي، قائد الجيش الخامس، الذي حرص على أن يعبر لي شخصياً عن استيائه لرحيلي، وأن يؤكد لي أنه لم يقم من جانبه بأي خطوة لدعم صدور مثل ذلك الأمر. (...) أما عن معاملة سيادتكم القاسية لي، وإصداركم الأمر بإبعادي عن القيادة التي كانت

[219] نفسه، رسالة من فلورنسا على ورق رسمي لمجلس شيوخ المملكة.

قد أوكلت إلي، فيمكنك التأكد منه في فلورنسا لدى سيادة الجنرال الكونت بيكوري جيرالدي، الذي تذكره جيدا".

الآن وقد انطلق مياني في اتجاه الهجوم، لم يعد بوسعه أن يضبط نفسه. يقول إنه يشعر بالإهانة لشرفه جندياً وقائدا، جراء الهجوم "العنيف" الذي شنه عليه كادورنا، ثم يضيف: "وبعد توضيح الحقائق حول الوثائق الرسمية التي يمكنني أن أبرزها في سياق دفاعي، أرجو من سيادتكم إعادة النظر فيما تضمنه كتابكم من مساس بشرفي، والتسليم بأني قد تعرضت بدون وجه حق وبشكل مبالغ فيه كثيراً للأذى، بقطع مسيرتي المهنية، في الوقت الذي كنت أحسب أني، بفضل ما أثبتُّه من جدارة في العديد من المواقف، قد أمنت تلك المسيرة، وذلك بمنعي من أداء واجبي في الوطن، وعدم السماح لي بالمشاركة في الحرب".

فيما يلي من الرسالة يعترض مياني بالتفصيل على تصريحات كادورنا حول الأحداث الليبية، فيقول: "فلتسمح لي سيادتكم بألا أتفق معكم على الحكم الذي تصدرونه، كما لو أنه تأكيد لذلك الذي قال به سعادة النائب مارتيني، من أني كان بوسعي أن أقرر عدم إمكانية تنفيذ العملية، وأني، على كل حال، لم يكن يجدر بي أن أثق في المجموعات التي لم يكن أحد يثق فيها.

في شهر فبراير 1915م كنت قد وصلت إلى ميلانو منذ بضعة أيام، بعد إعادتي إلى الوطن من فزان، ولم ألبث أن تم استدعائي إلى مكتبي القديم، حيث طلب مني بإلحاح سيادة مدير مكتب جلالة الملك في الجيش الأول أن أقبل القيام بمهمة نائب مدير المكتب، وهو ما قبلته بكل سرور ورضا. عندما وصلتني برقية سعادة الوزير مارتيني، كنت طريح الفراش، أعاني من حمى شديدة. ذهبت على الفور إلى روما وأخبرته بأني لا نية لي مطلقاً في العودة إلى المستعمرة، لأسباب تخصني؛ لكن الوزير ألح، وأضاف أنهم لا يجدون ضباطاً لهم خبرة بالعمليات في المستعمرات مثلي، ومن ثم فنظراً لخطورة الموقف القصوى، لم يكن أمامي إلا التنازل عن قراراتي، وقمع مشاعري، وأمام ذلك الإلحاح والرجاء الذي قدمه إلي باسمه، وباسم الحكومة، وباسم الوطن، لم يكن بوسعي –أنا الجندي– أن أرفض، وقبلت على مضض".

من جهة أخرى يؤكد مياني أنه تم خلال اللقاء مع مارتيني الحديث عن الفرق الإريترية، وهو ما نفاه الوزير: "لقد كان مصراً على موقفه؛ إذ قال إن تكوين الفرق العسكرية هو من اختصاص الحاكم، ولكني أنفي بشدة أن يكون قد تم حديث عن تكوين جماعات مسلحة. (...). فهذه الجماعات اضطررت لتكوينها في طرابلس، بأوامر من الحاكم تاسوني. (...) وقد استقبل الحاكم الزعماء الذين كلفوا بتشكيل تلك الجماعات، وأقسموا بين يديه، وبحضور العقيد كيوسي، رئيس المكتب السياسي العسكري، يمين الولاء، شفاهة وكتابة؛ ومن ثم فلا صحة لما تقوله سيادتكم في السطر الأول من الصفحة 69 من أني قد ذهبت إلى طرابلس ومعي برنامج تكوين الجماعات، ومن ثم

فإن المسؤولية كلها تقع على كاهلي وحدي. وبعد إصدار أوامره لي بأداء عمل من أعمال الحرب، فرض علي الحاكم الطريقة لتنفيذه، وأنا لم أفعل سوى تنفيذ الأمر. فهل كان بوسعي أن أرفض؟ وعلى من تقع المسؤولية؟ على من يصدر الأمر، أم على من يطيع وينفذ؟."[220]

وعلى الرغم من الهجوم الذي وجه إليه، كان رد الماريشال كادورنا فوريا، واتسم بقدر غريب من الاعتدال والمصالحة. فبعد أن أكد لمياني أنه لا يذكر "الإجراءات التي اتخذت حياله خلال الحرب"، لم يبق أمامه إلا العودة إلى تصريحاته، ثم يضيف: "لقد اقترحت عليك أن تطلب من الوزير أن يفتح تحقيقا، فلجنة تحقيق هي وحدها المخولة بمساءلة الأشخاص، والاطلاع على وثائق الأرشيف، ثم تلخيص كل العناصر اللازمة لإصدار الحكم، وليس من صلاحياتي أن أحل محل هذه اللجنة. ولكن إذا كنت لا تنوي طلب فتح تحقيق، فيظل بوسعك أن تصحح، من خلال ما تنشره، ما بدر حيالك سواء مني أنا أو من آخرين. وسوف يسعدني كثيراً، أنا الذي لا أحب شيئاً غير الحقيقة، أن تظهر الحقيقة إذا ما كنتُ قد وقعتُ دون إرادة مني في أي خطأ".[221]

في الأسابيع التالية قام مياني بمراسلات عديدة مع بورو وبيكوري جيرالدي، اللذين تطوعا بمساعدته ودعم طلبه لفتح تحقيق، مراجعين في ذلك وكيل وزارة الحربية الجنرال اوجو كافاليرو، وصولاً إلى موسوليني نفسه. لقد كان هذان الجنرالان مستعدين حتى لإقحام وكيل وزارة الداخلية تيروتسي في القضية، بهدف توسيع جبهة المؤيدين لمياني.[222] في 28 أبريل أخبر مياني بكوري جيرالدي أنه أرسل طلباً إلى وزير الحربية لفتح التحقيق، وأكد له أنه التزم فيه "بأكبر قدر من الموضوعية، محجماً عن الدخول في أية منازعة"،[223] لكن بقية الوثيقة، التي اطلع بيكوري جيرالدي على نسخة منها، تم حجبها بإصرار من قبل قائد الجيش. لقد اعتبرها طويلة جداً، وطلب من مياني أن يختصرها، وأن يحذف منها بعض المفردات والعبارات التي يعدها قاسية".[224] وبعبارة أخرى اقترح على مياني أن يكتب نصاً آخر. وكما نفهم من رسالة وجهها مياني إلى بورو، أنه قبل كل الاقتراحات، وسافر بدوره إلى روما لكي يسلم بنفسه الوثيقة الجديدة إلى الوزير.

هذه الوثيقة الموجهة إلى رئيس الحكومة ووزير الحربية بينيتو موسوليني كانت مكونة من قسمين: في القسم الأول يعرض مياني دوافعه لطلب إعادة النظر في حكم صدر في الماضي

---

[220] نفسه، رسالة من بوردينوني بتاريخ 6 أبريل 1926م.

[221] نفسه، رسالة من فلورنسا بتاريخ 19 أبريل 1926م على ورق رسمي لمجلس شيوخ المملكة.

[222] نفسه، تنظر الرسائل التي أرسلها بورو من روفيللو، بتاريخ 12 و27 أبريل 1926م، ورسائل بيكوري جيرالدي من فلورنسا بتاريخ 12 و27 أبريل 1926م. بيكوري جيرالدي يبلغ مياني بأنه قابل كادورنا مرتين، وأنه جدد التعهد بمساعدة مياني إذا ما تقدم بطلب لفتح التحقيق.

[223] نفسه، رسالة من بوردينوني، بتاريخ 6 مايو 1926م.

[224] نفسه، رسالة من فلورنسا، بتاريخ 6 مايو 1926م.

ضده، ويعرض أن يقوم "في تقرير مفصل وشامل ومخلص" بإعادة ترتيب الوقائع التي كان طرفاً فيها في فزان وسرت. أما في القسم الثاني من الوثيقة فيقدم قائمة بالوثائق التي يحتاج إليها كي يتمكن من توسيع تقريره، وهي وثائق محفوظة في أرشيف وزارتي الحربية والمستعمرات، وأرشيف حكومة طرابلس. ويختم مياني بقوله: "وإني إذ أعبر عن ثقتي في حسن استقبالكم لطلبي هذا، وأحسب أنه سوف يكون في صالح الحكومة، للتمكن من معرفة الحقيقة حول عمليات استعمارية بهذه الأهمية، اسمحوا لي بالتعبير سلفاً عن جزيل شكري".[225]

ومن رسالة أرسلها مياني إلى زوجته لاورا، بتاريخ 22 مايو، من روما التي ذهب إليها ليحمل بنفسه تلك الوثيقة، ويتأكد من وصولها إلى كافاليرو وموسوليني، نعلم أن الجنرال قد نجح في الحصول على "مقابلة طويلة" مع كادورنا، إذ يقول: "لقد كان لطيفاً معي جدا، وأبدى تجاهي الكثير من التقدير. (...) لقد أكد لي أنه شخصياً يثمن عالياً حملتي في فزان (...) واعترف بكل الأخطاء التي ارتكبها تاسوني ومارتيني (...). هو أيضاً يرى أن تلك المقالة الموقعة باسم (استعماري) هي من وضع مارتيني، بهدف التخلص من مسؤولياته وتحميلها على كاهل تاسوني وعلى كاهلي". وأخيراً وعد كادورنا بدعم قضية مياني لدى كافاليرو، وإذا لزم الأمر، حتى لدى موسوليني.[226]

كل شيء كان يبدو إذن أنه يسير سيراً حسنا. فقد بات بوسع مياني أخيراً أن يحصل على دعم ماريشالات وجنرالات من قادة الجيش، ووكلاء وزارات، كلهم متجاوبون مع روايته للأحداث، بل إنهم أنفسهم كانوا ممن اقترحوا فتح التحقيق الذي كان يفترض أن يكشف الحقيقة حول الوقائع الأفريقية. ولكن مرة أخرى يبدو أن القدر كان يتكالب على مياني. فمن رسالة أرسلها إلى جولييلمو بيكوري نعلم في الحقيقة أنه قابل الجنرال كافاليري في 27 مايو، وفيها يقول: "لقد أكد لي اهتمامه البالغ لتحقيق ما فيه مصلحتي، بناء على معرفته بسوابقي خلال مسيرتي المهنية وما حققته من إنجازات. ولكيلا يتركني أنساق كثيراً مع الأوهام، قال لي إنه نظراً للطلبات العديدة التي تقدم بها ضباط لإعادة النظر في أوضاعهم، على أثر نشر قانون جورجو بتاريخ 31 مارس 1925م، فقد أصدر سيادة الوزير موسوليني أمراً صارماً بعدم قبول أي طلب من هذا النوع (...) بل إنه أمر بإغلاق الأرشيف وختمه نهائيا".[227]

عند هذه النقطة من القصة يأتي تلقائياً التساؤل عن إمكانية أن يكون كل المتعاطفين مع مياني في قيادة الجيش العليا وفي مجلس شيوخ المملكة يجهلون أمر قانون دي جورجو، الذي لم يكن قد مر عليه أكثر من عام واحد. وإذا كانوا على علم بهذه العقبة الكأداء، فلماذا أوهموا مياني

---

[225] نفسه، تحمل الوثيقة تاريخ: بوردينوني 19 مايو 1926م.

[226] نفسه، رسالة بتاريخ 22 مايو 1926م على ورق رسمي لفندق ماسيمو دازيليو.

[227] نفسه، رسالة من روما بتاريخ 1 يونيو 1926م.

وحثوه على أن يطلب فتح تحقيق، كانوا يعلمون أنه لن يفضي إلى أي نتيجة. لكن مياني لم يترك نفسه، إزاء هذه العقبة غير المتوقعة، يذهب ضحية القلق، فطلب من بيكوري جيرالدي أن ينضم إلى كادورنا وبورو لاتخاذ خطوة ما لدى موسوليني. وانتهز فرصة لقاء غير مرتب له في روما مع أحد زملائه القدامى، هو جايتانو جاردينو، الذي كان قد بلغ أعلى رتبة في الجيش، وهي رتبة الجنرال، فطلب تدخله أيضاً للتغلب على تلك العقبة".[228] وفي النهاية أرسل مياني إلى وكيل وزارة الداخلية تيروتسي مذكرة طويلة، يختمها بهذه العبارة التي لم يكن من السهل على مياني أن يتفوه بها، إذا علمنا أن تيروتسي كان يعمل تحت قيادة مياني ضابطاً برتبة ملازم: "وهكذا فهل تتكرم سيادتكم بمساعدتي ودعمي في هذه القضية؟ وهل تتفق سيادتكم مع أصحاب السيادة المذكورين للقيام بخطوة من أجلي لدى صاحب السعادة الوزير الرئيس؟".[229]

لكن العقبات لم تنته عند هذا الحد. أبلغ الجنرال كافاليرو مياني أن مذكرته "بخصوص طلب التكليف بمهمة تحرير التقارير، هي من اختصاص وزير المستعمرات، لا وزير الحربية".[230] وهكذا وجد مياني نفسه في 18 يونيو مضطراً للتوجه إلى وزير المستعمرات، بييترو لانسا دي سكاليا، كي يعيد الطلب الذي كان قد وجهه إلى وزير الحربية. وفي هذه المناسبة قدم مياني إلى الوزير بعض الإشارات المهمة حول العمل الذي ينوي القيام به، لم تظهر في أي من الوثائق الأخرى. يقول: "هذا العمل الذي لا يمكن أن يقوم به أي مكتب ولا أي شخص آخر، من جهة أني كنت، خلال الحملات المختلفة، أقوم بنفسي بإعداد كل المعاملات ذات الصلة بالقيادة، سواء أكانت عسكرية أم سياسية، وقمت بنفسي بدراسات وملاحظات، ووضعت خرائط وجمعت بيانات ومعلومات، بواسطتها يمكنني أن أنجز العمل، بكل تفاصيل أجزائه المختلفة، وأثريه، عند اللزوم، بالعديد من الصور الفوتوغرافية، التي قمت بالتقاطها بنفسي، بهدف الدراسة، والتي سيكون من شأنها أن تضيف إيضاحات إلى العمل وتبين أهميته. وبينما يستطيع وزير الحربية أن يستخلص عناصر مفيدة لدراسة العملية الاستعمارية المهمة التي تم إنجازها، سيجد فيها وزير المستعمرات تناولاً موثقاً للظروف السياسية والاقتصادية والجغرافية لإقليم الدواخل البالغ الأهمية، الذي لا تزال معلوماتنا عنه حتى الآن شحيحة وغير دقيقة، وسوف يكون مفيداً للحكومة إذا ما قررت في مستقبل قريب أو بعيد أن تعيد احتلال إقليم فزان".[231]

---

[228] نفسه، رسالة بتاريخ 14 يونيو 1926م إلى سعادة الجنرال جاردينو جايتانو، عضو مجلس الشيوخ.

[229] نفسه، رسالة من روما بتاريخ 7 يونيو، من ثماني صفحات، موجهة إلى النائب أتيليو تيروتسي، وكيل وزارة الداخلية.

[230] نفسه، رسالة من مياني إلى بيكوري جيرالدي بتاريخ 8 يونيو 1926م.

[231] نفسه، رسالة على ورق رسمي إلى مفوض المملكة في بودينوني.

ولقد كان بوسع مياني، بما عرف به من مواهب أصيلة، أن ينجز عملاً ممتازا، على الرغم من أن علينا أن نضع في اعتبارنا أيضاً ما كان يتصف به من حب الظهور. ذلك العمل الذي كان سيستفيد منه بادوليو وغراتسياني بعد ذلك بسنتين عندما اتخذ القرار بإعادة احتلال فزان، لكن مياني لم يتمكن من إنجاز هذا العمل. والبداية كانت في 29 يوليو 1926م عندما أخبرت وزارة المستعمرات الجنرال بما يلي: "إن الوزارة لم تستلم بعد الطلب الذي تقدمتم به إلى وزارة الحربية، لتكليفكم رسمياً بإعداد التقرير عن العمليات العسكرية التي توليتم قيادتها في سنوات 1913م، 1914م، 1915م. هذه الوزارة تلتزم بفحص هذا الطلب حالما يتم تحويله إليها، وإبلاغ سيادتكم بما تتخذه من قرارات".[232]

في 2 سبتمبر كان الطلب لا يزال متوقفاً لدى وزارة الحربية، ووجدنا مياني، الذي أخذ يشعر بالإجهاد والتعب، يكتب إلى الجنرال تيروتسي، الذي كان يعمل تحت قيادته في الماضي، يرجوه أن "يكمل العمل الذي تم البدء فيه"، بأن يطلب من كافاليرو إرسال الوثيقة. وفي هذه الرسالة نفسها يخبر مياني وكيل وزارة الداخلية، الذي كان مرشحاً لأن يفقد وظيفته كمفوض في بوردينوني بسبب بعض الخصومات الشخصية في الرابطة الفاشية داخل المدينة.[233] وهذا ما تحقق بالفعل. وإن كانت قد تمت محاولة لتعويض هذه الإهانة بتعيينه في 1928م مفوضاً مكلفاً بمهام عميد البلدية في قرية كوليكو الصغيرة، في محافظة كومو.

وبحلول 2 سبتمبر 1926م كان مياني قد استنفذ قدرته على الصراع، كما استنفذ صبره في انتظار أي تطورات لصالحه. ومع أن أوراقه كانت منظمة بطريقة جيدة، إلا أن ثمة وثائق حول القضية ناقصة. وعلى كل حال نعرف عن طريق كاتب سيرته والمعجب به العقيد فورناري أن وزير المستعمرات قرر أخيراً تكليف مياني بالعمل، ولكن "على أن يقوم بذلك مجاناً، حتى أثناء العمل الطويل الذي سوف يكون لازماً لتصفح وثائق الوزارات، وأن يتحمل مصاريف إقامة طويلة في العاصمة".[234] وبالطبع لم يكن بوسع مياني أن يتخلى عن مهامه الوظيفية، كما لم يكن بمقدوره أن يوفر المصاريف الباهظة التي يتطلبها الانتقال إلى روما. وهكذا تخلى عن مشروعه. ما أرضى الموظفين الإداريين في وزارة المستعمرات، وأرضى كذلك اثنين ممن لم يكن بالإمكان المساس بهما: الجنرال تاسوني والسناتور مارتيني.

لكن خيبات الأمل بالنسبة لمياني لم تكن قد انتهت بعد. في يونيو 1926م علم أن كورادو زولي كان على وشك نشر كتاب حول فزان، وأنه ينوي إثراءه بالصور التي التقطها هناك، فارتكب

---

[232] نفسه، تحمل الرسالة توقيع ريكاردو أستوتو، من الإدارة العامة للشؤون السياسة والإدارية.

[233] نفسه، رسالة من بوردينوني، بتاريخ 2 سبتمبر 1926م.

[234] ج. فورناري، مرجع سابق، ص 62.

مياني خطأ فادحاً بإرسالها إلى ذلك الحاكم الصحفي. ففي 15 يونيو نجد مياني يكتب إلى الكومنداتور جيليو، المسؤول في المتحف الاستعماري، وهو الذي قام بنشر كتاب زولي، قائلا: "إني أحتج على نشر صوري والملاحظات التي دونتها بنفسي عليها، وإني قررت أن أطالب بحقوقي بالطرق القانونية، لمنع الاستغلال السيئ لوثائقي الخاصة".[235] بيد أن زولي الذي كان آنذاك يتولى منصب المفوض السامي لجوبا العليا، والذي سوف يصبح في 1928م حاكماً لإريتريا، تجاهل تهديدات مياني تماماً وضمن كتابه (في فزان: ملاحظات وانطباعات مسافر) اثنتين وعشرين من أجمل الصور التي التقطها الجنرال، دون أي إشارة إلى ملكيته إياها.

[235] أ.م.ل.م.، مراسلات العشرينيات، رسالة مسجلة مع علم الوصول مرسلة من بوردينوني.

الفصل الثامن

امرأة ضد كادورنا

خيبة الأمل الأخيرة:

في هذه الأثناء كانت الاستعدادات تجري لإنجاز الاحتلال الكامل لمناطق الدواخل. في 24 يناير 1929م وجه الماريشال بادوليو، وكان قد تولى منذ قليل مهمة الحاكم العام لطرابلس وبرقة، نداء إلى الليبيين، اتسم بلهجة تهديد فجة، جاء فيه: "إنكم جميعاً يا سكان طرابلس وبرقة تعرفون حكومة إيطاليا منذ سنوات عديدة، وتعرفون أنها حكومة عادلة وخيرة تجاه أولئك الذين يخضعون بإخلاص للقوانين وللأوامر، ولكنها عنيدة ولا رحمة لديها تجاه تلك القلة من سيئي النوايا الذين يحسبون أنهم قادرون على مواجهة قوة إيطاليا التي لا تهزم".[236]

تم إنذار المجاهدين الذين كانوا لا يزالون يحملون السلاح. وتبين أن الإنذار كان هذه المرة جديا. كانت أول خطوة إبلاغ بادوليو موسوليني بضرورة احتلال فزان لهذه الأسباب:

1) أن أي منطقة ليست تحت سيطرتنا سوف تصبح عما قريب ملجأ لكل المنشقين، وبؤرة للتمرد.
2) أننا لا نستطيع مواصلة الادعاء بأن لنا مستعمرة، ونحن لا نسيطر إلا على نصفها فقط.
3) ليس من الممكن مواصلة المفاوضات مع فرنسا فيما يتعلق بحدودنا الجنوبية، ما لم نكن قادرين على الأقل على احتلال كل ما تم الاعتراف لنا به، وعلى ضمان أن يسود في هذه الحدود المعترف بها الأمن والهدوء".[237]

وبعد أن استلم من رئيس الحكومة الموافقة على التحرك في فزان، أصدر بادوليو أوامره بنزع السلاح تماماً في إقليم القبلة، التي كانت قد احتلت منذ وقت قصير، ثم كلف الجنرال غراتسياني بمهمة الهجوم على براك، متبعاً المسار نفسه الذي سار فيه مياني. لكن غراتسياني كان تحت إمرته أربعة آلاف رجل، كلهم راكبون، على جياد أو مركبات آلية، ويتمتعون بحماية الطيران، وبدعم لوجستي لم تشهد ليبيا له مثيلاً من قبل. بدأت الحملة لإعادة احتلال فزان كله في 28

---

[236] "مجلة المستعمرات"، 3 مارس 1929م، ص 296.

[237] أ.ت.و.أ.إ، ليبيا، مجموعة 6/150، ملف 10، رسالة بتاريخ 1 أبريل 1929م.

نوفمبر 1929م، وانتهت في 14 فبراير 1930م بتفكيك الجماعات التابعة لعبد النبي بلخير ومحمد بن الحاج حسن، الذين أرغموا على الابتعاد حتى الحدود الجزائرية.[238]

وقبل أن تبدأ العمليات العسكرية في ليبيا وصلت إلى الجنرال مياني رسالة من جوزيبي بورجيتي رئيس تحرير صحيفة (إيطاليا الاستعمارية) يطلب منه فيها أن يرسل إليه صورة شخصية له، ليرفقها بمقالة حول الحملة المرتقبة في فزان، تنوي الصحيفة نشرها. وفي هذه الرسالة كتب بورجيتي: "إن العملية الرائعة التي كنت قائداً لها وأنجزتها بمهارة وجدارة تستحق أن تستذكر مثالاً ودرساً ثمينا".[239] وقد ولدت الأخبار حول نية إيطاليا إعادة احتلال فزان في مياني جملة من المشاعر المتناقضة. فمن جهة كان يشعر بالرضا لعودة فزان إلى سلطة إيطاليا، ومن جهة أخرى لم يكن يستطيع ألا يعقد مقارنة بين الإمكانات التي كانت متوفرة لديه سنة 1913م، وتلك التي توفرت لغراتسياني بعد ذلك بستة عشر عاما. هذه المقارنة التي كانت كثيراً ما تثير لديه نوعاً من الألم، كانت تقترن بمقارنة من نوع آخر: بين الصمت المطبق الذي أحيطت به حملته في فزان، وهذه الضجة الدعائية التي أطلقها النظام الفاشي حول الإنجاز الذي حققه غراتسياني.

وعلى كل حال كان مياني يتابع باهتمام، عبر الصحف والإذاعة، مراحل الهجوم، ولم يكن ثمة أقدر منه على تقييم الجرأة والحيوية التي اتسم بها غراتسياني، الذي تمكن في مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر من تشتيت الخصوم والوصول حتى الحدود مع الجزائر، بل إنه بلغ حتى واحة واو الكبير البعيدة جدا، التي لجأ إليها آل سيف النصر. صحيح أن غراتسياني لم يحقق ذلك النجاح التكتيكي المأمول، إذ تمكن أغلبية المجاهدين من النجاة، بالوصول إلى الجزائر أو إلى الكفرة، ولكن بدا واضحاً مع بداية سنة 1930م أن فزان كلها قد أصبحت خالية من "المتمردين".

وفي هذا الجو الذي أحاط بمشاعر النصر، لم يخل الأمر من بعض الاعتراف، وإن كان متأخرا، بما قام به مياني. في 24 يناير 1930م أرسل إليه الماريشال بادوليو من مرزق بعد احتلالها بقليل برقية جاء فيها: "في هذه اللحظة التي ترتفع فيها الراية ثلاثية الألوان على قلعة مرزق، بحضور صاحب السمو الملكي دوق بوليا وبحضوري وغراتسياني، تتجه أفكارنا كلنا إليك، وقد كنت أول من تمكن من الوصول إلى هذه البقعة، معلناً انتماء هذه الأرض لسلطة إيطاليا".[240]

---

[238] لوصف العمليات التي قام بها غراتسياني في فزان انظر: أنجيلو ديل بوكا، الإيطاليون في ليبيا: من الفاشية إلى القذافي، منشورات لاتيرسا، روما–باري، 1988م، ص ص 134–164.

[239] أ.م.ل.م.، مراسلات العشرينيات، رسالة من روما بتاريخ 29 يناير 1929م على ورق رسمي لصحيفة "إيطاليا الاستعمارية".

[240] مشار إليه في ج. فورناري، مرجع سابق، ص ص 63–64.

في شهر يوليو التالي أرسل إليه الجنرال دومينيكو سيشيلياني قائد القوات في طرابلس نسخة من التقرير الرسمي حول عمليات إعادة الاحتلال، مرفقة بهذه الرسالة: "سيدي الجنرال، لم يكن لي شرف التعرف عليك شخصيا، وقد توليت قيادة هذه القوة الملكية بعد تمام احتلال فزان. وقد سلكت مراراً بوسائل سريعة طرقاً شقت بطريقة ممتازة في أراض كنت قد سلكتها أنت منذ ستة عشر عاما، مستنداً إلى الإيمان، ومتسلحاً بالإقدام، في ظروف كانت بالغة الصعوبة ومختلفة تماما، ومحاطاً بضباطك وجنودك الشجعان. هذه المرة تحركنا تحت السلطة المباشرة للحاكم نفسه، الماريشال بادوليو، وكان احتلال فزان، الذي كان لك الفضل في التخطيط له والإصرار عليه ودراسته في كل تفاصيله، عملاً مثالياً من أعمال الاستعمار العظيمة. ولكني لا أسمح لنفسي بالكتابة إليك لهذا السبب فقط، بل أكتب إليك كي أقول لك إني قد وجدت في أنحاء تلك المنطقة الشاسعة آثار مرورك فيها، وعلامات عديدة على مدى الصعوبة التي كان عليك مواجهتها، بتلك الإمكانات القليلة التي توفرت لديك. إن انهيار سلطتنا في فزان في سنة 1915م نتج عن أسباب لا علاقة لها بالاحتلال: لقد بقي اسمك عاليا، وجدارتك لا تمس. وبهذه الروح المفعمة بمشاعر الزمالة الخالية من الغرض، التي تؤكد التواصل بين القيادات في العمل والروح المعنوية، وجدت أن إحدى أوائل النسخ من هذا التقرير حول الاحتلال الجديد لفزان يستحقها بجدارة أنتونيو مياني، الذي شق للإيطاليين، متبعاً التقاليد الرومانية، الطريق للوصول إلى الحدود الجنوبية لطرابلس".[241]

وبلا ريب مثلت برقية بادوليو ورسالة الجنرال سيشيلياني أعلى درجات الاعتراف بالعمل الذي أنجزه مياني في ليبيا؛ لكن هذا الاعتراف، على الرغم من أنه كان موضع رضا الجنرال، فإنه لم يترجم، كما كان ينبغي أن يحدث، في شكل ترقية في الرتبة أو تحسين في مقدار الراتب التقاعدي. وعندما تقدم العميد أنتونيو مياني، في سنة 1931م و1932م بطلب إلى وزارة الحربية لترقيته إلى رتبة لواء، تلقى من قائد الجيش الإقليمي في ميلانو هذه الإجابة الجافة البيروقراطية: "إني آسف جداً لإفادتك بأني تلقيت من الوزارة أوامر بإبلاغك، أنه بعد دراسة طلبك الترقية إلى الرتبة الأعلى (...) وجد بأنك لا تستحق أن ترد في قائمة الترقيات المعتمدة لهذه السنة".[242]

لقد كانت لهجة الرسالة متعجلة وخشنة حتى أن مياني رد عليها فوراً طالباً المزيد من الإيضاحات. لكن الرسالة الثانية التي وصلته من الجنرال باريس لم تختلف كثيراً عن الأولى: "إن ما أبلغت به سيادتكم في الورقة الصادرة بتاريخ 8 الجاري لم تكن سوى نتيجة لقرار لجنة الترقيات المركزية، التي رأت أنكم لا تستحقون الترقية إلى رتبة لواء احتياط". وتختم الرسالة بتوجيه نصيحة

---

[241] أ.م.ل.م.، مراسلات الثلاثينيات، رسالة من طرابلس بتاريخ 5 يوليو 1930م على ورق رسمي للقيادة العامة للقوات في طرابلس.

[242] نفسه، رسالة بتاريخ 8 أبريل 1932م على ورق رسمي لقيادة الجيش الإقليمي في ميلانو (III).

إليه بأن يعبر عن رغباته في عريضة توجه إلى السلطة المركزية المختصة عن طريق التسلسل الوظيفي".[243]

ومرة أخرى، ولكنها هذه المرة ستكون الأخيرة، يمسك مياني ورقاً وقلماً ويوجه عريضة إلى وزير الحربية الجنرال بييترو غازيرا. في الصفحات السبع الأولى من الوثيقة يعرض ملخصاً لمسيرته المهنية، عسكرياً وموظفاً مدنيا، ثم يشير إشارة سريعة إلى موقف الماريشال كادورنا منه، الذي اتسم بالكثير من الاضطهاد حياله، ثم يختم بتأكيده "أنه في حين أن لجنة الجيش لم تره جديراً بالترقية أثناء وجوده في خدمة الاحتياط، يرسل إليه الماريشال بادوليو من مرزق البرقية التي سبقت الإشارة إليها وفيها يعترف لمياني بأنه كان أول من أهدى لإيطاليا تلك الأراضي الشاسعة في فزان".[244]

لم نجد ضمن أوراق الجنرال إجابة الوزير. والراجح أنه لم تكن ثمة أي إجابة. لقد تذكره بادوليو وسيشيلياني تقديراً منهما له وتعاضداً معه، لكن في وزارة الحربية ما زال مياني ينظر إليه باعتباره المنهزم في قصر بوهادي، العسكري الذي لم يُسمَح له حتى بالمشاركة في الدفاع عن الوطن.

لا نعرف كيف استقبل الجنرال هذا الرفض الأخير، ولكن ما نعرفه من طباعه، يمكّننا أن نقرر أنه تألم لذلك كثيراً، وأن هذه القصة قد تكون أسهمت في التعجيل بنهايته. ونعلم من رسالة أرسلتها زوجته إلى الماريشال بيكوري جيرالدي أن مياني كان يعاني منذ مدة من آلام في القلب، وأن أفراد العائلة كانوا يحرصون على "تجنيبه أي انفعالات"، وخاصة عدم التطرق مطلقاً لذكريات كانت بالنسبة إليه "مريرة ومؤلمة".[245] أخذ المرض يشتد به، وفي 8 أغسطس من عام 1933م توفي مياني في مسكنه في دومازو، عن عمر ناهز 69 سنة، ودفن في غرفة العائلة في مقبرة دومازو. قبل ذلك ببضع سنوات كان قد اختفي ذلك الذي وجه إليه الاتهام، ومع أنه ندم على ذلك، فإنه ظل متهماً له، وهو الماريشال لويجي كادورنا.

الأشخاص ذوو المراتب العليا لا يمسون:

بعد عشرين يوماً من اختفاء مياني كتب المقدم قويدو فورناري إلى شقيق المتوفى جوفاني، الذي كان هو أيضاً جنرالا، ولكن لم يكن له أي تاريخ يذكر، كي يخبره أن إدارة تحرير مجلة (ما وراء البحار)، الناطقة باسم المعهد الاستعماري الفاشيستي، قد كلفته بكتابة "مقالة حول القائد العظيم

---

[243] نفسه، رسالة بتاريخ 25 أبريل 1932م.

[244] نفسه، رسالة بدون تاريخ، ربما تكون في مايو 1932م.

[245] نفسه، مسودة رسالة بتاريخ 6 ديسمبر 1933م.

لإحدى أكبر عمليات الاحتلال في أفريقيا". ومؤكداً أنه يسعى لأن يبذل في ذلك ما وسعه من جهد، طلب فورناري عدداً من البيانات عن عائلة مياني، وعن مساهمة مياني في عمليات احتلال إريتريا وليبيا، وعن نشاطاته كجغرافي ومصور.[246]

سلم جوفاني مياني الطلب إلى زوجة أخيه، التي قامت على الفور بالرد على فورناري برسالة من ثماني صفحات مكتوبة بخط اليد، لخصت فيها بدقة مسيرة زوجها المهنية، مضيفة بعض ملاحظات من لدنها. فعلى سبيل المثال كتبت بخصوص الإبعاد الذي تعرض له زوجها: "لقد كانت خيبة الأمل هذه هي التي خلفت لديه تلك العلة في قلبه التي عجلت بموته وانتهت به إلى القبر، مع أن بنيته القوية لم تكن توحي بذلك أبدا".[247] ورد فورناري برسالة أكد فيها أنه أبرز في مقالته "أهم فصول تلك الحقيقة التاريخية التي ننتظر أن يسلط عليها الضوء"، ووعد بأنه سوف يتناول الموضوع في المستقبل "بما يلزم من التوسع، ولهذا الغرض أرجو أن تسمحي لي باستخدام الوثائق التي عبرت عن رغبتك في عدم نشرها".[248] وسوف نرى لاحقاً كيف أن فورناري قد وفى بهذا الوعد.

نشرت مقالة فورناري في عدد أكتوبر من مجلة (ما وراء البحار)، ولقيت ترحيباً تاماً من قبل لاورا وإليزا مياني، اللتين سارعتا فوراً لإرسال شكرهما إلى الكاتب. ولكن المقدم لم يكن راضياً عن عمله كل الرضا، وأرجع ذلك كما يقول في رسالته إلى "القيود التي لم تكن في محلها التي فرضتها علي إدارة المجلة. فأنا، كما تعلمين، أرفض تماماً الفكرة السائدة التي ترى أن تلك الصفحة من تاريخ إيطاليا العظيم، التي سطرها زوجك، يجب أن تبقى في الظل، ولذا فإني أؤيد بقوة فكرتك وفكرة ابنتك لوضع كتاب يوثق تلك الحملات الاستعمارية التي قام بها ذلك الرجل العظيم. وإني مستعد، بقدر ما تضعانه من ثقة في شخصي، أن أضع نفسي في خدمتكما".

وقد أبلغ فورناري لاورا مياني أيضاً أنه تحدث مع مدير المتحف الاستعماري في روما، الكومنداتور جيليو، عن "رغبتها إهداء مجموعة من الصور الفوتوغرافية حول حملة فزان إلى المتحف، وأن مدير المتحف أبدى سروره البالغ بذلك واستعداده لإنشاء قسم خاص في المتحف مخصص لتلك الحملة"،[249] لكن الهدية، التي اشتملت أيضاً على راية الحملة، التي لا تزال تحمل آثار الرصاصات الثلاث التي اخترقتها أثناء القتال في معركة محروقة، تعرضت بدورها للتأجيل بسبب التكلفة الباهظة (حوالي ألف ليرة) لإعادة طبع الصور، التي بلغ عددها "حوالي مائة صورة

---

[246] نفسه، رسالة من فيوجي بتاريخ 28 أغسطس 1933م.

[247] نفسه، مسودة رسالة من داماسو بتاريخ 4 سبتمبر 1933م.

[248] نفسه، رسالة من روما بتاريخ 12 سبتمبر 1933م.

[249] نفسه، رسالة من روما بتاريخ 6 نوفمبر 1933م.

مقاس 12×18، و71 صورة بانورامية مقاس 9×30".[250] وبنفس القدر من الجدية عقب فورناري بقوله إنه يرى أن المتحف الاستعماري، بتلك "الميزانية الهزيلة" المخصصة له، لم يكن مهيأ لتحمل مثل هذا العبء ثم يقول: "إذا سمحت لي فربما يمكنني القيام ببعض الخطوات في هذا الاتجاه. وبكل تأكيد سيكون من المؤلم جداً أن تبقى مثل هذه الصفحات الناطقة بعظمة إيطاليا غير منشورة، ومحصورة في النطاق الشخصي".[251]

كانت هذه المبادرة من فورناري عاملاً مهماً في تشجيع لاورا مياني على استئناف معركة إعادة الاعتبار التي لم يستطع زوجها أن يبلغ بها إلى نهايتها. وهكذا استأنفت التواصل مع السلطات العسكرية التي اهتمت أكثر من غيرها بدعم جهود الجنرال. وقد بدت لاورا مياني، من خلال رسائلها التي سوف نتعرض لها واحدة واحدة، مصممة على خوض المعركة، لا سيما أنها على اطلاع تام على كل أوراق زوجها، التي كانت متأكدة أنها كانت تتضمن كل الحقيقة. لننظر –على سبيل المثال– هذه الفقرة من رسالتها التي أرسلتها بتاريخ 13 نوفمبر إلى الماريشال بيكوري جيرالدي؛ إذ تقول: "إن الجدل كان ينبغي أن يكون قد انتهى إلى نتيجة في المرة الأخيرة التي قابل فيها زوجي في روما صاحب السعادة كادورنا. فقد سمع منه مباشرة وعداً بالقيام بمراجعة للكتاب، وسنرى إن كانت ثمة أي إشارة إليها في الرسائل التي بين أيدينا. وربما كان صاحب السعادة كادورنا قد قام بشيء في هذا الخصوص قبل أن يتوفى. لقد عاش زوجي وهو مفعم بهذا الأمل، لكن مرضه الأخير حال دونه ومواصلة العناية بالموضوع. وهو ما أفعله أنا الآن، لأن هدفي هو أن يمحى ذلك الاتهام الظالم، الذي لم يتوقف عند قطع مسيرته المهنية، بل لا يزال يشوه ذكرى إنجازاته وحياته كجندي".[252] إذن كان يأتي في قمة الرغبات التي عبرت عنها لاورا مياني محو تلك الاتهامات المشينة التي تضمنها كتاب كادورنا. وقد جعلت من بلوغ هذه الغاية مهمة سامية وغاية لكل حياتها.

رد بيكوري جيرالدي على نداء لاورا مياني بلطافته المعتادة واستعداده للتعاون. يقول "لا علم لي بالمكان الذي احتفظ فيه بمراسلات الماريشال"، وحيث أني مسافر غداً إلى روما، فسوف أستفسر عنها، وربما يكون من المناسب أن أكتب أيضاً إلى ابنه المقدم، الذي لعلك تعلمين أنه يعمل ملحقاً عسكرياً في براغ. ومع ذلك فسوف أحاول الحصول على معلومات حول إمكانية إعادة طبع الكتاب المعنون "صفحات أخرى عن الحرب العظمى" الذي نشر لدى مونيادوري"، ولكن

---

[250] نفسه، مسودة رسالة بدون تاريخ، شبه مؤكد أنها تعود إلى نوفمبر 1933م.

[251] نفسه، رسالة من روما بتاريخ 6 ديسمبر 1933م.

[252] نفسه، مسودة رسالة بتاريخ 13 نوفمبر 1933م.

جيرالدي لا يذكر أنه كتب رسائل إلى مياني حول هذا الموضوع، يقول: "لأني أكتب دائماً بدون مسودات، ولتتقي بأني لن أدخر جهداً في سبيل ذلك".[253]

لم تضيع لاورا مياني وقتا، وكتبت إلى الماريشال العجوز في محاولة لإنعاش ذاكرته تقول: "في الأوراق والوثائق ذات العلاقة التي كان زوجي يحتفظ بها هناك رسالة من سيادتكم تشيرون فيها إلى أنكم تحدثتم إلى زوجي عن لقاء تم بينكم وصاحب السيادة كادورنا، وفيه تم التعبير صراحة عن وعد تعهد به صاحب السيادة بتصحيح ما قد يكون وقع من خطأ في سرد الوقائع التي كان زوجي جزءاً منها".[254] وبعد أن عبرت لاورا مياني عن شكرها للماريشال على عنايته واهتمامه، أرفقت بالرسالة نسخة من تلك الرسالة.

بعد هذه الرسالة نجد ثغرة مدتها سنتان خلال مراسلات لاورا مياني. ثم فجأة في بداية سنة 1935م نجد الكونت سيبريجوندي يدخل إلى المشهد، وهو صديق حميم لعائلة مياني، وكذلك لبيكوري جيرالدي. واستجابة لرغبة الكونت شرع الماريشال في البحث في روما. وفي 18 أبريل 1935م أبلغ صديقه ببعض المعلومات المهمة. يقول: "إن أرشيف الماريشال كادورنا كله محفوظ في بالانزا، لدى ورثته، وعلى وجه الخصوص ابنه، المقدم في سلاح الفرسان. وقد ألححت على رئيس المكتب التاريخي الجنرال برونزولي، الذي أبلغني في 15 الجاري بما يلي: إن طبعة كتاب الماريشال قد نفدت، وسوف تصدر دار النشر عما قريب طبعة ثانية. وقد أفاد كادورنا الابن، الذي يعمل في حامية فيرارا (...) أنه مستعد جداً لأن يضيف إلى الطبعة الثانية من الكتاب، في شكل هوامش سفلية، كل تلك الملاحظات التي يمكن استخلاصها من المراسلات المتبادلة بين المتوفين الماريشال والجنرال". كما يقترح أيضاً أن يعهد إلى الجنرال برونزولي، الذي يثق في قدراته وحياده، المهمة الدقيقة لإجراء ما يلزم من تصحيحات، لا بد بالطبع أن توفر لها لاورا مياني كل ما يلزم من وثائق.[255]

أرسل سيبريجوندي رسالة بيكوري جيرالدي إلى السيدة مياني، معلقاً عليها بقوله: "نأمل إذن أن تسير الأمور على ما يرام".[256] وفي الحقيقة بالنظر إلى ما أبداه رافاييلي كادورنا (الذي سوف يكون قائداً لفرقة أريييتي، وبعد ذلك رئيس لجنة التحرير الوطني في إيطاليا العليا خلال المقاومة) من استعداد لطباعة التصحيحات، بدا كما لو أنه لم تعد ثمة أي عوائق أما إعادة الاعتبار، ولو جزئياً، إلى أنتونيو مياني. وفور وصول هذا الخبر الطيب، وصل خبر آخر مفاده أن قويدو فورناري

---

[253] نفسه، رسالة من فلورنسا بتاريخ 25 نوفمبر 1933م، رقم 1248، سري، على ورق رسمي لمجلس الشيوخ.

[254] نفسه، مسودة رسالة بتاريخ 6 ديسمبر 1933م.

[255] نفسه، رسالة من فلورنسا بتاريخ 18 أبريل 1935م على ورق رسمي لمجلس الشيوخ.

[256] نفسه، رسالة من دامازو بتاريخ 21 أبريل 1935م.

قد حصل من السلطات الاستعمارية والعسكرية على الموافقة على البدء في البحث لإنجاز مجلد لتوثيق إنجازات مياني في ليبيا. ولذا فقد طلب من السيدة لاورا أن تقوم بوضع إحصاء للمواد التي بحوزتها.[257]

في هذا الوقت كانت قد مرت عشرون سنة على الأحداث التي كان مياني بطلها وضحيتها، وأخيراً بدا أن الجهود المشتركة بين الجنرال المتوفى وزوجته المخلصة المكافحة تؤتي الثمار التي طال انتظارها. ومرة أخرى برزت عقبة جديدة، مؤسفة، بقدر ما كانت مفاجئة. فقد كتب نائب رئيس هيئة الأركان العامة للجيش الجنرال ألبيرتو باريانى إلى بيكوري جيرالدي يخبره بأن الجنرال برونزوولي قد استبدل به العقيد كيوليني، الذي أبلغ رافاييلي كادورنا، بعد أن تم الاتصال بينهما، بأنه "لا مانع لديه في المضي في إجراء التصحيحات، بشرط أن تكون مستندة إلى وثيقة من وثائق المكتب التاريخي، كي يمكن الوثوق بمصداقيتها".

لكن بارياني الذي كان المكتب التاريخي يتبعه يضيف: "إن هذا بالتحديد ما لا يستطيع المكتب أن يفعله. فلكي نحكم على أي تصحيح بأنه رسمي (باعتبار أن الوثائق التي تقدمها السيدة مياني غير كافية) سوف يكون لازماً إجراء تحقيق، وهو ما يتجاوز ويخرج تماماً على صلاحية المكتب التاريخي، من جهة أنه يتعلق بشخصيات رفيعة المستوى، منهم من توفي ومنهم من لا يزال على قيد الحياة (فيرديناندو مارتيني وسعادة الجنرال تاسوني). وهكذا فإن المكتب التاريخي، في ظل الظروف الحاضرة، ليس بوسعه سوى أن يضم الوثائق إلى محفوظاته، في انتظار أن تحين اللحظة المناسبة التي يقوم فيها بتدوين تاريخ تلك المرحلة".[258]

وقد أبدى الماريشال بيكوري جيرالدي تعاطفاً وصبراً غير محدودين، فاقترح على السيدة مياني أحد حلين لهذه المسألة: اتباع نصيحة بارياني وهي: "انتظار أن يتكفل تأريخ العمليات التي تمت في ليبيا بتبرئة زوجها الفقيد من التهم التي وجهها إليه قائد الجيش كادورنا"، أو محاولة إقناع رافاييلي كادورنا بالتخلي عن "فكرة الحصول من المكتب التاريخي على وثيقة ليس بوسعه أن يقدمها، وأن يضيف إلى الطبعة الثانية من الكتاب التصحيحات التي يراها مناسبة". وقد أبدى تقديره أن الرجل المناسب للقيام بهذه المهمة هو الجنرال برونزوولي، الذي كان قد كتب سابقاً بهذا

---

[257] نفسه، رسالة من روما بتاريخ 30 أبريل 1935م. ردت لاورا مياني على هذه الرسالة بقائمة بكل الوثائق التي في حوزتها.

[258] نفسه، رسالة من بارياني بتاريخ 30 يناير 1936م.

الخصوص.[259] وقد ردت لاورا مياني بأنها سوف تتخذ قراراً حال معرفتها بنتيجة المهمة الموكلة إلى برونزوولي.[260]

وفي انتظار هذه الإجابة أرسلت لاورا مياني إلى رئيس الحكومة بينيتو موسوليني، هذه الرسالة التي نورد نصها الكامل: "صاحب السعادة، استلمت عن طريق السيد الكونت سيبريجوندي الرسالة التي تفضلتم بإرسالها إلي بخصوص الأسئلة المتعلقة بعمل زوجي في ليبيا. إني أعبر، يا صاحب السعادة، عن شكري الجزيل للاهتمام الذي أبديتموه دائماً ولا تزالون تبدونه بالمرحوم زوجي. إني أثمن عالياً نصائحكم، وبناء على ما اقترحتموه سيادتكم فإني أنتظر إجابة السيد المحترم الجنرال برونزوولي، كي أتخذ قراراً بناء عليها، سوف أوافيكم به فورا، ولن أنفذه إلا بعد موافقتكم. وتفضلوا سيادتكم بقبول جزيل شكري وفائق احترامي".[261]

كانت هذه آخر رسالة كتبتها لاورا مياني، وجدناها ضمن أوراق العائلة، التي كان مياني قد بدأ في ترتيبها، ثم تولى ذلك الجنرال فورمنتو. من الأوراق التي تحمل توقيعها لا نجد إلا برقية بتاريخ 20 أكتوبر 1939م، موجهة إلى وزير أفريقيا الإيطالية أتيليو تيروتسي، جاء فيها: "إن عائلة الجنرال مياني تتقدم بالشكر إلى سيادة الحاكم لإصداره الأمر بتسمية إحدى قرى طرابلس باسم زوجها، مخلداً بحق ذكرى أول من احتل فزان".[262]

وفي ظل عدم وجود وثائق أخرى، لا يمكننا إلا تقديم بعض الافتراضات. فمن المحتمل جداً أن مهمة الجنرال برونزوولي لإقناع رافاييلي كادورنا بتصحيح أحكام والده، دون اشتراط وجود وثيقة من المكتب التاريخي للجيش، لم تفض إلى أية نتيجة. وعلى الرغم من أنه قد يبدو غير معقول، فإن اهتمام موسوليني نفسه بالقضية لم يفلح في زحزحة السلطات العسكرية والاستعمارية. مرة أخرى بدا واضحاً أن "الشخصيات رفيعة المستوى" ليس بالإمكان المساس بها، وأن أنتونيو مياني سيظل يتحمل وحده، وإلى الأبد، المسؤولية عن الهزيمة.

وكان لابد أن يؤدي هذا الوفاء الذي أبدته لاورا مياني لذكرى زوجها إلى نتيجة محددة. في 20 مارس 1941م قدم الناشر أيرولدي دي فيربانيا إلى المطبعة كتاب قويدو فورناري الذي حمل العنوان التالي: "الإيطاليون في الجنوب الليبي: حملة مياني (1913م–1915م). هذا الكتاب الذي طبع برعاية مكتب الدراسات التابع لوزارة أفريقيا الإيطالية، تكون من 328 صفحة، وتضمن 8

---

[259] نفسه، رسالة رقم 1732، سري، بتاريخ 3 ديسمبر 1935م، على ورق رسمي لمجلس الشيوخ. في الحقيقة التاريخ غير صحيح، فالصحيح أن السنة هي 1936م.

[260] نفسه، رسالة من دامازو بتاريخ 9 ديسمبر 1936م.

[261] نفسه، مسودة رسالة بدون تاريخ، من شبه المؤكد أنها تعود لبداية سنة 1937م.

[262] نفسه، البرقية تحمل أيضاً توقيع ابنة الجنرال، إلسا سيكونوفلي مياني.

رسوم، و23 صورة فوتوغرافية، اختيرت من بين الصور التي التقطها الجنرال. مستعيناً بأوراق مياني وبأوراق أخرى وجدها في الأرشيف التاريخي لوزارة أفريقيا الإيطالية، قدم فورناري تأريخاً جديداً للأحداث، مثمناً إنجازات العقيد التي حققها "بإمكانات بالغة الضآلة والبدائية".[263] ومبرئاً إياه جزئياً من التهم التي نسبت إليه، مبيناً جوانب من السياسة الاستعمارية الملتوية والمتهورة التي اتبعت في تلك الحقبة. وبالطبع لم يكن بوسع لاورا مياني إلا أن تبدي إعجابها وتقديرها لهذا الكتاب، من حيث إنه يعيد إلى زوجها اعتباره، الذي تم تلطيخه بطريقة ظالمة من أجل حماية شخصيات كانت تعد غير قابلة للنقد.

مسؤولية الطبقة السياسية:

رأينا، ونحن نحاول تتبع قصة أنتونيو مياني العسكرية والإنسانية، أن إيطاليا كانت قد انتهت إلى التوغل في فزان مقتنعة بأنها تستطيع أن تتمتع بحقوق السيادة عليها، كما فعل قبلها الأتراك، متوهمة قدرتها على استعادة خطوط التجارة مع أفريقيا الغربية، وأن تلك الأراضي الشاسعة تخبئ تحت سطحها ثروات ثمينة هائلة. ورأينا كذلك كيف أن التوغل العسكري لم يُمَهَّد له بدراسة جادة حول البيئة، أو بعمل سياسي بهدف التخفيف من أية آثار سلبية قد تنجم عن اللقاء بين حضارتين. وباختصار تصرفت السلطات العسكرية والاستعمارية الإيطالية في الدواخل الليبية بنفس روح الهواية وقلة الإحساس بالمسؤولية التي تصرفوا بها في إريتريا والصومال.

وفي هذا السياق، كما يقول باولو سوافي، كان إنجاز الحملة التي قادها مياني "النقطة الوحيدة المضيئة والمتناسقة والشجاعة، على الرغم من أنها لم تكن مجدية".[264] فكما رأينا، قاد مياني في الحقيقة أول حملة استعمارية إيطالية في الصحراء بنجاح تام، ملحقاً الهزيمة بالأعداء في ثلاث معارك حاسمة، ومحتلاً أرضاً تبلغ مساحتها مساحة إيطاليا كلها، على الرغم من أن الإمكانات التي توفرت لديه كانت هزيلة وكان خط الإمدادات الذي يعتمد عليه معيباً ومليئاً بالثغرات. وكان هذا النجاح يرجع كله إلى المهارة والخبرة التي تمتع بها مياني وضباطه، إلى جانب الجرأة الفائقة التي كانت عليها القوات الإريترية. ولم يتسن فيما بعد إلا لبادوليو وغراتسياني أن يتحركا على نحو حاسم، ولكن بإمكانات مختلفة تماماً، وفي ظل تحضير سياسي ولوجستي مناسب.

إن ما يثير الدهشة أن إيطاليا سالاندرا، بعد أن خططت لاحتلال فزان، لم تفعل ما ينبغي لإنجاز المهمة حتى نهايتها، وذلك بعدم توفير الإمدادات التي وعدت بها مياني، وتركه يتحرك في

---

[263] ج. فورناري، مرجع سابق، ص 10.

[264] ب. سوافي، مرجع سابق، ص 511.

ظروف بالغة الهشاشة، جعلته يعجز عن تثبيت الاحتلال في الإقليم. ومن المؤكد أن مياني، لو أتيح له أن يحصّن الحاميات التي تم تكوينها، وأن يحتل بعض المدن مثل زلة والفقها وواو الكبير، التي كانت قد أصبحت قواعد متقدمة للسنوسية، وأن يؤمن الأقاليم التي كانت وراء منطقة فزان، مثل القبلة وسرت، لما كان للثورة العربية التي اندلعت في صيف سنة 1914م أن تبلغ ما بلغته من تطور وقوة، ولكان من السهل التغلب عليها.

وكما سبق أن رأينا، فقد تُرِك مياني في لحظة معينة يواجه الموقف وحيداً. وكان هذا قبل أن تندلع الحرب العظمى بوقت طويل، فتجعل للمجهود الحربي على الجبهة الشرقية الأولوية المطلقة. ولقد حاولنا أن نجد لهذا الذي حدث تفسيراً مقنعا، ولكن دون جدوى. لقد كانت تكلفة الحملة، التي قدرت بعشرين مليوناً، متواضعة جداً، وكانت الخسائر في الرجال والمعدات لا معنى لها مطلقاً. وأخيراً لم تكن ثمة خصومة جدية مع فرنسا بخصوص الحدود مع الجزائر. إذن ما الذي حدث فأدى إلى قطع المدد المادي والمعنوي عن مياني، إلى الحد الذي كاد يفقده صوابه، ويدفعه إلى تقديم استقالته أكثر من مرة، ويوشك أن يبلغ حد العصيان التام؟ لم يكن ذلك بالتأكيد يرجع إلى الانتقادات التي وجهتها المعارضة، التي لم تستطع أن تشن حملة قوية سنة 1911م ضد الحرب على تركيا. ولم تكن لتقلق سالاندرا أيضاً تلك المجموعة الهزيلة من المضادين للحرب، ذات التوجه الفوضوي أو النقابي الثوري، ولا ثلاثة الآلاف نسخة من الصحيفة الأسبوعية التي تصدر في جنوا (السلام) التي كتبت عشية دخول إيطاليا الحرب ضد الإمبراطوريات الشرقية تقول: "بأي منطق يتهجمون على الأنظمة البوليسية النمساوية (التي لا تختلف عنها الأنظمة الإيطالية في شيء) عندما نصبوا المشانق في طرابلس لشعب كان يدافع عن وطنه".[265]

إذن لم تكن ثمة مبررات مقنعة لإيقاف الحملة، كما لم تكن ثمة أصلاً مبررات مقنعة للشروع فيها. وهكذا شاهدنا كيف انتهت آخر عملية للحركة الاستعمارية الليبرالية بانسحاب كارثي ومهين، قبل أن يتمكن الوجود الإيطالي العابر من وضع أي بصمات على تنمية الإقليم. ولم يبق من مرور مياني على المنطقة سوى بقايا القاهرة في سبها.

كتب أكثر من طرف أن اندلاع الحرب العظمى أسهم في تعقيد الأمور، وأدى إلى ألا يكون ثمة مفر، لا من التخلي عن فزان فقط، ولكن عن كل الحاميات التي كانت موجودة في الدواخل. لا شك أن الحرب العالمية أتاحت لتركيا والمجاهدين الفرصة للقيام بأعمال انتقامية، ولكن النجاح الذي أحرزوه يرجع إلى حد كبير إلى أن إيطاليا لم تستكمل عملية تثبيت احتلالها للدواخل الليبية. ومن أجل تثبيت الاحتلال لم تكن ثمة حاجة إلى مائة الألف رجل الذين كانوا تحت تصرف الجنرال

[265] بينما تتواصل المذبحة، في صحيفة "لا باتشي" (السلام)، 27 أبريل 1915م.

كانيفا سنة 1911م. فقد كان يكفي، كما ظل مياني يعيد ويكرر، بعض فرق من الإريتريين، لكن كادورنا، كما سبقت الإشارة، كان متصلباً في موقفه، مصراً على ألا يزود ليبيا ولو برجل واحد.

هل كان قراره هذا حكيما ؟ يرى فورناري أنه لم يكن كذلك: "لقد أثبتت الوقائع الحقيقة التي أشار إليها مياني مرارا، متهماً التيار المهيمن على الأمور، وهي أن المحافظة على احتلال فزان شرط أساسي لإمكانية الاستقرار في طرابلس كلها. ولقد ظهر جلياً منذ المخططات الأولى للتوغل أن وحدة نظام الاحتلال تعتمد كلها على فزان، وأن هذه الوحدة كان ينبغي ألا تتوقف على موازين القوى المتباينة، بقدر ما تعتمد على الحضور اليقظ وحسن التجهيز، المؤسس على المهابة والخشية. وقد كان التخلي عن فزان، بتحطيم تلك الوحدة، وزعزعة تلك المهابة، بداية لمأساة أبعد مدى".[266]

ومن هنا ينشأ لدينا الشك في أن كادورنا لم يكن يدرك حقيقة الوضع في طرابلس، وأنه، على أية حال، لم يكن يعيره كبير أهمية. هذا الشك يبدو أنه يجد تأكيداً في المراسلات التي تبادلها مع مياني سنة 1926م، فهو يعترف بأنه كوّن حكمه بناء على تقارير من بعض الضباط، وليس بناء على وثائق وزارية، كانت في الواقع في متناول يده، واستعداده المتعجل وغير المفهوم لتصحيح الأحكام القاسية التي أصدرها ضد مياني وحملته، تدفع إلى افتراض أنه كان يدرك خطأه، وأنه كان ينوي إنهاء الخصومة مع مياني بسرعة، وبأقل الأضرار الممكنة. ولدينا قناعة كاملة بأن كادورنا، لو أنه أخذ بضعة آلاف من الرجال الذين وجهوا إلى جبهة إيزونسو، التي دفع فيها إلى مذبحة محققة مئات الآلاف من الجنود، وأرسلهم إلى طرابلس، فلربما كان بإمكانه تجنب وقوع الكارثة التي وقعت في 14–1915م، وذلك الثمن الباهظ، من الرجال والمعدات، الذي دفع من أجل إعادة احتلال مناطق الداخل.

ولم يكن ممكناً ألا يكون قد أسهم في حدوث سوء الفهم هذا لدى وزير المستعمرات مارتيني، الذي كان من واجبه تزويد رئاسة أركان الجيش بكل المعلومات الضرورية حول المستعمرة. بيد أن مارتيني يتحمل المسؤولية عن جملة أمور أخرى، بدءً بكونه ظل يخفي عن مياني، على مدى عدة أشهر، قراره بالتخلي عن فزان، وإحالة المسؤولية عن إدارة هذا الإقليم إلى زعماء ليبيين موالين لإيطاليا. من جهة أخرى، لم يبد مارتيني، بخلاف سلفه بييترو بيرتوليني، أي تعلق بفزان. نجده يكتب في مذكراته بتاريخ 26 نوفمبر 1914م: "حتى في حالة السلم، ليس لدي استعداد لصرف عشرة ملايين ليرة كل سنة لمجرد متعة الاحتفاظ بالاحتلال العسكري لمثل هذه المناطق الصحراوية".[267]

---

[266] ج. فورناري، مرجع سابق، ص 267.

[267] ف. مارتيني، مرجع سابق، ص 241.

لكن خطأ مارتيني الأكثر جسامة كان تكليف مياني بمهمة تطهير منطقة سرت من "المتمردين". ولم يكن منطقياً أن يضع ثقته في ضابط كان قد أجهض، بقسوة، حلمه بأن يحتفظ بفزان تحت هيمنة إيطاليا إلى الأبد. ومهما بلغ تقديره لمياني كرجل فعل وإنجاز وإداري جيد، كان عليه ألا ينسى ما اتسمت به الشهور الأخيرة من إدارته لفزان من مواجهات عنيفة مع الحاكم غاريوني، واستقالات عديدة، وتصرفات كانت تقترب كثيراً من حالة العصيان. وكان إقدامه، كما فعل بالفعل، على أن يرسل إلى أفريقيا مرة أخرى، رجلاً خائب الرجاء، مهانا، فاقداً الثقة في نفسه، ودون تزويده بالفرق الإريترية التي كان يطلبها، يعني إرساله إلى الهلاك. في هذا السياق، الذي يتحرك فيه أشخاص مثل مارتيني، الذي اختلطت عليه الأمور وبات ميالاً إلى التخلي والانسحاب، وتاسوني المتقلب وغير اليقظ، لم تكن قصر بوهادي سوى هزيمة مؤكدة.

ويبدو أن فقدان السيطرة على طرابلس كلها لم يحرك الوزير مارتيني كثيرا. في 23 مايو 1916م يعترف بأنه في ظل عدم القدرة على القيام بعمليات عسكرية في ليبيا لإعادة احتلال المناطق التي فقدت، من المؤسف أننا "سنضطر لاستنتاج أننا سنظل حتى وقت غير معروف محصورين في طرابلس والخمس، تاركين المتمردين يعيدون تنظيم صفوفهم".[268] ولم يكن مارتيني يشعر بأنه يتحمل شيئاً من المسؤولية على هذا الوضع الذي أقل ما يقال فيه إنه كارثي. وسوف يكتب يوماً ما أن كل الأخطاء التي ارتكبت يسأل عنها اثنان هما: مياني وتاسوني.

وقد تصرف مياني بطريقة صحيحة في فترة ما بعد الحرب، وخاصة في سنة 1926م، عندما وجد نفسه يتعرض للهجوم من قبل كادورنا، على ذلك النحو الفظ والمتعجل. فلكي يحصل على إعادة الاعتبار إليه، وعلى الترقيات التي كان يستحقها، توسل كي يجد الدعم من القيادات العليا في الجيش، الذين كانوا رفاقاً له في إريتريا، ومنهم من كان يعمل تحت قيادته. وأذل نفسه كثيراً وهو يخاطب بـ "يا صاحب الفخامة" رجالا، مثل أتيليو تيروتسي، كانوا تحت إمرته في فزان. كتب عشرات الرسائل، وعشرات المذكرات والطلبات، مكرراً حد الإملال روايته للحقيقة، التي كانت مقنعة جدا. وقد اعترف الماريشال كادورنا بأنه أخطأ في الحكم على مياني، في حين عبر ضباط آخرون، مثل بيكوري جيرالدي وجاردينو، عن صداقتهم وتقديرهم له. وكل ما حصل عليه كثير من التفهم، وترقية واحدة إلى رتبة عميد، التي كان يستحقها قبل ذلك بعشر سنوات. ولم تكن السيدة لاورا زوجته أكثر حظاً منه، على الرغم من أنها نجحت في أن تقحم في القضية سيد إيطاليا بينيتو موسوليني.

---

[268] أ.ت.و.أ.إ، ليبيا، مجموعة 12/122، ملف 98.

مؤامرة من الماسونية:

هذا الإقصاء المستمر والعنيد وغير المبرر يبعث على الشك في أن أنتونيو مياني قد وقع ضحية مؤامرة. ولكن من كان وراءها، وما مبرراتها؟ أول مؤشر على وجود مؤامرة، وإن كان شديد الغموض، يعود بنا إلى فزان، إلى الشهور الأولى من عام 1914م، عندما كان مياني يحاول جاهداً أن ينظم شؤون الأراضي التي كانت قد احتلت قبل ذلك بقليل. وكما ذكرنا آنفاً قدم مياني إلى الحاكم غاريوني اتهاماً ضد النقيب أوتورينو ميتزيتي، وهدد بتقديم استقالته، ما لم يتخذ القرار بترحيل هذا الضابط الذي كان يفتخر بأنه لا يأخذ أوامره إلا من غاريوني. ونقرأ في هذه البرقية الموجهة إلى غاريوني أيضا: "أضيف أنه بات ضرورياً تنظيف المكان من مؤامرات الماسونيين الرومانيين، الذين لا تعنيهم كثيراً مصالح الوطن، ومن ثم فهم يسعون لعرقلة الحملة، نتيجة فشلهم في تحقيق طموحاتهم الشخصية.

كان مياني مقتنعاً بأن النقيب ميتزيتي يحظى بحماية غاريوني وكذلك غراتسيولي، وكان هذا يغيظه ويحنقه. فما مبرر هذا الاهتمام المبالغ فيه بعسكري في رتبة نقيب؟ وبالطبع كان مياني يعتقد أن ميتزيتي يتمتع بدعم قوي في روما، وأن غاريوني وغراتسيولي كانا على علم بذلك. وسواء أكان يحظى بدعم الماسونية أم لا، فقد كان ميتزيتي مرشحاً لمسيرة مهنية مذهلة. ففي 13 سبتمبر 1923م تمكن من تحرير ترهونة من حصار المجاهدين. وفي 22 ديسمبر من السنة ذاتها احتل معسكر الأعداء في جندوبة، ما أدى إلى انهيار التمرد تماماً في منطقة طرابلس الشرقية. في 23 نوفمبر 1924م هزم إبراهيم اشتيوي[269] في قصر بوهادي، في ذات المكان الذي شهد الأحداث التي قصمت حياة مياني المهنية. وفي سنة 1927م، وقد أصبح في رتبة جنرال، شارك في العمليات على خط العرض 29 شمالا، واحتل واحات أوجلة وجالو، منجزاً ما كان مياني قد اقترح القيام به من قبل. وفي مارس من السنة نفسها تولى قيادة كل القوات في برقة، ونجح في هزيمة قوات عمر المختار في معركتي بير الزيتون وراس الجلاز. وبالطبع لم يكن ذلك أمراً هيناً بالنسبة لضابط كان مياني قد اتهمه بالتمرد، والخروج عن النظام، والادعاء.

لقد كان ميتزيتي قد كشف، خلال سنوات إعادة احتلال ليبيا، عن قدرات لا شك فيها، كرجل تكتيك وسياسة، حتى أنه كثيراً ما كان يشار إليه باعتباره منافساً لغراتسياني؛ ولكنه كان يتمتع بكل تأكيد برعاية وحماية من أطراف مهمة جداً. فعلى سبيل المثال، انتهى طلب التحقيق الذي قدمه مياني بخصوصه، والذي عهد به إلى الجنرال شيليانا، إلى سلة المهملات، غالباً بسبب تدخل الوزير مارتيني، الذي كان من أهم عناصر الماسونية. الراعي الأكبر الآخر لميتزيتي كان الجنرال

[269] ابن رمضان السويحلي الوحيد.

أتيليو تيروتسي، الذي عمل سابقاً تحت إمرة مياني، ثم تولى منصب حاكم برقة، ووكيل وزارة الداخلية وأخيراً تولى وزارة أفريقيا الإيطالية لمدة أربع سنوات. وتحت إمرته المباشرة، تمكن الجنرال ميتزيتي من إثبات وجوده، وتشاء سخرية القدر أن يكون هو من ينتقم للمسكين مياني عن هزيمة قصر بوهادي. ومن غريب الصدف أن تيروتسي كان هو أيضاً ماسونيا. ومن الراجح أنه ظل نشطاً في صفوف الماسونية حتى بعد أن أصدر النظام، الذي كان تولي في إطاره منصب نائب رئيس الحزب الوطني الفاشي، سنة 1925م قراراً باعتبار الحركة الماسونية حركة خارجة عن القانون، من جهة أن محافلها "عبارة عن غطاء لتنظيمات مافيوية، تعمل فقط من أجل مصالح شخصية".[270]

وفي تقديرنا أن ثمة مصادفات كثيرة جداً تدفع لجعل ما يبدو أنه مجرد شك أمراً مؤكدا. ونحسب أن مياني لم يخطئ عندما رأى في أوتورينو ميتزوتي أحد عناصر "المؤامرة الماسونية الرومانية"، التي ما انفكت تنتقد وتعرقل حملة فزان "بسبب خيبة آمالهم في تحقيق طموحاتهم الشخصية". في أولى رسائله إلى كادورنا كتب مياني يقول: "لقد أراد الوزير مارتيني، الشخصية المرموقة في الماسونية، من خلال موقفه مني أن يعاقب ذلك الذي اقترح وألح على إنشاء مجلس تأديب لاثنين آخرين من شخصيات الماسوية هما: النقيبان ميتزوتي وفالنتيني (...). ولا شك أن يد الماسونية طويلة، وأنها لا تغفر أبدا". إذن مياني كان يشك في أنه وقع ضحية مؤامرة، وإن لم يكن يعلم بدقة من هم خصومه فيها. ومن ثم فإن مأساته أخذت بعداً أكبر، اتسم ببعض المظاهر الهزلية. وفي إطار محاولته اليائسة للحصول على رد اعتبار كامل، كان يطرق أبواب أشخاص كان يحسبهم أصدقاء له، بينما كانوا من بين من ساهموا بنشاط في تصفيته. وكانت الحالة القصوى في هذا الخصوص هي حالة الجنرال تيروتسي. فقد ظل مياني يعده أحد ضباطه الأكثر كفاءة وإخلاصا، وظل يتذكره في ساحة المعركة في محروقة على رأس مجموعة المجندين المحليين، صامداً عصي المراس على الرغم من جراحه. ولذلك لم يشعر بكثير من الإهانة عندما وجد نفسه بعد ذلك بعشر سنوات، يضطر لمخاطبته بصيغة "صاحب السعادة". لم يكن يعرف، بل لم يكن بوسعه أن يعرف أن صاحب السعادة تيروتسي كان واحداً من أشد خصومه عداء له.

لقد كان الهدف النهائي من تلك المؤامرة الماسونية ضد مياني هو بكل بساطة عزله والتقليل من قيمته كشاهد على الأحداث. فمن خلال عرقلته فتح التحقيق حول وقائع سنتي 14–1915م كان هدف مارتيني أن يزيح المسؤولية عن كاهله، ويلقيها كاملة على مياني وتاسوني. وكانت تلك خطة بسيطة، وفي الوقت نفسه متكاملة، ذات نتائج مؤكدة. ومن ثم فقد كان من الخطأ أن ينظر

---

[270] من تقرير موسوليني أمام مجلس النواب بتاريخ 9 يناير 1925م، مشار إليه في كتاب روبيرتو جيرفازو (الإخوة الملعونون. تاريخ الماسونية، منشورات بومبياني، ميلانو، 1998م، ص 298.

مياني إلى كادورنا على أنه أخطر خصومه وأشدهم حرصاً على تشويه سمعته. لقد كان كادورنا، المسيحي البعيد كل البعد عن الماسونية، غريباً تماماً عن تلك المؤامرة. وخطؤه الوحيد كان تعجله في كتابة صفحات، وفي إصدار أحكام بناء على معلومات غير مؤكدة. وقد كان ماريشال إيطاليا بييترو بادوليو بعيداً عن هذه المؤامرة، وإن كان هو أيضاً عضواً في الماسونية.[271] لقد كانت مرتبته السامية أكبر من أن تسمح له بالانشغال بأمور لا علاقة له بها ولو من بعيد. وهكذا، عندما وصل إلى مرزق، تذكر المسكين المنسي مياني، وأرسل إليه البرقية التي يعترف له فيها بفضله؛ إذ كان أول من رسخ بقوة انتماء فزان إلى إيطاليا. وكانت تلك لفتة جميلة، ولعلها كانت أيضاً مؤثرة. وبالطبع لم تكلف شيئاً.

إن قصة أنتونيو مياني غير المعقولة، وحياته المهنية التي قطعت فجأة (بناء على إنجازاته السابقة مياني كان مرشحاً لأن يبلغ على الأقل رتبة فريق) تشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى ضعف تماسك الجيش الإيطالي عشية الحرب العالمية. فقد كان لا يزال يعاني من آثار العملية المتعجلة وغير المكتملة لدمج الجيش السرديني مع متطوعي حروب النهضة. وبسبب هذا النسيج الضعيف، كان ممكناً أن تنشأ في داخل الجيش جماعات نفوذ، وجماعات مصالح إقليمية، بل حتى محافل ماسونية، التي كانت توظف أتباعها من بين الضباط المتميزين.[272]

وأخيراً تبين قصة مياني بوضوح مدى تهور السياسة الاستعمارية لإيطاليا التي اتسمت بكونها: ليبرالية فاشية، طموحة ومهلهلة، مندفعة وغير مجدية، مشبعة بالأساطير والأحكام المسبقة، وبالتمييز العنصري، مترددة دائماً بين الدمج، والاضطهاد والإبادة تجاه السكان المحليين. ولقد كان مياني يستحق أن يكون في خدمة رؤساء أكثر شرفاً وقدرة.

---

[271] هناك شكوك حول انتماء بييترو بادوليو إلى الماسونية. وعموماً كذب الماريشال أكثر من مرة هذا الانتماء. أما ابنه ماريو فقد كان ماسونياً بكل تأكيد.

[272] أدين بالشكر إلى الأستاذ ألدو أ. مولا، الباحث القدير في شؤون الماسونية لتعاونه في مضاهاة ما لديه من معلومات ثمينة بالافتراضات التي قدمتها حول وجود مؤامرة.

الصور – صفحة 25

في الأعلى: ميناء طرابلس، 15 يوليو 1913م. السفينة ماتيلوت تحمل الجمال وقطع المدفعية الخفيفة للفرقة المحمولة على الجمال. (أ.م.ل.م.، انظر الصورة رقم 3).

فوق: ميناء طرابلس، 15 يوليو 1913م. مياني يراقب تحميل الجمال والعربات، كما يدون في تعليقه على الصورة، (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 4).

ص (26–27) : في الأعلى: ميناء طرابلس، 15 يوليو 1913م. مدينة طرابلس والسفن في الخلفية كما تشاهد من على متن السفينة ماتيلوت (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 6).

فوق: ميناء طرابلس، مساء يوم 16 يوليو 1913م. سفن الحملة تغادر الميناء متجهة إلى مصراته (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 8).

ص (28): أعلى: مصراته، 17 يوليو 1913م. أثناء التوقف في الميناء، لتحميل القوات. مياني يلتقط أربع عشرة صورة. في هذه الصورة جماعات من المجندين المحليين يتجهون نحو الميناء (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 17).

إلى اليسار: مصراته، 17 يوليو 1913م. لم تفلت هذه الزيتونة الضخمة من عين العقيد مياني اليقظة (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 18).

ص (29): مصراته، 17 يوليو 1913م. تعليق مياني على الصورة مختصر كالتالي "ثلاث فتيات عربيات". بدون أي تعليق. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 20).

ص (30): أعلى: مصراته، 17 يوليو 1913م. قسم من المدينة، كما يشاهد من القلعة التركية القديمة (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 21).

فوق: سرت، نقطة انطلاق الحملة نحو الداخل، 18 يوليو 1913م. في تعليقه الطويل على هذه الصورة (13 سطراً) يصف مياني الصخور من الحجر الرملي التي تكون الميناء (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 24).

ص(31): أعلى: سرت، 19 يوليو 1913م. منظر آخر للميناء والبحر الهائج يعرقل عمليات الإنزال. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 26).

فوق: سرت، 19 يوليو 1913م. عملية إنزال عربات الحملة بصعوبة شديدة (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 27).

ص (32): أعلى: سرت، 20 يوليو 1913م. إنزال الرجال والمعدات على الشاطئ يستمر. تظهر أوائل المخيمات (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 32).

أعلى: طريق القافلة سرت–سوكنة، أغسطس 1913م. محجر جحرة بوجويرة، وقد غمرته المياه، ومنه كان الرومان يستخرجون الأحجار لبناء قلعة بونجيم (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 38).

ص(33): أعلى: بونجيم، أغسطس 1913م. بعض ضباط مياني بين بقايا القلعة الرومانية. كتب العقيد معلقاً على هذه الصورة "الكتل المربعة تبين للعدسة الطبيعة الإسفنجية للحجر الجيري الصلب". في هذه الفرصة يقترن المصور بعالم الجيولوجيا (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 40).

ص (34): أعلى: بونجيم، أغسطس 1913م. مياني يلتقي بمجموعة من زعماء المنطقة. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 41).

فوق: بونجيم، أغسطس 1913م. قطيع من جمال قبيلة ورفلة في مراع بالقرب من بوجويرة. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 42).

ص (35): أعلى: فاطمية بوجنير، أغسطس 1913م. الحملة تتوقف عند آبار المنطقة. في التعليق على هذه الصورة يقول مياني: "الازدحام على البئر". (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 43).

ص(36): أعلى: حمام، أغسطس 1913م. نبع مياه معدنية خلال كثبان الرمال. وفي تعليقه على الصورة يشرح مياني سر قوة اندفاع المياه (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 51).

أسفل: حمام ، أغسطس 1913م. راكبو الجمال الليبيون يسوقون حيواناتهم إلى الشرب. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 52).

ص (37): سوكنة، 26 أغسطس 1913م. تمهيداً لدخول المدينة مياني يترك مياني العربة ويصعد على ذروة جمل (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 54).

ص (38): أعلى: سوكنة، أغسطس 1913م. منظر للمدينة، عاصمة منطقة الجفرة. وفيها سوف يتوقف مياني لمدة 4 أشهر (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 56).

فوق: سوكنة، سبتمبر 1913م. عملية إصلاح براميل المياه تمهيداً لعبور الصحراء بين سوكنة والشاطئ (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 57).

ص (39): فوق: سوكنة، أكتوبر 1913م. مخيم قوات مياني بالقرب من المدينة، المسورة كلها بجدران عالية (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 57م).

ص (40): أعلى: ودان، أكتوبر 1913م. مياني وبعض الضباط في زيارة لمركز القوافل في ودان، في منطقة الجفرة. كتب مياني تعليقاً على هذه الصورة: "مدينة قديمة يرجح أنها تعود إلى الحقبة الرومانية".(أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 59).

فوق: جبال السودا، نوفمبر 1913م. الصحراء الصخرية المخيفة التي كانت قافلة مياني تتهيأ لعبورها. يخصص العقيد للدراسة الجيولوجية للهضبة 14 فقرة، وسطوراً كثيرة (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 64).

ص (41): فوق: بير قطيفة، أكتوبر 1913م. عمال يعمون في شق الطريق في الجبال السودا، متجمعون على بئر قطيفة. يقول مياني معلقاً على هذه الصورة: "هذا البئر المزود بمضختين من نوع نورتون وبودان يضخ في مدى اثنتي عشرة ساعة أكثر من 30 متراً مكعباً من أجود المياه". (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 60).

ص (42): أعلى: الجبال السودا، 5 ديسمبر 1913م. العربات تتحرك بسهولة على الطريق، الممتدة على مسافة 50 كيلومتراً، التي أنشأها مياني (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 68).

فوق: الجبال السودا، 5 ديسمبر 1913م. استراحة قصيرة في وادي فيرمي على بعد 54 كيلومتراً من سوكنة. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 69.

في الصفحة المقابلة: الجبال السودا، 4 ديسمبر 1913م. قافلة مياني تغادر سوكنة وتعبر عبر الطريق التي أنشئت منذ مدة قصيرة الصحراء الصخرية. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 67).

ص (43): أعلى: صحراء بن عفين، 7 ديسمبر 1913م. استعراض المجندين الإريتريين فوق الأرض الصحراوية. السيارة الأولى في الصورة هي عربة مياني (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 77).

في الصفحة المقابلة: الجبال السودا، 6 ديسمبر 1913م. يكتب مياني معلقاً على هذه الصورة: "بداية الهبوط من هضبة ظهرة مومن نحو وادي أم زرقات. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 71).

ص (44): أعلى: صحراء بن عفين، 7 ديسمبر 1913م. مياني يرتدي معطفاً يراقب مرور فرقة المدفعية المحمولة على الجمال. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 78).

فوق: واحة أشكدة ، 12 ديسمبر 1913م. النبع الرئيس في الواحة. بالقرب من أشكدة يخوض مياني ثاني معاركه (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 83).

ص (45): أعلى: براك، 13 ديسمبر 1913م. أمام القوات والزعماء العرب وسكان عاصمة منطقة الشاطئ مياني يرفع الراية الإيطالية فوق القلعة ويعلن المنطقة "خاضعة للسيادة الإيطالية". (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 87).

فوق: على بعد كيلومترين من براك، 13 ديسمبر 1913م. يكتب مياني معلقاً على هذه الصورة: "اثنان من البرلمانيين، يحملان الراية البيضاء، يقدمان الإعلان المكتوب من قبل سكان الشاطئ بالخضوع والولاء للحكومة الإيطالية". (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 86).

ص (46): براك، 13 ديسمبر 1913م. داخل القلعة زعماء براك يوقعون وثيقة الخضوع لإيطاليا. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 91).

ص (47): أعلى: محروقة، 24 ديسمبر 1913م. إحدى مراحل المعركة التي ستكون حاسمة بالنسبة لاحتلال فزان. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 95).

فوق: براك، 13 ديسمبر 1913م. صورة مقربة لتوقيع وثيقة الخضوع. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 92).

ص (48): أعلى: محروقة، 25 ديسمبر 1913م. جثمان الرائد دومينيكو دي دومينيشيس، الذي سقط صريعاً في معركة محروقة. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 101).

فوق: محروقة، 26 ديسمبر 1913م. نبع مياه في وسط القرية. يصب في قنوات لري البساتين وسط النخيل. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 102).

ص (49): أعلى: محروقة، 31 ديسمبر 1913م. زعماء الشاطئ الأوسط والغربي، الذين حاربوا في 24 ديسمبر ضد مياني، يأتون إلى محروقة للتوقيع على وثيقة الاستسلام. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 103).

فوق: محروقة، 1 يناير 1914م. احتفال باستسلام زعماء الشاطئ. مياني يولي هذه الواقعة أهمية كبيرة، حتى أنه خصص لها 10 صور. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 105).

ص (50): أعلى: محروقة، 1 يناير 1914م. واحداً بعد الآخر يتجه الزعماء نحو طاولة القيادة لطبع أختامهم على وثيقة الاستسلام. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 107).

فوق: محروقة، 1 يناير 1914م. مياني (في الوسط) مع مجموعة من ضباطه يحضر حفل الاستسلام. (أ.م.ل.م.، انظر صورة رقم 111).

النهاية

في هذه الأثناء كان السنوسيون يستغلون تنظيمهم القبلي، الممتد في كل الأقاليم الليبية، ويكثفون من عمليات التجنيد والتحريض ... حتى أخذت ملامح الثورة تظهر في كل مكان.

هاجمت مجموعة من البدو المتمردين منطقة سرت قافلة مكونة من 500 جمل واستولوا على كل ما فيها، وفي اليوم التالي تجرأ صالح لطيوش على محاصرة الحامية الإيطالية في النوفلية.

هوجمت قافلة إمدادات متجهة إلى فزان ...

وتمت إبادة كل من كان فيها.

إن مياني لم يغب عنه مطلقاً حالة التذمر التي كانت تسود في أوساط ثلاثة الآلاف مجند ليبي، ولكنه كان يظن أن أقصى ما يمكن أن يحدث فرار بعضهم، ولم يضع في حسبانه مطلقاً أنهم يمكن أن يتمردوا، بل أن ينضموا إلى المجاهدين.

لقد كان هذا الاحتمال بعيداً جداً عن حسابه، حتى أنه وضع فرق المجندين في مقدمة الحملة. فقد كان لا يزال يثق ثقة كبيرة في قادتهم وزعمائهم، مثل رمضان اشتيوي السويحلي والساعدي بن سلطان وأبوبكر النعاس، وعبد النبي بلخير، ومحمد فوزي بي ...